بسم الله الرحمن الرحيم

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

1995

العدد الخامس

الجمهورية الإسلامية الموريتانية - انواكشوط - كلة الآداب والعلوم

الإنسانية- سكرتيرية تحرير مجلة «حوليات».

ص.ب: 5061- هاتف: 53221- تلكس: 710

اولا : المحتوى باللغة العربيه

1- دراسة تطبيقية للعلاقات بين المناخ وراحة الإنسان في موريتانيا .....
.....**بشيري ولد محمد الولاتي** 9
2- منتجات الأبقار في موريتانيا بين سيطرة البيئة وبدائية طرق الإنسان.....
..... **محمد ولد الشيخ ولد عبد القادر**..... 31
3- التصحر في الوطن العربي، أسبابه، مظاهره وطرق علاجه.....
..... **محمد الأمين ولد الحسن**..... 45
4- العلاقات التروزية الفرنسية في عهد الأستعمار الزراعي (1818-1831)
من خلال رواية أرنست بريني.....**محمد المختار ولد السعد** 64
5- ابن المقداد ومهمته في تكانت.....**محمدو ولد محمدن**.....86
6- البنية الإيقاعية في شعر عوف بن عطية بن الخرع...**إسلم ولد السبتي**...123
7- نظام الألفباء تعليمية خاصة.... **سيدي محمد ولد حدمين**..... 132
8- مشكل السببية بين الأشعرية والرشدية....بلال ولد حمزة.....143
9- الانطولوجيا والفنومينولوجيا: هيدغر أمام هوسرل. .....
.....**الحسن ولد أعمر بلول**..... 149

ثانيا: المحتوي باللغة الفرنسية

1- دور الصحراء الموريتانية في إيصال الرسالة الإسلامية إلى شعوب بلاد السودان:
السنغال نموذجا..... **سيكوصانيا**..... 9
2- الثقافة العامة لمثقف عربي مسلم في بغداد (في القرنين IV/X م) في ظل الخلافة العباسية، حسب كتاب الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي (مولود بين 310/922 و 320/932، متوفي سنة 414هـ/1023م)..... **مارك بيرجيه**..... 17
3- المُدرسة من الاعتبار إلى الأزدراء ..... **حدأمين ولد إسلم**..... 29
4- الايكونولوجيا: طريقة في علم الجمال..... **بييرريفار**..... 42
5- جدلية إنساني/ غير إنساني في الفكر الزنجي الإفريقي، المجتمع البولاري كمثال.
..... **صو عبد الله** 50
6- الإسهام الإفريقي في نشر الثقافة الإسلامية الإبيرية في أمريكا الجنوبية .....
..... عبد الودود ولد عبد الله 70

ثالثا: المحتوى باللغة الإنجليزية.

تقييم الأختبار في الإنجليزية كلغة أجنبية .....جدو سونكالو.....81

للعلاقات بين
المناخ وراحة الإنسان في موريتانيا.

إعداد :
بشيري ولد محمد الولاتي
قسم الجغرافيا

إن هناك عوامل متعددة منها الخارجي ومنها الداخلي، تؤثر مجتمعه أو منفردة بصورة مباشرة أو غير مباشرة على الإنسان، فينعكس ذلك على التأثير على راحته ونشاطه الذي تدخل فيه قدرته الإنتاجية. وأبرز هذه العوامل المناخ باعتباره يؤثر بصفة مباشرة على وجود الإنسان، وسلوكه، وعاداته، ونظام حياته من جميع النواحي المعاشية. (6 : ص. 181)، ومن هنا تمكن إعادة قول سعيد خضر الذي يفيد بأن طاقة الإنسان تعتمد على التأثير المباشر للجو المحيط به، فقد يكون هذا الأخير محفزا على العمل والإنتاج وقد يكون مخفضا للقدرة من الناحيتين العملية والعقلية. غير أن هذا التأثير يختلف من شخص لآخر ومن وقت لآخر. فالحالة المناخية المريحة لشخص ما ليس بالضرورة أن تكون هي نفسها الحالة المريحة لشخص آخر، والظروف المناخية لشخص ما في وقت معين قد لا تكون مريحة للشخص نفسه في وقت آخر. يضاف إلى ذلك أن الحر إذا كان شديدا والبرد شديد فإن ذلك يحمل الجسم على بذل مجهود لتكييف نفسه طبقا للحالة : ففي المناطق الواقعة في دوائر عرض عليا تكون الفترة بين يونيو وأغشت أكثر ملاءمة لنشاط الإنسان ومردوده، بينما في المناطق الواقعة على دوائر عرض أدنى (المعتدلة) فيكون الربيع والخريف أحسن أزمنة للعمل، ومن هنا يمكن القول بأن الشعور بالارتياح نسبي بمعنى أنه يختلف بإختلاف حالة الشخص الصحية واختلاف العمر والجنس والنشاط الجسمي (العضلي والذهني) ونوع الملابس والغذاء والخلفية الحضارية. فقد ظهر من بعض الدراسات أن النساء عموما يشعرن بالراحة أكثر من الرجال عندما يكون الجو دافئا والأشخاص الكبار في السن يشعرون بالراحة أكثر من الشباب عندما يكون الجو مائلا إلى الدفء أكثر منه إلى البرودة، كما أن الأشخاص الذين اعتادوا الحياة في الجهات الحارة يفضلون الدفء على البرودة والعكس يحدث لكثير من أولئك الذين يعيشون في الجهات الباردة (4 : ص. 47).

وماكله وماواه وما يقوم به من أعمال وما يخترع من وسائل تكييف، غير أنه ليس لجميع عناصر المناخ نفس التأثير على الإنسان حيث أن أهم عناصر المناخ ذات التأثير المباشر على راحة الإنسان ونشاطه، وهما الحرارة والرطوبة الجوية، وذلك للعلاقة القوية بين هذين العنصرين المناخيين وتحديد ما يعرف بالحرارة المحسوسة T. Sensible أي الحرارة التي يشعر ويحس بها جسم الإنسان والتي لا تحددها المحارير ولا يسجلها أي جهاز وإنما اصطلاح يستعمل للتعبير عن العلاقة بين الإنسان والجو الذي يعيش وسطه، وقد يحافظ جسم الإنسان على درجة حرارة ثابتة تقدر بنحو (33م°) وحرارة جسم داخلية بنحو (37م°) (3: ص. 3). وهذه القيم الحرارية الداخلية والخارجية تنقص وتزيد في الحالات غير الطبيعية،وذلك عن طريق عدة عمليات يكسب بواسطتها الجسم أو يخسر الحرارة، بما في ذلك طريقة الإمتصاص (Absorption) والإنعكاس (Reflexion) والتكاثف (Condensation) والتوصيل (Conduction) وغيرها من الطرق الأخرى.

وعلى أيه حال فإنه في الظروف الطبيعية تقدر حرارة سطح جلد الإنسان بحوالي (37م°) وذلك عن طريق مجموع العمليات المتصلة ببناء البروتوبلازما وبخاصة التغيرات الكيمياوية (في الخلايا الحية) التي تؤمن الطاقة الضرورية للعمليات والنشاطات الحيوية (4: ص. 4)، ويعتمد مجموع العمليات المتصلة ببناء البروتو بلازما في النهاية اعتمادا كليا على ما يتناوله ويهضمه جسم الإنسان من الطعام.

هذا ويلاحظ أن الحرارة تفقد من جسم الإنسان بصورة مستمرة وذلك للمحافظة على الجسم من التسخين الشديد بواسطة عمليات كثيرة كعملية تبخر العرق من الجلد وعملية الحمل عن طريق الهواء المتحرك فوق الجلد وعملية الإشعاع، والتوصيل، ليتصل الجسم بجسم آخر أقل برودة منه؛ وعن طريق تبخر الهواء المار في الجهاز التنفسي والرأتين؛ وعن طريق عوامل ثانوية أخرى كالمأكولات والمشروبات الباردة.

إلا أن أهم العمليات فعالية في تبريد جسم الإنسان هي عملية تبخير العرق من الجلد وعملية تبخر الهواء المار عبر الجهاز التنفسي، وهذه هي العملية التي يتحكم فيها جسم الإنسان ويسيطر عليها أكثر من أية عملية أخرى من عمليات التبريد حيث تزداد حرارة الجسم بزيادة فعاليته ونشاطاته،و بالتالي تزداد كمية العرق على الجلد الذي إذا ما أزيل عنه بواسطة التبخر كان له أثره الفاعل في تبريد الجسم،وذلك إذا كانت كمية الرطوبة النسبية في الجو قليلة، أما إذا كانت الرطوبة النسبية في الجو عالية ودرجة حرارة الهواء مرتفعة فإن التعرق يزداد إلى حد يبدأ فيه العرق ينصب من الجسم دون أن يتبخره وفي هذه الحالة يعتبر انصباب العرق عملية فقدان لماء الجسم وليس وسيلة من وسائل تبريده.وعندئذ يبدأ الشعور بالانزعاج وعدم الراحة. ففي الجهات والأوقات ذات الحرارة العالية والرطوبة النسبية المنخفضة يزداد التبخر وينتج عن ذلك إنخفاض درجة الحرارة الحسية، وبالعكس ينتج عن الحرارة الجوية

العالية والرطوبة النسبية المرتفعة انخفاض في نسبة التبخر، وبالتالي يحصل الشعور بارتفاع درجة الحرارة الحسية، وفي الجهات الصحراوية- كما هو حال منطقتنا-يستطيع الإنسان تحمل الحرارة المرتفعة حتى ولو وصلت (38م°) بينما في الجهات الإستوائية لا يستطيع المرء تحمل (27م°) وذلك بسبب جفاف هواء المناطق الصحراوية ورطوبة هواء المناطق الإستوائية (3 : ص. 5)

كما أن الحر الزائد والبرد الزائد كليهما محتملان في الجهات الصحراوية الجافة كمنطقتنا الداخلية وخصوصا الشمالية منها ـ ولكنه غير محتمل في الجهات الرطبة ـ كالمنطقة الساحلية ـ وذلك لأن الهواء الجاف يزيد التبخر من جسم الإنسان فيلطف من درجة حرارته، بينما الهواء الرطب يقلل من التبخر ويجعل الجو مرهقا وغير محتمل، وذلك باعتبار الهواء الرطب موصلا جيدا للحرارة وبالتالي يسمح بتسربها من الجسم إلى الهواء عندما يكون الجو باردا، ومن الجو إلى الجسم عندما يكون الجو حارا. وحيث أن الجسم أي جسم يكون في قمة نشاطه عندما تكون درجة حرارته الداخلية 37م° فإن فاعلية الجسم أو قدرته على العمل خارج المسكن ـ بمعزل عن عمليات التكييف المناخي ـ سوف ترتبط بمقدار تدخل المناخ بمعنى أن فاعلية الجسم تضعف برفع أو خفض الحرارة الداخلية مما يحمل الجسم على القيام بعمليات فيزيولوجية لغرض الموازنة الحرارية الجسدية وتكون عادة على حساب الجسم. والموازنة تهدف إلى جعل كل ما يكسب من حرارة أو يفقد يساوي صفرا. كما في المعادلة $f = M+R+C-E$ حيث M الحرارة المتولدة داخل جسم الإنسان وR : الحرارة المفقودة عن طريق الإشعاع الجوي الخارجي و C : الحرارة المكتسبة بفعل الجو الخارجي و E الحرارة المفقودة بفعل التبخر، والمخطط التالي يبين درجة الحرارة المثالية. والمدى الحراري المسموح به يتراوح بين 26م° ـ 40م° (1: ص. 641).

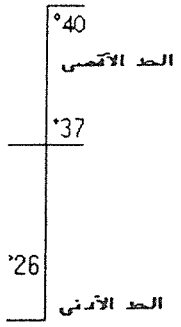

هذا وقد أجريت عدة محاولات من قبل عدد من المختصين بعلم المناخ لاشتقاق معيار عملي لتحديد ما يسمى بمنطقة الراحة وهي المنطقة التي يجدها معظم الناس مريحة من حيث درجة الحرارة ومقدار الرطوبة، ونحن هنا نحاول-إضافة إلى أهداف البحث الأخرى ـ إبراز ذلك على مستوى موريتانيا.

1- استخدام أسلوب حديث من أساليب البحث في المناخ التطبيقي يتمثل في التصنيف الفسيولوجي للأقاليم المناخية ووضعه بين أيدي الطلاب والباحثين.وهو الأسلوب الذي طوره تيرجنج W. H. Terjung وطبقه في دراسات أقاليم المناخ الفيسولوجية في الولايات المتحدة. ويعتبر منهاجا جديدا من مناهج البحث المناخي التطبيقي المعاصر، وتطويرا جغرافيا لنموذج الحرارة الفعالة بحيث يأخذ في الإعتبار - عند تحليل الموازنة الحرارية للجسم - دور كل من الإشعاع الشمسي وتبريد الرياح، وفوائده العملية متعددة. وقد حدد تيرجنج اربع مجالات يمكن لتصنيفه أن يكون مفيدا فيها وهي :

ـ الجغرافية الطبية : يمكن من خلاله تحديد مناطق انتشار الأمراض، وتحليل العلاقة بين تلك الأمراض والظروف المناخية مما يساعد - بدل تأثر أمراضهم بظروف مناخية معينة - على تحديد المناطق أو البيئات الأكثر ملاءمة لاستقرارهم.

ـ الجغرافية السياحية : يعين على تحديد المواقع الأكثر ملاءمة للتنزه والاستجمام، وأفضل الأوقات ملاءمة لمثل هذا النشاط، كما يمكن من إرشاد المتنزهين : من حيث طبيعة الملابس التي يحتاجون والنشاط الذي تمكن ممارسته، ويساعد أيضا على تحديد أكثر المناطق ملاءمة للعجزة (صغار ـ كبار) وخصوصا كبار السن.

ـ الجغرافية العسكرية : يفيد في تحديد نوعية الملابس التي تلزم الجنود،وفي تحليل أحاسيسهم واستجاباتهم الفسيولوجية والسيكولوجية للظروف المناخية في البيئات التي يضطرون للقتال فيها.

ـ الجغرافية الحضرية : يفيد في مجال هندسة البناء وتصميم المساكن وتحديد أنواع مواد البناء ومتطلبات التدفئة المركزية وفي تخطيط المدن.

2 - تطبيق تصنيف تيرجنج في دراسة أنماط المناخ الفسيولوجية في موريتانيا، وتحديد المناطق ذات المناخ المريح،وتتبع تغيرها من مكان لآخر ومن شهر لآخر.

3 - تحديد الفترات التي يشعر خلالها معظم السكان في كل مدينة بالراحة وتلك التي يشعرون فيها بالإنزعاج، وترك المجال مفتوحا لذوي الخبرات الأخرى للتفكير في كيفية تعديل ظروفها المناخية عن طريق تكييف جوها بإستخدام وسائل التبريد والتدفئة.

4 - فتح مورد جديد لاستجلاب العملة الصعبة، في ظل هذه الوضيعة الإقتصادية الصعبة حيث يشير الميزان التجاري الموريتاني إلى عجز مستمر رغم المحاولات المتعددة من الداخل والخارج للحد من هذا التراجع.

5 - توجيه رسالة علمية مفتوحة تعطي صورة واضحة عن المناخ الموريتاني للسائح في الداخل والخارج وخصوصا الموريتاني، وللحكومة الموريتانية، لكي تطور الملاعب والمظاهر السياحية التي تعتمد مباشرة على المناخ كالغطس و الصيد والقنص والإستجمام والإستطباب.

ـ إن تباين تأثير العوامل المكانية على هذه القطعة من الأرض مع عدم إستمرار تأثير بعضها ينعكس على الظروف المناخية، فيجعلها تضم أكثر من إقليم مناخي، وهو أمر يجعلنا نحكم بصلاحية مناخها للإنسان بالقياس العالمي.

ـ حركة تيار بارد قرب الساحل يجعلنا نحكم بأن المنطقة، الساحلية أكثر ملاءمة من الداخلية.

ـ احتلال الصحراء الكبرى للجزء الشمالي يجعلنا نحذف هذا الجزء من المناطق الملائمة لراحة الإنسان.

ـ ومن جهة أخرى فإن مؤسسة البحث العلمي والصناعي البريطانية قد أجرت عدة تجارب تـرى أنها توصلت منها إلى تحديد الشروط المناخية للراحة في المناطق الحارة، وهذه الشروط هي :

ـ الرياح : السرعة 2,5 م/ث.

ـ الحرارة : بين 23,33°م ـ 29,44°م.

ـ الرطوبة النسبية : 30% (8: ص. 462)، وهذه القاعدة تجعل الأيام المريحة قليلة جدا.

منهجية البحث :

نشير أولا إلى أن منهجية البحث قد تطورت بحيث انتقلت من المدرسة الحتمية القديمة التي كان يتزعمها هينتينغتون Huntington إلى العديد من النماذج الاحتمالية المتطورة نذكر منها في هذا المجال الجغرافي مصطلح «الحرارة الفعالـة» الذي طورته الجمعية الأمريكية لمهندسي التدفئة والتبريد المركزي (ASHVE)، و«معيار الضيق» الذي طور توم THOM و«المحصلة الحرارية» التي طورها مسيراند Misserand و«الحرارة القياسية للعمل» و«معامل القبول الحراري» الذي طوره مركز البحوث المناخية في الجيش الأمريكي خلال الحرب العالميةII . و«نموذج تيرجنج» (11 : ص. 53).

وكنا نود استخدام كل هذه النماذج أو أغلبها على الأقل، لكن ظروف الدوريات تفرض التقليص، وبالتالي قررنا تناولها على مراحل في مجلة الجمعية الجغرافية الموريتانية إن أمكن ذلك.

وفي هذا البحث سنستخدم معيار الراحة لتيرجنج في ثلاثة عشر مدينة موريتانية (شكل رقم : 1) بإعتبار توفر إحصائيات العناصر المناخية المطلوبة بمحطاتها لـفترة 30 سنة من 1961 - 1991 (شكل رقم 1).

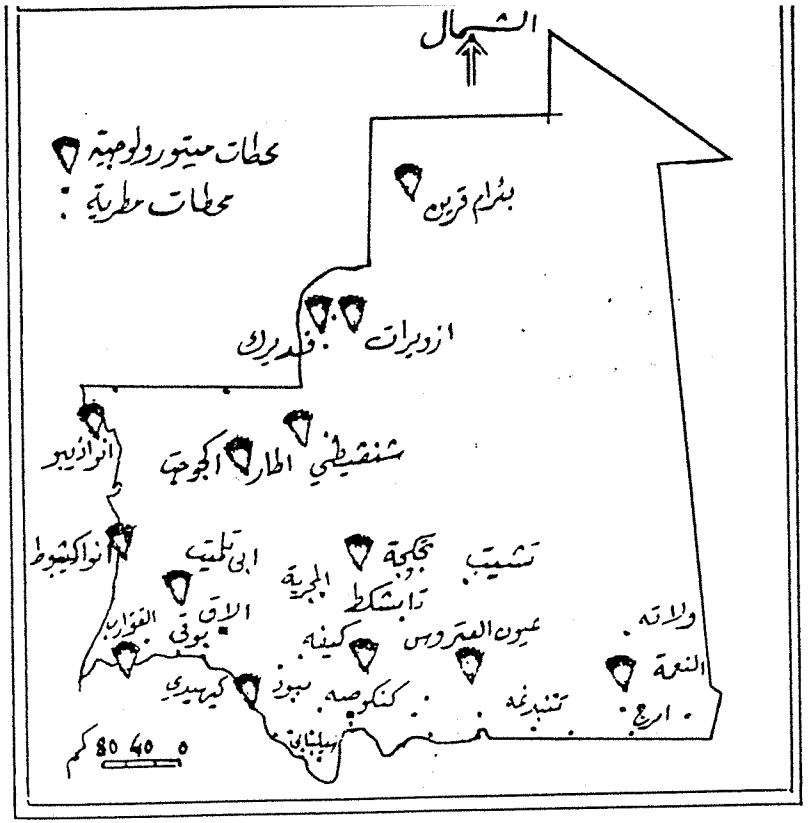

شكل رقم (1) محطات الرصد الموريتانية

معيار الراحة لتيرجنج

يعتبر هذا المعيار أداة تصنيف لأنماط المناخ في موريتانيا، وهو يتطلب الحصول على ثلاثة متغيرات هي : درجة الحرارة الفعالة ـ قدرة الرياح على التبريد ـ الإشعاع الشمسي.

I - درجة الحرارة الفعالة :

أعد تيرجنج لوحة خاصة لتحديد قرينة تمثل إحساس الجسم بالراحة أو بالضيق انطلاقا من مراحل التغيير في أحاسيس أعداد كبيرة ممن أجريت عليهم تجارب عديدة في مختبرات الجمعية الأمريكية لمهندسي التبريد والتدفئة المركزية بقصد قياس مراحل التغيير في أحاسيسهم عند تعريضهم إلى أجواء تتفاوت فيها درجات الحرارة والرطوبة وسرعة الرياح. واستعان عند رسمه لهذه اللوحة بنتائج التجارب السابقة في هذا المجال وبالحدود التي وضع مركز البحوث

قيم درجات الحرارة الفعالية إلى مديات محددة يختلف مقدار الراحة بين واحدة وأخرى بحيث تتطابق خطوط تساوي درجات الحرارة الفعالية مع خطوط الإشباع، وهي خطوط تظهر على اللوحة واصلة نقاط تساوي درجات حرارة الميزان الجاف والرطب ونقطة الندى (شكل رقم 2)، وقد أظهر هذا التقييم مجالين اثنين لكل منهما قطاعاته ولكل قطاع رمز يمثل إحساس جسم الإنسان بالظروف المناخية (شكل رقم 3).

1 - المجال الدافئ : يوجد في الشكلين على اليمين ويقسم إلى القطاعات التالية :

أ - القطاع الأول : يعرف أيضا بقطاع الراحة ويرمز له ب (ه) في الشكل(2) ويقع في الشكل الثاني بين خط (AB) وخط (CD) والخط الأول ـ على اعتبار أغلب الباحثين ـ يتماشى وخط الحرارة الفعالة 18,7م،وهو يمثل الحد الأدنى لاحساس الجسم بالراحة، أما الخط الثاني فيعتبر الحد الأدنى للقطاع الثاني (الدافئ)،ويتبع خط الحرارة الفعالة 22,2م وعنده تقل نسبة من يشعرون بالراحة عن 10%.

ب ـ *القطاع الثاني* : هو قطاع الدفء، ورمزه في الشكل (2) (1+) ويقع في الشكل الثاني بين خط (CD) و(EF) والخط الاخير (الحد الاعلى) يتماشي وخط تساوي درجة الحرارة الفعالة 25,5م.

ج ـ القطاع الثالث والرابع : إنه قطاع حار يرمز له في الشكل (2) بـ(2a) ويفصله عن القطاع الرابع (2b) الذي يمثل إحساس الجسم بالضيق الناتج عن ارتفاع في درجة الحرارة خط تساوي درجة حرارة الميزان الرطب 23,3م. ويتبع الحد الأعلى لهذين القطاعين خط الحرارة الفعالة 30م وهو الحد الذي يصبح عنده العمل خارج المباني مدة طويلة سببا محتملا في الاصابة بضربات الشمس والاعتماد وغيرها من الأمراض التي تصيب الجسم نتيجة تعرضه مدة طويلة للحرارة المرتفعة.

د ـ القطاع الخامس : هو قطاع شدة الحرارة ويبدأ من الحد الأدني للقطاع الرابع 30 م في لوحة الحرارة الفعالة، وهو الحد الذي يصبح عنده العمل خارج المباني مدة طويلة سببا محتملا في الإصابة بضربات الشمس والإغماء، وغيرها من الأمراض التي تصيب الجسم نتيجة لتعرضه مدة طويلة للحرارة المرتفعة.

2 - المجال البارد : ينقسم إلى قطاعات تقع كلها دون الحد الأدنى للقطاع المريح، وهي :

أ ـ القطاع المعاكس الأول : يرمز له في الشكل (2) بـ(1-) ويتراوح في الشكل (3) بين (AB) و(KL) ويعرف عند تيرجنج بالقطاع المعتدل البرودة، ويتبع الحد الادني لهذا القطاع خط تساوي الحرارة الفعالة 15,5م ويتفق الباحثون علي جعل هذا الخط حد الشعور بالانزعاج

من الملابس.

ب ـ القطاع المعاكس الثاني : يرمز له في الشكل (2) بـ(2-) ويتراوح بين (KL) و (MN) في الشكل (3)، وهو قطاع واضح البرودة، وبدايته هي نهاية القطاع السابق أما نهايته فخط الحرارة الفعالة 1,8م°، وهو موضوع من طرف مركز البحوث المناخية في الجيش الأمريكي، ويرون أن الجسم في ظله يحتاج ثلاث طبقات من الملابس.

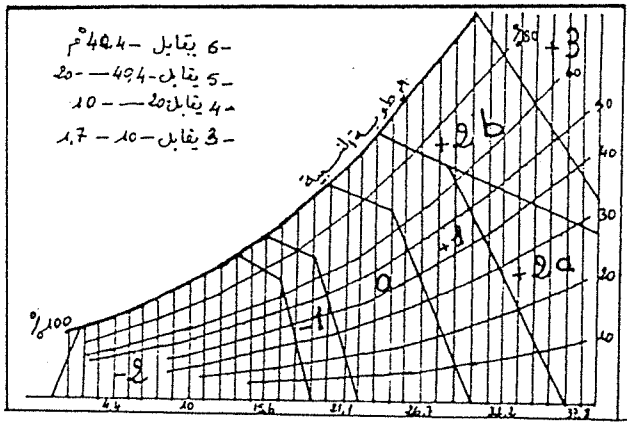

شكل ـ 2 ـ قرينة الراحة في تصنيف تيرجنج

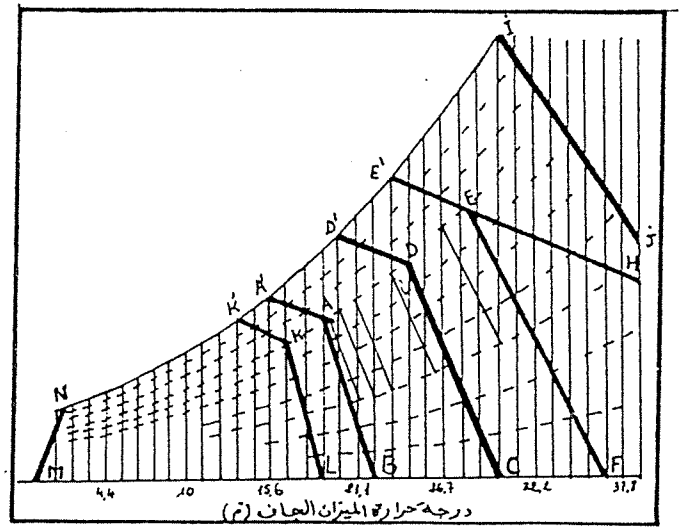

شكل ـ 3 ـ حدود أقاليم الراحة

وبالتالي يسمح برسم الحدود بين القطاعات المختلفة في لوحة الحرارة الفعالة انطلاقا من درجة الحرارة العادية ويكون ذلك على النحو التالي :

القطاع المعاكس الثالث (من 1,7 إلى 10-م°)

" " الرابع (من 10- ـ 20-م°)

" " الخامس (من 20- ـ 40,4-م°)

" " السادس (من 40,4- ـ مادون)

تطبيق المعيار

إن قرينة الحالة المناخية (جدول رقم (1) وشكل رقم (4) تبين أن المنطقة تتمتع في شهور يناير وديسمبر بمناخ المجال البارد (1-و2-) والمريح، ولا يشذ عن هذه القاعدة عدا محطة تجڤجة (يناير). وفي شهر مارس بقيت الحالة المريحة سائدة في محطات الشمال ومحطة انواكشوط بينما دخلت باقي المحطات حالة الدفء. وعندما أتي شهر ابريل وجد أن الحالة الدافئة شملت إلى جانب المحطات السابقة محطتي اڤجوجت وتجڤجه. ومنذ شهر مايو تغيرت الحالة من الدفء إلى الحر في جميع المحطات الجنوبية مع أن محطتي أقصى الشمال (بئرام قرين وفديرك) والمحطات الساحلية (انواذيبو وانواكشوط) احتفظت بحالتها المريحة، كما احتفظت اڤجوجت وتجڤجه بحالتهما الدفيئة وتغير حال محطة أطار بأن تحولت إلى حالة الدفء.

ومن هنا تتتالى لنا أربعة شهور عرفت حالة الراحة فيها ثلاث مرات فقط إحداها في انواذيبو والباقيتين في انواكشوط (يونيو ـ يوليو) والغالب فيها هو حالة الحر الشديد تليها حالة الحر ثم حالة الدفء، وهو مايعني دخولها جميعا في المجال الدافئ. وتصبح حالة المناخ في شهور يوليو واغشت وسبتمبر دافئة على مستوى انواذيبو، كذلك في اغشت وسبتمبر في انواكشوط.

وبدخول شهر اكتوبر لوحظ رجوع محطتي أقصى الشمال ومحطة انواذيبو لحالة الراحة واحتفاظ انواكشوط بحالة الدفء تشاركها فيها محطات أطار وتجڤجه وبتلميت وكيفه وعيون العتروس. هذا وإن كانت محطتي اڤجوجت والقوارب قد عرفتا حالة حر، فإن باقي المحطات سجلت حرا شديدا. وأخيرا يشرف نوفمبر ليخبر بحالة اعتدال البرودة في محطة بئر أم قرين وحالة الراحة في محطات فديرك وأطار وانواذيبو وتجڤجه وانواكشوط. وحالة الدفء في باقي المحطات.

ومن هذا التحليل للجدول رقم (1) يمكن أن نقسم السنة حسب درجة الحرارة الفعالة إلى شتاء وتمثله شهور ديسمبر ويناير وفبراير، وصيف وتمثله شهور مايو ويونيو ويوليو واغشت وسبتمبر وفصلين انتقاليين يمثل كل منهما شهران، ويفصلان بين الفصلين السابقين.

معيار الراحة (ET) والحالة المناخية في المحطات الموريتانية.

المحطات	الشهور	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠	١١	١٢
بئر أم قرين	الحالة المناخية	٠٠	٠٠	٠	٠	٠	٠٠٠	٠٠٠	٠٠٠ع	٠٠٠	٠	٠	٠٠
	معيار الراحة	شديد البرودة	معتدلة	مريحة	مريحة	مريحة	دافئة	دافئة	حارة	دافئة	مريحة	معتدلة	شديد البرودة
قديرك	الحالة المناخية	٠٠	٠٠	٠	٠	٠	٠٠٠	٠٠٠ع	٠٠٠ع	٠٠٠	٠	٠	٠٠
	معيار الراحة	معتدلة	معتدلة	مريحة	مريحة	مريحة	دافئة	حارة	حارة	دافئة	مريحة	مريحة	معتدلة للبرودة
أطار	الحالة المناخية	٠	٠	٠	٠٠٠	٠٠٠	٠٠٠ع	٠٠٠ع	٠٠٠ع	٠٠٠ع	٠٠٠ع	٠٠٠	٠
	معيار الراحة	مريحة	مريحة	مريحة	دافئة	دافئة	حارة	حارة جدا	حارة	حارة	حارة	دافئة	مريحة
اكجوجت	الحالة المناخية	٠	٠	٠	٠	٠٠٠	٠٠٠ع	٠٠٠ع	٠٠٠ع	٠٠٠ع	٠٠٠	٠	٠٠
	معيار الراحة	مريحة	مريحة	مريحة	مريحة	دافئة	حارة	حارة جدا	حارة جدا	حارة	دافئة	مريحة	معتدلة
انواذيبو	الحالة المناخية	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠٠٠	٠٠٠	٠٠٠	٠	٠	٠٠
	معيار الراحة	مريحة	مريحة	مريحة	مريحة	مريحة	مريحة	دافئة	دافئة	دافئة	مريحة	مريحة	معتدلة
انواكشوط	الحالة المناخية	٠٠	٠	٠	٠	٠٠٠	٠٠٠	٠٠٠	٠٠٠	٠٠٠	٠٠٠	٠	٠
	معيار الراحة	معتدلة	مريحة	مريحة	مريحة	دافئة	دافئة	دافئة	دافئة	دافئة	دافئة	مريحة	مريحة
بتلميت	الحالة المناخية	٠	٠	٠٠٠	٠٠٠	٠٠٠ع	٠٠٠ع	٠٠٠ع	٠٠٠ع	٠٠٠ع	٠٠٠	٠٠٠	٠
	معيار الراحة	مريحة	مريحة	دافئة	دافئة	حارة	حارة جدا	حارة جدا	حارة جدا	حارة جدا	دافئة	دافئة	مريحة
تجكجة	الحالة المناخية	٠٠٠	٠	٠	٠٠٠	٠٠٠	٠٠٠ع	٠٠٠ع	٠٠٠ع	٠٠٠ع	٠٠٠	٠	٠٠
	معيار الراحة	دافئة	مريحة	مريحة	دافئة	دافئة	حارة	حارة جدا	حارة جدا	حارة جدا	دافئة	مريحة	معتدلة
كيفة	الحالة المناخية	٠	٠	٠٠٠	٠٠٠	٠٠٠ع	٠٠٠ع	٠٠٠ع	٠٠٠ع	٠٠٠ع	٠٠٠	٠٠٠	٠
	معيار الراحة	مريحة	مريحة	دافئة	دافئة	حارة	حارة جدا	حارة جدا	حارة جدا	حارة	دافئة	دافئة	مريحة
عيون العتروس	الحالة المناخية	٠	٠	٠٠٠	٠٠٠	٠٠٠ع	٠٠٠ع	٠٠٠	٠٠٠ع	٠٠٠ع	٠٠٠	٠٠٠	٠٠
	معيار الراحة	مريحة	مريحة	دافئة	دافئة	حارة	حارة	دافئة	حارة	حارة جدا	دافئة	دافئة	معتدلة
النعمة	الحالة المناخية	٠	٠	٠٠٠	٠٠٠	٠٠٠ع	٠٠٠ع	٠٠٠ع	٠٠٠ع	٠٠٠ع	٠٠٠ع	٠٠٠	٠
	معيار الراحة	مريحة	مريحة	دافئة	دافئة	حارة	حارة	حارة	حارة	حارة جدا	حارة جدا	دافئة	مريحة
القوارب	الحالة المناخية	٠	٠	٠٠٠	٠٠٠	٠٠٠	٠٠٠ع	٠٠٠ع	٠٠٠ع	٠٠٠ع	٠٠٠ع	٠٠٠	٠
	معيار الراحة	مريحة	مريحة	دافئة	دافئة	دافئة	حارة	حارة جدا	حارة جدا	حارة جدا	حارة	دافئة	مريحة
كهيدي	الحالة المناخية	٠	٠	٠٠٠	٠٠٠	٠٠٠ع	٠٠٠ع	٠٠٠ع	٠٠٠ع	٠٠٠ع	٠٠٠ع	٠٠٠	٠
	معيار الراحة	مريحة	مريحة	دافئة	دافئة	حارة	حارة جدا	حارة جدا	حارة جدا	حارة جدا	حارة جدا	دافئة	مريحة

وعلى مستوى القطاعات يمكن ترتيبها حسب درجة [illegible] في انواكشوط - فديرك - أطار - بئر أم قرين - اكْجوجت - عيون العتروس - تجكْجه - القوارب - النعمة - بتلميت - كيهيدي.

ولم يبق سوى أن نضيف ملاحظات تيرجنج عن كل القطاعات التي تهمنا.

II - قدرة الرياح علي تبريد الجسم :

إن درجة الحرارة الفعالة تبين إحساس الجسم البشري عندما يكون وسط مكان هادئ الرياح، كداخل المساكن أو المصانع أو المكاتب.. الخ. وإذا ما أردنا معرفة إحساس الجسم خارج المباني، فإنه يلزمنا أخذ دور الرياح في خفض درجة حرارة الجسم بنظر الإعتبار، وقد حسبنا مقدار هذا التبريد بمعادلة وضعها باسل C. F. Passel وسيبل P. A. Siple سنة 1945 لهذا الغرض وهي كالتالي : $ko = [\sqrt{(100v)} + 10,45 - v] (33 - ta)$ حيث ko : تأثير الرياح على خفض درجة حرارة جسم في الظل، وهي تمثل الطاقة التي يفقدها المتر المربع من سطح جسم الإنسان في الساعة مقاسا بآلاف السعرات الحرارية (كيلو كالوري/س2/ساعة)، شريطة أن يكون الشخص في الظل وغير معرض للشمس مباشرة.

الجدول رقم 2 :

مقياس تأثير الرياح على الإحساس العام.
عن (1:ص 207)

الإحساس العام	رمز المنطقة	ko قيمة	
اضافة حرارية إلى الجسم تؤدي إلى شعور شديد بالإنزعاج	.+3	50	- -
اضافة حرارية إلى الجسم تؤدي إلى شعور شديد بعدم الراحة	.+2b	100	50
يحس الجسم بالدفء	.+2a	200	100
تأثير الرياح اللطيف	.+1	400	200
تأثير الرياح أقرب للبرودة (مريح)	0	600	400
تأثير الرياح بارد	-1	800	600
تأثير الرياح بارد جدا	-2	1000	800
تأثير الرياح بالغ البرودة (قارس)	-3	1200	1000
تأثير الرياح قارس جدا	-4	1400	1200
تأثير الرياح يصل درجة التجميد	-5	2000	1400
تأثير الرياح فوق درجة التجميد	-6	2500	2000

ta : درجة حرارة الهواء بالدرجة المئوية (مْ) (10: ص. 186). ووضع ميزانا أدرجناه في الجدول الذي يحمل رقم (2). وتجدر الإشارة إلى أن تأثير الرياح ينعدم عندما تكون درجة حرارة الهواء مساوية لدرجة حرارة جلد الإنسان 33مْ. وإذا زادت درجة حرارة الهواء عن هذه القيمة فإن توجه الحرارة من الوسط الخارجي إلى الجسم لا يحدث بسهولة بسبب العمليات الفسيولوجية وأهمها إفراز مزيد من العرق وما يترتب على وجود الماء على الجلد من عملية تبخير.

تطبيق المعيار :

نشير بادء ذي بدء إلى أننا لم ندخل محطة كيهيدي في هذا الموضوع لأنها لا تستوفي متطلبات تطبيق معادلة قدرة الرياح على التبريد فهي لا تقاس بها سرعة الرياح، ومن ثم ننظر إلى الجدول والشكل المعبرين عن قدرة الرياح على تبريد الجسم البشري حيث يتبين أن الحالة المناخية في شهور الصيف (مايو، يونيو، يوليو، أغشت، سبتمبر) تتراوح بين المزعجة وغير المريحة في جميع أنحاء البلاد باستثناء محطتي انواكشوط (دافئة) وانواذيبو (لطيفة) والشهر الخامس في بئر أم قرين (لطيفة) وفديرك (دافئة)، والشهر العاشر فيهما أيضا. ويدخل في فصل الصيف فصل الخريف الذي يغير من الحالة المناخية إيجابيا وهو ما نلاحظ من تتبع المحطات التي تربح أمطارا بانتظام نسبيا، فتعمل على تخفيض درجة الحرارة وبالتالي الرفع من مستوى قرينة ko من الحالة المزعجة إلى غير المريحة.

أما بالنسبة لفصل الشتاء (11 - 12 - 1 - 2) فقد تميزت الحالة بأنها تتراوح بين الدفء واللطافة في جميع المحطات ما عدا شهر (11) في محطتي النعمة والقوارب (غير مريح) وشهر (12) في محطة بئر أم قرين (اقرب للبرودة) وشهر (2) في محطات كيفة والنعمة وعيون العتروس (دافئ).

وعن الشهرين الباقيين اللذين يمثلان الربيع تباينت الحالة المناخية حيث كانت في شهر مارس لطيفة في المحطات الشمالية (انواكشوط، انواذيبو، اقْجوجة، أطار، بئر أم اقرين) ودافئة في كل المحطات الجنوبية باستثناء النعمة التي سجلت حالة غير مريحة.

أما في شهر ابريل فإن الحالة اللطيفة ظهرت في محطات بئر أم اقرين وفديرك وانواذيبو وانواكشوط والدافئة في محطات أطار واقْجوجت وبتلميت وتجكجة والقوارب، وحالة عدم الراحة في كيفة وعيون العتروس وحالة الانزعاج في محطة النعمة.

وهذا يعني أن هذه القرينة مكنت ـ إضافة إلى ما سبق ـ من فرز الشهور المثالية للشعور بالراحة، وهي شهري يناير وفبراير إلى حد كبير من الشهور السيئة بالنسبة للشعور بالراحة وتشمل شهري يونيو ويوليو مع بعض الاستثناءات.

شكل رقم ١٣١ [illegible]

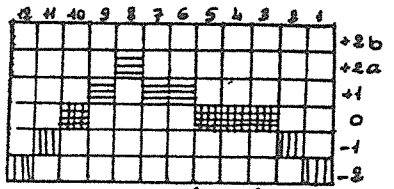

ب- محطة فديزك

أ- محطة بئر أم قرين

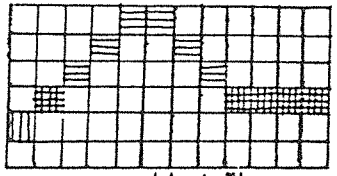

د- محطة اطار

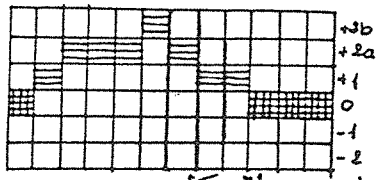

جـ- محطة الكنجوجت

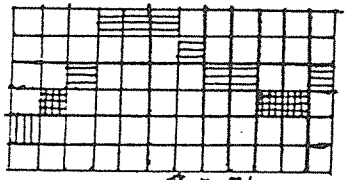

و- محطة تجلجه

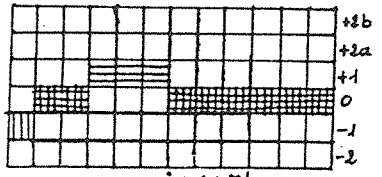

هـ- محطة انواذيبو

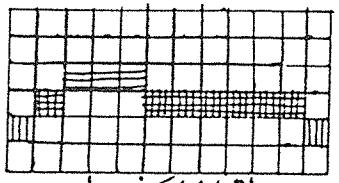

جـ- محطة انواكشوط

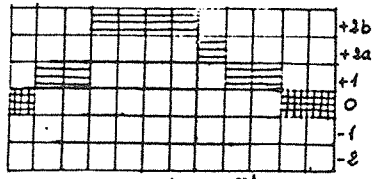

ز- محطة ابى تلميت

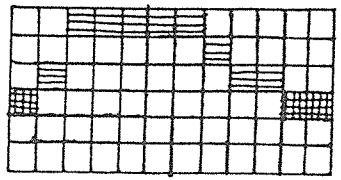

ي- محطة كيهيدي

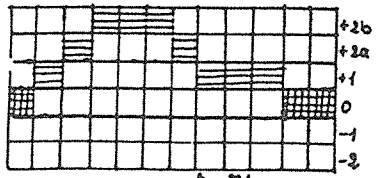

ط- محطة القوارب

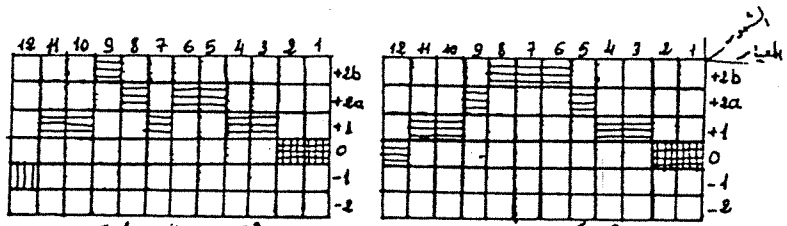

ك- محطة كيفن

ل- محطة عيون الفرنسيس

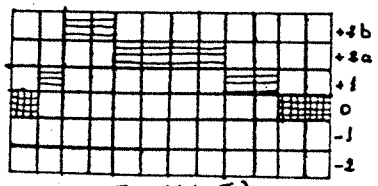

م- محطة النعمة

المناطق الساحلية. وعندما ينزل المطر، ويدخل الخريف يساعد ذلك على المزيد من التعود بالضيق، بسبب زيادة الرطوبة ودخول خط الإستواء الحراري. وفي الشتاء تساعد الرياح على زيادة الإحساس بالبرودة إلا أن قوة تأثيرها لم تتعد درجة القرب من البرودة. أما في فصل الربيع فيظهر عدم انتظام لقدرة الرياح على التبريد والتضييق.

جدول رقم (3) القدرة على التبريد والحالة المناخية فى المحطات الموريتانية

المحطة		1	2	3	4	5	6	7	8	9	10	11	
نواذيبو	القيمة	399.83	370.97	333.45	307.92	307.76	167.83	31.36	20.65	98.7	193.68	314.5	411.18
	سمار الراحة	٠١	٠١	٠١	٠١	٠١	٠٢٥	٠٣	٠٣	٠٢٥	٠٢٥	٠١	0
	الحالة المناخية	المثالية	المثالية	المثالية	المثالية	المثالية	باردة	مرتفعة	مرتفعة	غير مريحة	باردة	المثالية	قرب البرودة
تيشيت	القيمة	336.6	310.36	261.81	245.96	154.22	77.54	-13.07	-12.99	38.47	146.2	248.78	351.79
	سمار الراحة	٠١	٠١	٠١	٠١	٠٢٥	٠٣	٠٣	٠٣	٠٣	٠٢٥	٠١	٠١
	الحالة المناخية	المثالية	المثالية	المثالية	المثالية	غير مريحة	مرتفعة جدا	مرتفعة جدا	مرتفعة جدا	مرتفعة	باردة	المثالية	المثالية
أطار	القيمة	308.86	268.46	208.84	125.3	54.49	22.61	32.66	-22.11	7.25	79.1	180.43	304.12
	سمار الراحة	٠١	٠١	٠١	٠٢٥	٠٢٥	٠٣	٠٣	٠٣	٠٣	٠٢٥	٠٢٥	٠١
	الحالة المناخية	المثالية	المثالية	المثالية	غير مريحة	باردة	مرتفعة	مرتفعة	مرتفعة جدا	مرتفعة	غير مريحة	باردة	المثالية
شنقيط	القيمة	269.99	226.73	177.14	122.23	52.43	33.32	-7.86	-23.54	23.54	43.14	157.79	270.61
	سمار الراحة	٠١	٠١	٠١	٠٢٥	٠٣	٠٣	٠٣	٠٣	٠٣	٠٣	٠٢٥	٠١
	الحالة المناخية	المثالية	المثالية	باردة	مرتفعة	مرتفعة	مرتفعة	مرتفعة جدا	مرتفعة	مرتفعة	باردة	المثالية	المثالية
ولاتة	القيمة	370.3	368.42	351.91	337.84	338.56	208.88	202.8	236.29	211.13	235.07	290.15	361.12
	سمار الراحة	٠١	٠١	٠١	٠١	٠١	٠١	٠١	٠١	٠١	٠١	٠١	٠١
	الحالة المناخية	المثالية	المثالية	مريحة	المثالية	المثالية	المثالية	المثالية	المثالية	المثالية	مريحة	المثالية	المثالية
تيرس الغربية	القيمة	307.14	277.42	237.91	214.03	193.32	158.33	148.26	126.76	102.39	107.86	185.32	302.21
	سمار الراحة	٠١	٠١	٠١	٠١	٠٢٥	٠٢٥	٠٢٥	٠٢٥	٠٢٥	٠٢٥	٠٢٥	٠١
	الحالة المناخية	المثالية	المثالية	المثالية	المثالية	باردة	باردة	باردة	باردة	باردة	باردة	باردة	المثالية
كيفة	القيمة	260.69	208.57	136.92	107.01	58.47	17.59	58.96	70.12	55.11	38.81	138.21	251.99
	سمار الراحة	٠١	٠١	٠٢٥	٠٢٥	٠٣	٠٣	٠٣	٠٢٥	٠٢٥	٠٢٥	٠٢٥	٠١
	الحالة المناخية	المثالية	باردة	باردة	باردة	مرتفعة	مرتفعة	غير مريحة	غير مريحة	غير مريحة	غير مريحة	باردة	المثالية
تجكجة	القيمة	299.36	257.19	193.96	168.47	79.69	-49.17	9.13	35.29	40.19	134.36	169.88	300.84
	سمار الراحة	٠١	٠١	٠٢٥	٠٢٥	٠٣	٠٣	٠٣	٠٣	٠٣	٠٢٥	٠٢٥	٠١
	الحالة المناخية	المثالية	المثالية	باردة	باردة	مرتفعة	مرتفعة جدا	مرتفعة	مرتفعة	مرتفعة	باردة	باردة	المثالية
كيهة	القيمة	280.97	186.47	118.86	66.61	-27.93	-37.5	33.89	73.88	44.73	52.52	115.01	219.88
	سمار الراحة	٠١	٠٢٥	٠٢٥	٠٢٥	٠٣	٠٣	٠٣	٠٢٥	٠٣	٠٢٥	٠٢٥	٠١
	الحالة المناخية	المثالية	باردة	باردة	غير مريحة	مرتفعة جدا	مرتفعة جدا	مرتفعة	غير مريحة	مرتفعة	غير مريحة	باردة	المثالية
تجيد الشرقية	القيمة	257.34	188.47	123.12	69.35	-37.15	-37.89	37.89	85.33	37.86	40.39	142.66	253.91
	سمار الراحة	٠١	٠٢٥	٠٢٥	٠٢٥	٠١	٠١	٠٣	٠٢٥	٠٣	٠٣	٠٢٥	٠١
	الحالة المناخية	المثالية	باردة	باردة	غير مريحة	مرتفعة جدا	مرتفعة جدا	مرتفعة	غير مريحة	مرتفعة جدا	مرتفعة جدا	باردة	المثالية
النعمة	القيمة	245.61	137.76	88.91	28.91	-64.12	-69.88	27.24	72.97	44.28	15.87	80.84	236.54
	سمار الراحة	٠١	٠٢٥	٠٢٥	٠١	٠١	٠١	٠١	٠٢٥	٠١	٠١	٠٢٥	٠١
	الحالة المناخية	المثالية	غير مريحة	غير مريحة	مرتفعة	مرتفعة جدا	مرتفعة جدا	مرتفعة	غير مريحة	مرتفعة	غير مريحة	غير مريحة	المثالية
الكرب	القيمة	240.89	205.53	162.16	144.96	91.84	68.45	70.3	98.24	76.8	79.94	90.36	248.1
	سمار الراحة	٠١	٠١	٠٢٥	٠٢٥	٠٢٥	٠٢٥	٠٢٥	٠٢٥	٠٢٥	٠٢٥	٠٢٥	٠١
	الحالة المناخية	المثالية	المثالية	باردة	غير مريحة	غير مريحة	غير مريحة	غير مريحة	غير مريحة	غير مريحة	غير مريحة	غير مريحة	المثالية

ذلك أن الإشعاع الشمسي يقتصر على النهار، وهذا يعني أن تأثيره يقتصر على ساعات سطوح الشمس الفعلية. وقد وجد تيرجنج أن الإشعاع الشمسي يؤدي في المتوسط إلى نقصان معدل التبريد بمقدار 200 كيلو كالوري للمتر2 /س (200 K. Cal. m²/h)، كما ذكر «هاريس» Harris (سنة 1959) أن هذا الإشعاع لا يتفوق على درجة حرارة الهواء، وأن هذه القيمة يمكن أن تجعل مطابقة لدوائر العرض (12 : ص. 160).

ولأننا أهملنا تناقضات الليل والنهار، ولأن المعادلة لا تأخذ بنظر الاعتبار الإشعاع الأرضي، ولأن الليل والنهار شبه متساويين زمنيا في منطقة الدراسة، فسنعتبر نتيجة نقص ساعات الليل من ساعات النهار صفرا.

VI - *التوزيع المناخي الحياتي :*

يتضح مما سبق أن تصنيف تيرجنج ذو شقين يتعلق الأول منهما بتوزيع درجة الحرارة الفعالة ويتعلق الثاني بتأثير كل من هبوب الرياح والإشعاع الشمسي. وقد تناولناهما منفردين. الآن نجمع بينهما لندخل بهذه الوسيلة مجال المناخ الفسلجي، لإبراز خصائص هذا النوع من المناخ في موريتانيا، وسنستعين بالجدول رقم (4) لتحقيق هذا الهدف.

يعتبر فصل الشتاء فصل سيادة أصناف W وفصل الصيف سيادة EH، والفصلان الانتقاليان غير واضحي المعالم، وعندما ننظر المستوى الشهري من خلال الأشكال رقم (5) فندرك مايلي :

1 - إن شهر يناير لطيف عموما مع تدرج من W4 (بئر أم قرين) وهي الأقرب لحالة الراحة و W1 (تجفجة وهي الأقرب من حالة الدف،).

2 - إن شهر فبراير تغيرت به حالة تجفجة نحو الأحسن وتراجع انواكشوط وبئر أم قرين درجة لكل منهما، كما ظهرت حالة الدف، في المحطات الشرقية الثلاثة : النعمة ـ عيون العتروس ـ كيفة.

3 - تراجع حالة بئر أم قرين وفديرك في شهر مارس، بينما حافظت محطات أطار واقجوجت وانواذيبو على حالتها، ودخلت المحطات الأخرى ـ بدرجات متفاوتة ـ حالة الدف، وعدم الراحة (النعمة فقط).

4 - احتفاظ محطات انواكشوط وانواذيبو وافديرك وبئر أم قرين في شهر ابريل بحالة اللطافة المناخية ومحطتي القوارب وبتلميت بحالة الدف، (H2)، وقد انضافت إليهما محطتا تجفجة واقجوجت. أما محطات الشرق فتحولت - كيفة وعيون العتروس - إلى الحالة غير المريحة ومحطة النعمة إلى حالة الانزعاج فاتحة بذلك فصل الانزعاج.

5 - دخول حالة الانزعاج، في شهر مايو، إلى محطات عيون العتروس وكيفة وبتلميت

القوارب وأطار فإنهما دخلتا المجال غير المربح، في الوقت الذي دخلت فيه انواكشوط المجال الداف، واحتفظت المحطتان الباقيتان بحالتهما.

جدول رقم (4) المقياس الموحد للراحة (تير جنح. 1966)
عن (12: ص 164)

الرمز	المجموع
0/0	M1
0/-1	M2
0/-2	M3
0/-3	M4
الخ	الخ
-1/-1	C1
-1/-2	C2
-1/-3	C3
الخ	الخ
-2/-2	K1
-2/-3	K2
-2/-4	K3
الخ	الخ
-3/-3	CD1
-3/-4	CD2
-3/-5	CD3
الخ	الخ
-4/-4	VC1
-4/-5	VC2
الخ	الخ
-5/-5	EC1
الخ	الخ
-6/-6	UC1

الرمز	المجموع
.+3/+2b	EH1
.+3/+2a	EH2
.+3/+1	EH3
.+3/0	EH4
.+3/-1	EH5
الخ	الخ
.+2b/+2b	S1
.+2b/+2a	S2
.+2b/+1	S3
.+2b/-0	S4
.+2b/-1	S5
الخ	الخ
.+2a/+2	H1
.+2a/+1	H2
.+2a/-0	H3
.+2a/-1	H4
.+2a/-2	H5
الخ	الخ
.+1/+1	W1
.+1/-1	W2
.+1/-1	W3
.+1/-2	W4
الخ	الخ

فديرك، كما تراجعت محطة بئر أم قرين حيث دخلت إلى جانب انواكشوط المجال الداف، واحتفظت انواذيبو بمركزها.

الاشكال رقم (5) توزيع التصنيف المناخي الفسلجي حسب شهور السنة

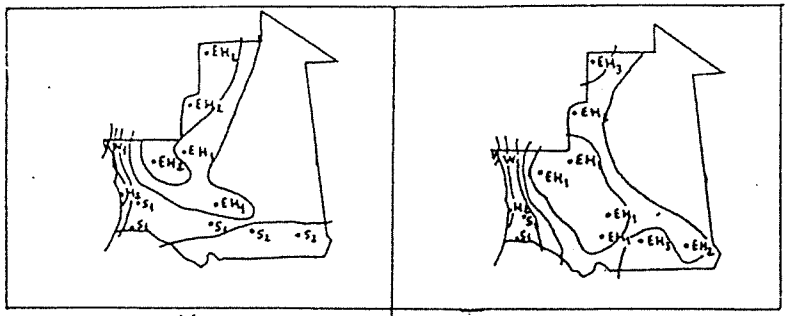

شكل (5).ز. توزيع التصنيف المناخي الفسلجي لشهر يوليو

شكل (5).ح. اغشت

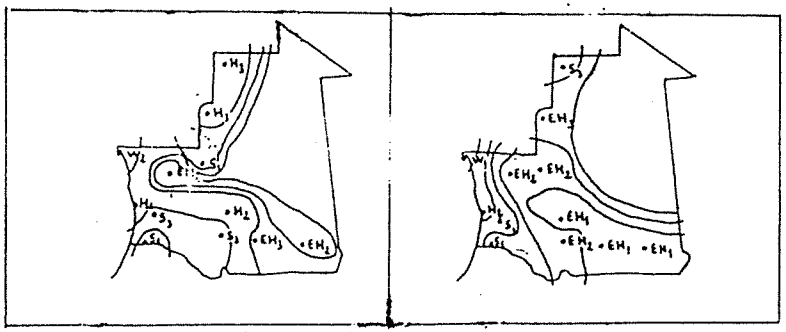

شكل (5).ط. سبتمبر

شكل (5).ي. اكتوبر

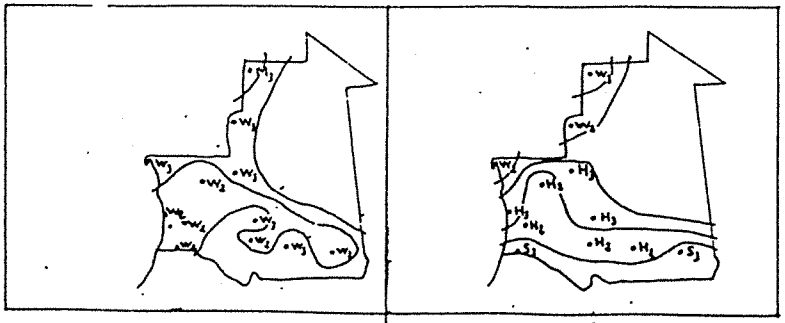

شكل (5).ك. نوفمبر

شكل (5).ل. ديسمبر

_ تجكجة _ كيفة) جاء في الدرجة الأولى،وفي الثانية النعمة وافديرك، وعندما نأتي للمنطقة الساحلية نجدها تتدرج من الجنوب نحو الشمال (القوارب S1 - انواكشوط H2 - انواذيبو W1).

وهو ما بين تراجعا بدرجة على مستوى محطة انواكشوط وتحسنا على مستوى محطة بتلميت (S1).

الأشكال (5) توزيع التصنيف المناخي الفسلجي حسب شهور السنة.

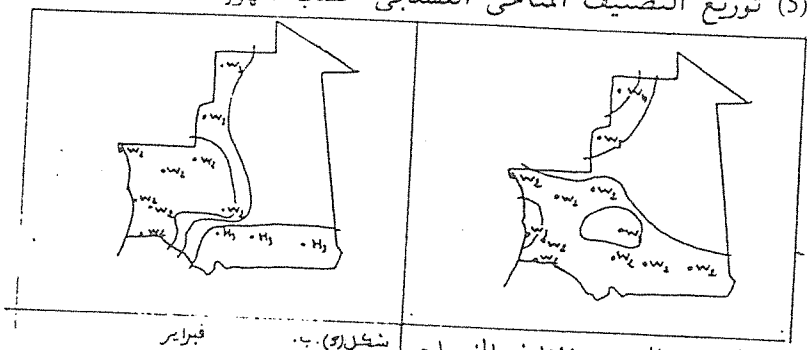

شكل (5).أ. توزيع التصنيف المناخي الفسلجي لشهر يناير

شكل(5).ب. فبراير

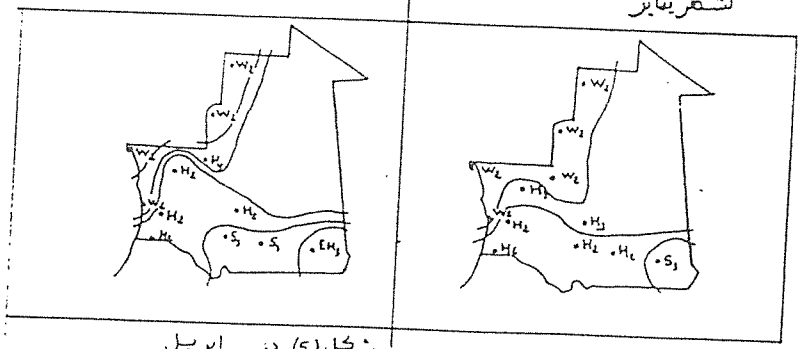

شكل(5).ج. مارس

شكل(5).د. ابريل

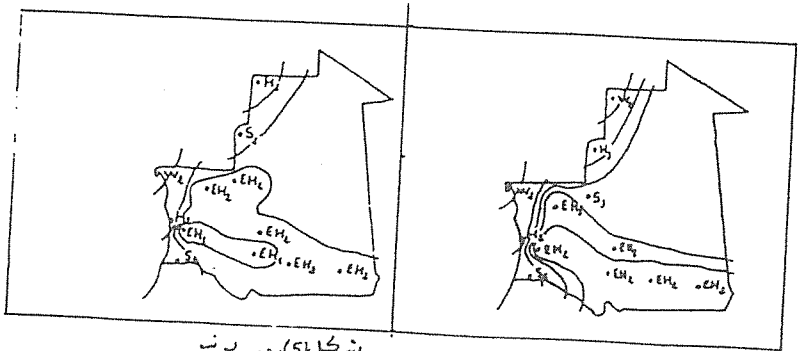

شكل(5).ه. مايو

شكل(5).و. يونيو

بينما لم يتغير أي شيئ على مستوى المحطات الساحلية وشبه الساحلية (انواذيبو - انواكشوط - القوارب - بتلميت)، وظلت المحطات الشمالية وتجقجة بحالتها المزعجة.

9 - لقد تراجعت في سبتمبر محطات النعمة وعيون العتروس وكيفة لحالتها الأولى وتحسن حال اطار وبئر أم قرين دون أن تخرجا عن المجال المزعج وانضمت بئر أم قرين إلى ركب المحطات الساحلية وشبه الساحلية.

10 - في اكتوبر تحسنت ظروف كل المحطات عدا انواذيبو والقوارب واقجوجت وبتلميت وانواكشوط بل ان بعض المحطات خرجت من مجالها مثل كيفة وتجقجة وبئر أم قرين وفديرك وأطار.

11 - في نوفمبر أصبحت حالة الدفء هي السائدة، شمالها لطيف وجنوبها غير مريح.

12- وأخيرا سادت في شهر ديسمبر حالة اللطافة حتى أن محطة بئر أم قرين سجلت درجة قياسية بدخولها المجال المريح.

ونشير إلى أن هذه التغيرات يمكن إرجاعها إلى تغيرات الضغط الجوي (الحركة الهوائية) والحركة الظاهرية للشمس وما ينشأ عنها من سقوط مطر (حالة شهر أغشت وشهر يونيو في الجنوب) أو هبوب الهواء الحار واللطيف (حالة المحطات الشمالية في شهر نوفمبر)، إضافة إلى الموقع بالنسبة للمحيط (القارية ـ البحرية) وكذلك الغطاء النباتي والتضاريس بدرجة أقل.

وهنا نقارن بين ما توصلنا إليه من نتائج وما طرحنا من فرضيات. لقد تبين تأثير العوامل المكانية من خلال ظهور الأقاليم الفسلجية التي تتباين أحيانا. وظهر أن المنطقة الساحلية أكثر ملاءمة لراحة الإنسان من المنطقة الداخلية، وأن القاعدة المستخلصة في الظروف العادية هي : أنه كلما ابتعدنا عن ساحل المحيط زاد الشعور بعدم الراحة، وأن نزول المطر وتعامد الشمس يُغيران القاعدة. كما ان تأثير تيار كاناريا البارد كان واضحا على مستوى محطة انوذيبو ومحطات الشمال (بئر ام قرين وفديرك)، ولو ان البعض قد يرجع هذا التأثير إلى عوامل أخرى، ووجدنا أيضا أن الجزء الصحراوي ـ باستثناء شرقه الذي لا توجد به محطات ـ يعرف ظروفا جيدة في أغلب الأحيان وخصوصا أقصى الشمال، وبالتالي لا مجال لحذفه كما ورد في الفرضية الثالثة.

1 - الراوي، عادل سعيد، صناعة السياحة في العراق، رسالة دكتوراه، جامعة مانشستر، 1982.
2 - الراوي، عادل سعيد، «تقييم مناخ الأردن لغرض الاصطياف»، مجلة كلية الإدارة والإقتصاد، الجامعة المستنصرية، (عدد : 15، 1987)، ص. 637-652.
3 - الشلش، علي حسين، «المناخ وأشهر الحد الأقصى للراحة ولكفاءة العمل في العراق»، مجلة كلية التربية، جامعة البصرة، (عدد : 3، 1980).
4 - الشلش، علي حسين، «المناخ والحاجة إلى تكيف الهواء في العراق»، مجلة كلية الآداب، جامعة البصرة، (عدد : 18، 1981) ص. 47-79.
5 - الشلش، علي حسين، «تحديد أشهر المناخ المريح وغير المريح في سبعة مدن عربية خليجية» مجلة كلية الآداب، جامعة بغداد، (عدد : 4، 1986)، ص. 155-170.
6 - الولاتي، بشيري ولد محمد، محطة القوارب الساحلية، دراسة في التحليل الكمي المناخي، بحث دبلوم، معهد البحوث والدراسات العربية ببغداد، 1989.
7 - الولاتي، بشيري ولد محمد، مناخ موريتانيا، دراسة إقليمية كمية، رسالة ماجستير، معهد البحوث والدراسات العربية ببغداد، 1990.
8 - حسين، سعيد خضر، «المناخ وحياة الإنسان»، مجلة الجامعة المستنصرية، (عدد : 3، 1972) ص. 461-464.
9 - سفاف، أدهم، المناخ والأرصاد الجوية، (حلب : جامعة حلب، 1976).
10 - شحادة، نعمان، المناخ العملي (عمان : مطبعة النور النموذجية، 1983).
11 - شحادة، نعمان، «أنماط المناخ الفسيولوجية في الأردن، دراسة تطبيقية للعلاقة بين المناخ وأحاسيس الناس»، مجلة دراسات الجامعة الأردنية، (عدد : 2، 1985) ص. 51-88.
12 - علوي، إيمان، تأثير الطقس والمناخ في العراق على الجسم البشري، وعلاقة ذلك ببعض الأمراض، رسالة ماجستير في الفيزياء، الجامعة المستنصرية، 1980.

جدول رقم (1) متوسط درجات الحرارة (مم.)

	1	2	3	4	5	6	7	8	9	10	11	12
بئر أم قرين	14,6	16,4	20	23,7	24,9	26,5	31,8	32,3	29,1	25,3	20,1	16,4
قديرك	19,3	20,9	23,8	23,7	27,1	26,3	33,5	33,5	31,5	27,3	23,1	18,9
انواذيبو	19	20,5	20,4	26,5	31,3	22,7	33	24,1	25,3	24,3	22,9	20,1
أطار	20	21,8	24,5	27,9	30,8	33,9	34,3	33,9	32,7	29,7	25,3	20,2
أكجوجت	22,1	23,7	25,9	28,1	31,7	34,3	33,2	33,9	33,1	31,3	26,9	21,9
تجكجة	20,2	22,5	25,2	28,1	31,7	33,8	33,6	31,4	31,2	29,6	25,2	20
انواكشوط	20,6	21,8	23,6	27,1	25,9	27,1	27,1	27,5	28,6	28,5	25,2	20,7
بتلميت	21,7	24,7	24,8	26,8	31,5	32,3	34,6	36,1	36,7	30,6	27,5	23,9
عيون المترس	21,9	25,5	26,1	30,2	34,5	34,5	31,5	31,4	29,5	31,3	27,1	21,9
كيفة	23,1	24,2	27,4	29,9	34,3	34,7	31,5	29,5	30,7	30,3	27,2	23,3
النعمة	24	27,1	29,8	31,9	35,5	34,9	31,9	29,9	31,1	32,4	30	24,2
القوارب	22,7	24,5	26,4	27,1	29,3	30,5	29,8	29,3	29,6	29,5	29	22,8
كيهيدي	23,4	25,4	28,5	31,4	33,7	33,9	29,6	28,3	28,3	29,3	27,5	23,8

جدول رقم (2) متوسط سرعة الرياح (م/ث)

	1	2	3	4	5	6	7	8	9	10	11	12
بئر ام قرين	2,8	3,6	3,5	3,4	3,5	3,6	3,8	3,6	3,3	3	2,8	3
قديرك	2,9	3,5	3,3	4	3,8	4,2	3,8	3,7	3,5	3,5	3,3	3,1
انواذيبو	4	4,6	5,1	5,5	6	6	5,4	4,5	4,3	4,4	3,8	3,7
أطار	2,5	2,6	2,9	2,9	3	3,2	3,2	2,9	2,7	2,6	2,1	2,5
أكجوجت	3	2,8	3,1	3,1	3,3	3,4	3,4	2,1	2,4	2,6	2	2,8
تجكجة	2,3	3	3,4	3,3	3,3	3,6	3,1	1,8	1,9	1,8	1,7	2,2
انواكشوط	3	3	3,3	3,4	3,6	3,4	3,2	2,9	2,8	2,8	2,5	2,9
بتلميت	3,3	3,2	3,3	3,4	3,5	3,2	2,9	2,7	2,6	2,7	3,2	3,1
عيون المترس	3,4	3,2	3,5	3	3	3,2	3,2	2,8	2,4	2,5	2,7	3,2
كيفة	1,5	1,5	1,5	1,6	1,8	1,8	1,8	1,2	1	1	1,1	1,3
النعمة	4,6	4,3	4,5	3,9	3,5	3,3	3	2,4	2,3	3,2	4,3	4,3
القوارب	2,6	2,7	2,9	3	2,9	2,7	2,6	2,3	2	2,3	3	2,4
كيهيدي	X	X	X	X	X	X	X	X	X	X	X	X

جدول رقم (3) متوسط الرطوبة النسبية (%)

	1	2	3	4	5	6	7	8	9	10	11	12
بئر ام قرين	41	46	45	42	46	35	32	36	38	33	42	45
قديرك	29	29	28	25	22	22	31	34	29	25	29	33
انواذيبو	64	67	66	68	68	60	76	72	76	65	67	64
أطار	32	31	26	23	19	22	39	47	48	27	28	32
أكجوجت	34	34	30	33	30	29	45	46	36	31	33	35
انواكشوط	57	63	62	62	59	68	45	45	54	58	54	60
بتلميت	33	36	40	42	42	40	68	74	65	47	44	45
عيون المترس	25	27	28	26	26	35	57	58	54	33	27	26
كيفة	26	26	27	26	25	41	58	67	63	44	34	32
تجكجة	29	27	22	21	23	33	51	61	56	36	29	27
النعمة	25	21	16	21	21	21	30	48	50	51	32	26
القوارب	35	36	42	43	46	58	70	76	75	54	42	36
كيهيدي	45	42	37	33	37	48	66	77	76	68	57	49

بين سيطرة البيئة الطبيعية وبدائية طرق الإنتاج

محمد بن الشيخ بن عبد القادر
جامعة نواكشوط
قسم الجغرافيا

تعتبر موريتانيا الدولة الثالثة ضمن المنظومة العربية من حيث امتلاك الثروة الحيوانية بعد كل من السودان والصومال وتسيطر على نسبة متميزة من منتجات الأبقار على صعيد البلاد العربية، وليس ذلك أمرا غريبا فقطاع الثروة الحيوانية يحتل ركنا هاما في مكونات الاقتصاد الموريتاني عموما والاقتصاد الريفي والزراعي بشكل أخص ولا تعتبر المنتجات الحيوانية، أساسية لهذا الانتاج بقدر ما هي أساسية لسكان القرى والبوادي النائية التي هي في حاجة ماسة إليها، تنضاف إلى ذلك الخلفية التاريخية لهذه المنتجات عند الموريتانيين، فقد ارتبطت بتقاليدهم في الغذاء وحتى في الاستثمار وربما في أشياء أخرى، خاصة عند سكان البدو الذين كانوا إلى وقت قريب يشكلون اكبر نسبة من سكان هذا البلد، وعند ما هجرت مجموعات منهم البوادي إلى المدن حملت معها تلك العقلية الغذائية إلى المدينة فقلما يخلو منزل من وجود عدد من الرؤوس من أحد الأنواع الحيوانية وقلما تخلو وجبة غذائية من هذه المنتجات خاصة منتجات الأبقار كاللحوم والألبان مما حدا بنا إلى تناول منتجات الأبقار ساعين من وراء ذلك إلى إبراز أهمية هذه المنتجات ضمن الإنتاج الحيواني العام في البلاد من جهة وإلي استكشاف أهم ملامح طرق الإنتاج الحيواني والظروف التي تحكمت فيه في الماضي والحاضر الشيء الذي يدفعنا إلى التساؤل عن الأهمية الاقتصادية والاجتماعية لمنتجات الأبقار وأهم العوامل المتحكمة فيها سواء كانت تلك العوامل طبيعية أم بشرية ولن تمكن الإجابة على تلك التساؤلات دون اللجوء إلي معرفة طرق الحصول علي الأرقام والإحصائيات ودرجة دقة تلك الإحصائيا من جهة وتطور القطيع البقرى من جهة أخرى.

I- تطور القطيع أم تغير في منحنى الإنتاج

يتميز قطيع الأبقار في موريتانيا بحساسية شديدة مما ينعكس على البيانات الإحصائية خاصة منذ سنوات الجفاف ولا يتعلق الأمر هنا بالأرقام المتعلقة بتطور القطيع عبر السنوات فقط وإنما كذلك بالأرقام المتعلقة بالتوزيع وبتطور الإنتاج .

1 - أهم مصادر بيانات الثروة الحيوانية في موريتانيا

جدير بالملاحظة أن مصادر المعلومات المتعلقة بهذا الجانب هي بالدرجة الأولى قطاع الثروة الحيوانية بوزارة التنمية الريفية أو مصادر ترجع إليها في تقديراتها ومن ثم

في موريتانيا بدا من الرجوع إلي هذه المصادر مادام لايوجد غيرها ومن اهم هذه المصادر:

أ- تقديرات الإدارة المكلفة بالثروة الحيوانية والتي تقوم بها أثناء الحملات التلقيحية ضد الأمراض ولا بد من الإشارة هنا إلي أن المشرفين على هذه الحملات ليسوا من ذوي الخبرة في المجال الإحصائي وليس الهدف من الحملات هو إحصائي كما أن عملية التلقيح ضد الأمراض السارية ليست إجبارية علي كل الحيوانات وليست شاملة لكامل التراب الوطني ومن ثم كانت المعلومات المبنية علي هذا الأساس مجرد تقديرات لاترقى إلى درجة الإحصاءات العلمية الموثوق بدقتها، ومع ذلك فهي تكتسي أهمية خاصة في ظل غياب الأرقام الأكثر دقة ولكونها مأخوذة من الميدان، وفي كل الأحوال يلزم التعامل معها بشيء من الحذر عند استخدامها(1).

ب- التقديرات التي يقوم بها البنك المركزي الموريتاني والتي يعتمد فيها على نسبة النمو السنوي للقطيع وهي ذات صلة ما، بالتقديرات السابقة وتخضع للتغيرات الحاصلة في كميات الأمطار السنوية وتوزيع المراعي وهجرة المنمين وهي مؤشرات أساسية عند دراسة هذا الجانب غير أنها لا تصل- كسابقتها- إلى درجة الإحصاء فهي كذلك تقديرات فقط، وتلجأ بعض الدراسات إلي أخذ المتوسط بين هذه التقديرات والتقديرات الآنفة الذكر حتى تكون قريبة من الواقع، وهذان الصنفان من التقديرات أكثر أهمية من الصنف الثالث.

جـ- التقديرات التي تقوم بها جمارك الحدود ونظرا لاتساع مساحة البلاد وعفوية المنمين وتعودهم على اجتياز البلاد جيئة وذهابا شمالا وجنوبا وشرقا كانت هذه التقديرات أقل أهمية مقارنة بسابقتيها.

غير أنه مهما كانت عدم دقة الأرقام التي تعطيها هذه التقديرات فإنها تعكس بشكل ما التطور العام لهذا القطيع.

2- تطور اعداد قطيع الابقار صورة لتطور منتجاته

يخضع هذا التطور لجملة من العوامل الطبيعية والبشرية سوف نتطرق لها لاحقا، ومن حيث تطور قطيع الأبقار في موريتانيا تشير بعض الدراسات الأكثر دقة إلي أن هذا القطيع تطور من 1021 الف رأس سنة 1955 إلي 2430 ألف رأس سنة 1969(2) أي بزيادة قدرها 1409 ألف خلال 14 سنة وتعتبر سنة 1969 السنة التي بلغ فيها قطيع الأبقار أكبر رقم له خلال الفترة 1955-1991 حسب الأرقام المتاحة ومنذ هذه الفترة بدأ في التراجع حتى سجل منحنى الزيادة أخفض نسبة لسنة 1973 خلال الفترة الآنفة الذكر وهو الرقم 1115 ألف رأس أي بنقص 1515 ألف خلال فترة لا تزيد على أربع سنوات (الجدول رقم 1).

غير أن هذه الفترة تميزت بجفاف حاد ضرب المنطقة وكان من نتائجه هلاك قطعان بأكملها من الأبقار وتدمير ثروة أسر كانت تعد من أغنى الأسر الموريتانية، ويمكن تصور أن الجهات الأكثر تضررا هي الجهات الشمالية والغربية من البلاد، وخلال عشر سنوات لاحقة ارتفع هذا العدد ليصل الى 1200 ألف رأس سنة 1983 ثم الى 1400 الف سنة 1991

مناطق من البلاد دون أخرى حيث شكل تواجد الأبقار شبه شريط محاذ لنهر السنغال من جهة والحدود المالية الموريتانية من الجانب الموريتاني. فما هي أهم الولايات المتضررة من ذلك وتلك المستقبلة؟

3- التوزيع المجالي لقطيع الأبقار في موريتانيا

اعتمادا علي الأرقام السابقة أو التقديرات تمكن ملاحظة أن تواجد المراعي ونقاط المياه حيثما كان يعتبر مؤشرا علي تواجد القطيع داخل التراب الموريتاني ومن ثم كانت بعض الولايات أكثر ملاءمة لتواجده من ولايات أخرى، وفي هذا الاطار تمكن الإشارة إلى أن الولايات الجنوبية الشرقية (الحوضين ولعصابة) كانت تحتضن ما نسبته 45٪ من مجمل قطيع الأبقار في موريتانيا سنة 1965 ثم ارتفعت هذه النسبة إلي 74,43٪(3) سنة 1973 (الخريطة رقم1 والجدول رقم2) وهو ما يؤكد ما خلصنا إليه آنفا من أن هذه الفترة كانت فترة هلاك أو هجرة معظم قطيع الابقار داخل البلد أو خارجه حيث أصبحت ولايات الشمال (تيرس زمور، آدرار، إينشيري، داخلت نواذيبو) شبه خالية من الأبقار، ومع التحسن النسبي للمراعي في السنوات الأخيرة تحسن هذا التوزيع في المنطقتين الجنوبية الشرقية والجنوبية الغربية حيث تراجعت نسبة المنطقة الأولى من 74,43٪ سنة 1973 إلي 64,28٪ سنة 1991 وذلك لصالح المنطقة الثانية، وقد شكلت المنطقتان معا مايزيد على 89,28٪ من جملة قطيع الأبقار في هذه السنة(4).

ومعلوم أن منطقة الجنوب الغربي المحاذية للنهر تشهد سرعة في إقامة الهياكل الزراعية والمنشآت المائية التي تساعد على استقرار وجذب قطعان الأبقار إذا توفر الغطاء الصحي الضروري لحماية هذه القطعان من الأمراض المصاحبة عادة لهذا النوع من المشاريع التي من أبرزها سد دياما وما ننتالي وفم القليته إلخ وهي أمور ربما ساهمت في إعادة توزيع الأبقار في هذه المناطق أو حسنت من صورة هذا التوزيع علي الأقل ويؤكد ذلك أن الولايات الأربع الشمالية التي ذكرت من قبل تكاد نسبة الأبقار بها تكون صرفا بينما تشكل نسبة الأبقار المتواجدة في تكانت 3,57٪ من جملة القطيع خلال سنة 1991 كما يؤكد أن منطقة تواجد الأبقار هي الشريط الذي تمثله الولايات الجنوبية، فهل ينطبق الشيء نفسه على استهلاك منتجات الأبقار في موريتانيا أم لا؟

II- أهم منتجات الأبقار الموريتانية

تعطي الأبقار بشكل خاص والحيوانات اللبونة بشكل عام العديد من المنتجات كاللحوم والألبان والجلود والوبر والمستحضرات المستخدمة في الصناعات الكيماوية، ومعظم السكان الموريتانيين يعتمدون اعتمادا كبيرا علي منتجات الحيوانات خاصة اللحوم والألبان وخاصة سكان القرى والبوادي ومن ثم كان لمنتجات الأبقار مكانة بارزة ضمن الإنتاج الحيواني عموما غير أن الإنتاج في هذه المناطق يتم بطرق تقليدية والمشرفين على

أمام التغيرات البيئية التي حدث من سنة إلى أخرى وكذا التغيرات الاقتصادية، غير أن إنتاج الأبقار رغم كل ذلك ظل مهما في حياة السكان الموريتانيين.

وإذا كانت الإحصائيات الدقيقة في هذا المجال غير متوفرة أيضا فإن تطور القطيع يعكس صورة تطور هذا الإنتاج خاصة بالنسبة لكل من إنتاج اللحوم والحليب فما هي مكانة كل من الصنفين ضمن إنتاج الأبقار عموما؟

1- إنتاج اللحوم بين تقليدية النظم وغياب وسائل حفظ الإنتاج

سبقت الإشارة إلي أن المصادر الدقيقة المتعلقة بالإنتاج الحيواني وتوزيع هذا الإنتاج تمتاز بالندرة وعدم الدقة خاصة إذا تعلق الأمر بالتوزيع والاستهلاك من جهة والتطور الزمني المتسلسل، لذلك عند دراسة منتجات اللحوم من الأبقار ينبغي الرجوع إلي اعداد القطيع ونسبة المسحوبات السنوية منه(5) وإلى وزن الذبيحة الكلي، كما ينبغى استخدام الأرقام المتوفرة بشيء من الحذر(6) فبالنسبة لكل من نسبة المسحوبات من قطيع الأبقار ووزن الذبيحة تشير الأرقام المتوفرة إلى أنها 10٪ و150 كلغ لكل منهما علي التوالي إذ قدر مايذبح من جملة القطيع سنويا بنسبة 10٪(7) وهي نسبة عامة وتتغير من سنة إلى أخرى ومن منطقة إلى منطقة حسب تغير الظروف والحاجة إلي مادة اللحوم، وعلى أساس التقديرات يتم تقدير إنتاج اللحوم سنويا من القطيع حسب مختلف الأنواع إضافة إلي تقديرات أعداد كل قطيع على حدة ويستنتج من تلك الدراسات أن إنتاج لحوم الأبقار في موريتانيا تطور من 18165طن سنة 1957 أي حوالي 62٪ من الإنتاج الكلي إلى 36450 طن سنة 1969 وهو مايعادل 48٪ من مجمل الإنتاج أي بزيادة 18285طن خلال فترة لا تزيد على 12 سنة .

وقد شكل هذا الرقم قمة إنتاج لحوم الأبقار خلال الفترة 1950-1991 بينما كانت أدنى كمية سجلت خلال هذه الفترة هي 16715 طن سنة 1973(8) وهي السنة التي كانت فيها الثروة الحيوانية عموما وقطعان الأبقار بشكل خاص تعاني أصعب فتراتها، إذ بداية من سنة 1969 (انظر الجدول رقم1) بدأ الإنتاج في تراجع شديد خلال فترة سنوات الجفاف ثم استعاد نوعا من التحسين خلال السنوات اللاحقة غير أنه لم يصل ذلك الرقم المسجل أعلاه فقد كان سنة 1991 في حدود 21000 طن أي نسبة 30٪ من إنتاج البلاد العام من اللحوم الحمراء إلا أن تراجع الإنتاج لم يؤثر كثيرا على مستوى الأستهلاك الكمي لأنه كان شهد فائضا نظريا وربما كانت نسبة التراجع في الإنتاج أقل من نسبة ذلك الفائض السنوي فمثلا إذا كان إنتاج لحوم الأبقار سنة 1991 هو 21000 طن فأن الأستهلاك منه كان في حدود 11800 طن بفائض قدره 9200 طن.

ويشكل هذا الرقم نسبة 44,08٪ من فائض اللحوم الحمراء في هذه السنة الذي وصل إلى مايقارب 20870 طن من لحوم الأبقار والإبل والمجترات الصغيرة وقد شكلت هذه الكمية 30٪ من انتاج لحوم هذه الأنواع الثلاث علما بأن فائض اللحوم الحمراء يتعرض للضياع(9) وعدم الاستغلال الاقتصادي الحديث وما يقام به في هذا المجال هو تجفيفه من طرف بعض سكان البوادي والقرى، وكانت تجربة محدودة كبيدي في هذا

التقليديين، ومحاولة تغيير عقلياتهم إلى ماهو أحسن قبل أن يصبح بلدنا مستورد اللحوم.

كما تجب العناية ببعض المناطق التي لا تتواجد فيها القطعان كمدن الشمال وإدخالها من جديد في دورة استهلاك لحوم الأبقار الذي كادت أن تتخلى عنه بسبب هجرة وهلاك قطعان الأبقار التي كانت موجودة في الماضي.

ولن يتم ذلك إلا بالتفكير في طرق جديدة لتحسين التوزيع الحالي للقطيع ومنتجاته خاصة منتجات اللحوم إذ أن إنتاج اللحوم لا يتوزع بشكل جيد فالمنطقة الجنوبية الشرقية تحتل الصدارة في هذا المجال (الجدول رقم2) أي 65٪ من الانتاج السنوي من لحوم الأبقار و48,30٪ من الأستهلاك الكلي للحوم الأبقار بينما تظهر ولايات الشمال علي جداول الإنتاج ولاستهلاك بما يقارب الصفر كتيرس زمور وداخلت نواذبو وآدرار وإينشيري في حين يظهر فائض مهم في المدن والقرى الجنوبية الشرقية والجنوبية الغربية بالنسبة للحوم الأبقار فهل ينطبق الشيء نفسه على منتجات الألبان؟

2- إنتاج الحليب

يعتبر الحليب أهم مصدر غذائي منذ القديم ومن أكثر مصادر الغذاء تكاملا وملاءمة للكبار في السن والأطفال الرضع(10) ويتكون حليب الأبقار من 87,08٪ من الماء و12,92٪ من مختلف المواد الصلبة، والحليب هو الأفراز الطبيعي الذي ينشأ عن عملية الحلب أو الرضاعة لحيوان ثدي خال من الأمراض والجراثيم المضرة بصحة الكائنات الحية وصالحة للاستعمال البشري والمحصول عليه قبل أسبوعين أو بعد أسبوع من الولادة(11).

ولما كان الحليب غنيا بالمواد الغذائية وجاهزا للاستعمال بعد الحلب مباشرة كان ضروريا للفئات البشرية والجماعات التي تحتاج غذاءا متكامل العناصر وجاهزا، كالسكان الرحل والمسافرين وغيرهم، وربما كان ذلك من بين العوامل التي جعلت الحليب (اللبن) يحتل مكانة هامة في الحياة الاجتماعية والاقتصادية للموريتانيين قديما وحديثا فاللبن يجب احترامه عندهم بل يكاد يكون شيئا مقدسا فحول الحيوانات ومنتجاتها التي من أهمها الحليب حيكت الأساطير والحكايات التي تبرز مكانة هذا المنتج عندهم.

ومازال الحليب يحتفظ بتلك المكانة بعد عملية التحضر التي شهدتها البلاد تقريبا إذ نلاحظ هنا وهناك وحول القصور قطعان الأبقار التي تنافس السيارات على الطريق وتوفر الحليب لأصحاب العمارات مما يعطي صورة جديدة لحياة بدوية حضرية من نوع خاص ويؤكد أيضا وجود المكانة التي مازال الحليب يحتفظ بها عند الموريتانيين فهو غذاء وعلاج...

ومع ذلك فالدارس لتطور إنتاج الحليب عموما وحليب الأبقار خاصة تعترضه ندرة الأرقام الموثوق بدقتها وعدم تسلسلها إن وجدت، وماهو متوفر لا يعدو كونه تقديرات - كما تقدم- يمكن التعامل معها بتحفظ ومن ثم كان لابد من أخذ نسبة الأبقار الحلوب السنوية من جملة قطيع الأبقار تلك النسبة التي تعتبر في حدود 23,24٪ من جهة وانتاجية البقرة الواحدة التي تقدر ب 0,2طن سنويا(12) من جهة أخرى بعد عملية

1968 إلى112946 طن سنة 1969 على التوالي نسبة 44,4٪ و41,3٪ من جملة إنتاج الحليب في موريتانيا أي زيادة قدرها 15338 طن ليتراجع سنة1970 إلى حدود 89243 طن حوالي 40٪ من مجمل الإنتاج ثم إلى 51825 طن سنة 1973 حيث كان التراجع مابين سنة 1969 و 1973 يقدر بمايزيد على 61120 طن خلال فترة أربع سنوات فقط (الجدول رقم1) وهو أدنى رقم يسجله حليب الأبقار خلال الفترة 1960-1991 ثم كان سنة 1983 في حدود 55776طن وقد تحسن الإنتاج عموما وإنتاج الأبقار على وجه الخصوص خلال السنوات التي تلت ذلك إذ كان سنة 1991 في حدود 65072طن .

غير أن إنتاج الحليب هو الآخر وإن كان يتميز بالتذبذب في تطوره فإنه كذلك يتميز بسوء التوزيع زمانا ومكانا حيث توجد بعض الفترات خلال السنة الواحدة يشكل فيها الإنتاج فائضا كموسم الخريف مثلا في حين يبقى معظم اشهر السنة قليل الإنتاج، كما توجد بعض المناطق التي يشهد فيها الإنتاج فائضا كالمناطق الجنوبية الشرقية والجنوبية الغربية في مواسم الإنتاج بينما تبقى مناطق أخرى في أمس الحاجة إلى ذلك الفائض كالمدن الكبرى وجهات الشمال الموريتاني، وذلك لعجز طرق الإنتاج والحفظ عن أن يصلهم الفائض المذكور وبدل ذلك يتم الإستيراد من الخارج على حساب الإنتاج المحلي، ففي حين تستورد كميات كبيرة من الألبان لاستهلاك المدن ومناطق أخرى يلاحظ أن المناطق الجنوبية الشرقية من البلاد تنتج مايزيد على 64٪ من إنتاج حليب الأبقار(الجدول رقم2) وأن هذا الإنتاج يزيد علي الاستهلاك المحلي وحتى في المناطق القريبة من المدن كمنطقة روصو يوجد فائض بأمكانه توفير العملات الصعبة التي تنفق في استيراد الحليب إن وجدت الطرق والوسائل الضرورية لحفظ وتعليب فائض الألبان عموما وحتى الحد من الكمية المخصصة لرضاعة صغار الحيوانات بطرق علمية تستبدل جزءا من كميات الألبان المخصصة للرضاعة بغذاء مناسب لعمر الرضيع.

وفي هذا الصدد يعتبر مشروع نانسي اعبيد الرحمن عملا يستحق التشجيع(13) لماقام به في هذا المجال كما أنه يمكن أن يكون نواة لعمل أكبر مستقبلا حتى يصل ولايات الداخل غير أن هذا المشروع يستحسن أن لا يقتصر عمله علي تعليب الألبان بل ينبغى أن يشمل طرق تحسين الإنتاج وتكثيفه.

وفي هذا المجال يجب التأكيد على أن إقامة هذا النوع من المشاريع لا تكلف إقامته مبالغ تزيد على المبالغ المصروفة على استيراد الحليب كما أن عائداته المادية قد تصبح كبيرة خاصة إذا ما أرفقت هذه المشاريع بمشاريع ثانوية لتحسين أو تصنيع المنتجات الحيوانية الأخرى كالجلود والوبر وغيرهما من المنتجات الحيوانية ذات الربح شبه المضمون.

3- المنتجات الأخرى

المنتجات الحيوانية غير اللحوم والألبان كثيرة ومتعددة الفوائد ولا تقتصر على الجلود والوبر بل تتجاوز ذلك لتشمل مخلفات كثيرة أخرى كالسماد والمواد الأولية الأخرى

فلو علمنا أن نسبة نصافي الذبيحة(15) من الابقار يتراوح مابين 52 إلى 56٪ من وزنها وأن مخلفات مأكولة أخرى تشكل 10٪ لعلمنا أنما يزيد على 20٪ من وزن الذبيحة يمكن استخدامه في صناعات كثيرة فهناك مايقارب 35 نوعا من المستحضرات الطبية تتم تنقيتها من أعضاء الذبيحة(16).

لذلك فالمخلفات الحيوانية عموما والبقرية خصوصا تعتبر مصدرا رئيسيا للعديد من الصناعات المختلفة ومصدرا للمال إذا ماتم استخدامها بطرق علمية واقتصادية الشيء الذي ينعدم في بلادنا ومايمكن الحديث عنه في هذا المجال هو عناية خجولة بجلود الأبقار التي تستخدم في الأغراض المنزلية كصنع الحبال وأغراض أخرى وما بقي يتم رميه، وقد قدرت كمية هذه الجلود سنة 1980 بمايزيد على 2610 طن من جلود الأبقار وهو مايمثل 52٪ من إنتاج الجلود العام(17).

وإذا ماحاولنا تحويل هذه الكمية من الجلود إلى مبالغ نقدية نجد أنها تقدر بمايقارب 106 مليون أوقية سنويا يتم رميها دون أن يستفاد منها بل إن بعض الدراسات تقدر ماتوفره الجلود سنويا إذا ما استغلت استغلالا حديثا بمايزيد على ثلاثة ملايين من الدولارات عند تحويلها إلى عملة صعبة بالاسعار الجارية في السنة الآنفة الذكر وإذا ما أضيفت إليها مخلفات الامعاء فقط يرتفع المبلغ إلى 3,5 مليون دولار(18). علاوة على مايوفره نشاط كهذا من فرص للعمل ومادة صناعية للتصدير غير أنه من المؤكد أن هذه المبالغ التي كان من الممكن توفيرها من المخلفات الحيوانية وغيرها كثير مازال غير مستفاد منه كما أنه من المؤكد أيضا أن قطيع الأبقار يوفر نسبة هامة من تلك المخلفات التي يمكن تحويلها إلي مواد صناعية أو مبالغ نقدية وهنا نرى من الضروري المطالبة بالتفكير في استغلال هذه المخلفات وإقامة المشاريع الضرورية لذلك مادامت توفر دخلا وفرصا للعمل ومادة أولية للصناعة كما أن البيئة الطبيعية والبشرية غير منافية لذلك بل إن ضرورات الحياة المعاصرة تفرض القيام بذلك بل والاستفادة من تلك المنتجات كل ما أمكن ذلك.

III- العوامل الفاعلة في إنتاج قطيع الأبقار

يوجد العديد من العوامل التي تؤثر تأثيرا مباشر وغير مباشر في منتجات الأبقار وقد يكون هذا التأثير سلبيا أو إيجابيا كالعوامل البيئية ودور الإنسان في تحديث نظم الإنتاج وأساليبه والطرق المتبعة فيه وإقامة مشاريع التحسين والانتخاب وتصنيع المنتجات وتخزينها والمعالجة والصيانة بل وإدخال أساليب الرعاية الحديثة التي يكون هدفها تكثيف الإنتاج والتخلي عن الطرق والأساليب التقليدية التي قد تحد من التأثير السلبي على هذه المنتجات إلا أننا سنركز في هذا المقال على ثلاثة عوامل بارزة هي:

1- الأعلاف بين الرعي الجائر وتزايد التصحر

من البديهي أن توفر المراعي ونقاط المياه وانخفاض درجات الحرارة عوامل مساعدة على تحسين انتاج الأبقار وتواجدها اذا ماكانت طرق الإنتاج تسمح بذلك غير أن

لتواجد الأبقار في السنوات التي تلت 1973 تلك السنوات التي دفعت بالمنمين وكثير من الرحل إما إلى الهجرة بعيدا أو النزوح نحو المدن الأمر الذي زاد الريف والبوادي ضعفا وتعقيدا أقتصاديين عن ذي قبل(19). مما جعل مساحات شاسعة من البلاد تتحول إلى مناطق جرداء في حين حافظت أشرطة ضيقة أخرى على توفير الأعلاف لقطعانها والقطعان النازحة إليها ويتجلى ذلك بوضوح إذا علمنا أن إقليم الساحل الافريقي ينتج مايزيد على 82٪ من اعلاف المراعي الطبيعية وإقليم حوض النهر ينتج هو الآخر 13٪ أي أن الاقليمين معا ينتجان قرابة 95٪ من إنتاج المراعي الطبيعية في موريتانيا(20). غير أن الحرائق والرعي الجائر وعوامل أخرى شبيهة كالاحتطاب أضرت وتضر بهذه المراعي المتبقية وأدت في بعض المناطق إلى تراجع بعض إنتاجيتها مما يهدد قطعان الأبقار بشكل خاص ومستقبل الثروة الحيوانية عموما التي يبدو أن العجز في إطعامها تتسع هوته سنة بعد أخرى فالبلاد تمتلك مايربو على 3,205 مليون وحدة حيوانية مداريةU.B.T(21) منها 0,98 مليون وحدة حيوانية من الأبقار والوحدة الحيوانية حسب بعض المصادر تحتاج لإطعامها قرابة 3,4طن من الأعلاف سنويا(22) وهو مايعادل 1700 وحدة علفية U.F(23). أي أن الحاجة السنوية من الأعلاف ذات علاقة كبيرة بتطور القطيع من جهة ونوعية المراعي من جهة أخرى حسب السنوات إذ كانت سنة 1990 في حدود 10,897 مليون طن من الأعلاف توفر المراعي الطبيعية والمخلفات الزراعية منها 8,249 مليون طن من الأعلاف أي أن نسبة الاكتفاء الذاتي في حدود 75,69٪. ومابقي من الأعلاف يتم استيراده من الخارج وبالعملات الصعبة حيث تكون نسبة الأعلاف المستوردة قرابة 24,3٪ علما أن ذلك يختلف من سنة إلى أخرى بسبب الظروف البيئية وتزايد القطيع، وبديهي أن نقص الغذاء لا يتسبب في ضعف الإنتاجية الحيوانية وإنما قد يتسبب في هلاكها أيضا أو في الكثير من الأمراض.

2- الأمراض الحيوانية (24)

لانعالج في هذا العنصر الأمراض الحيوانية عموما والبقرية خصوصا من حيث تنوعها وانتشارها والاسباب التي تؤديها وإنما نقصد الأثر السلبي الذي تتركه تلك الأمراض على المنتجات الحيوانية ومدى السيطرة عليها والحد من أثرها غير أنه من المؤكد أن الرعاية الصحية بالنسبة للأبقار الموريتانية ضعيفة إن لم تكن معدومة مما يعمق الأثر السلبي الذي تتركه الأمراض البقرية على المنتجات. هذا الأثر الذي يسبب خسارة اقتصادية للمنمين من جهة وللاقتصاد الوطني من جهة أخرى إضافة إلي الآثار الاجتماعية التي قد يتركها من سنة الى أخرى على المجتمع الريفي وفي هذا الصدد تشير منظمة الأغذية العالمية (F.A.O) أن الخسارة التي تنتج عن أمراض الثروة الحيوانية في دول العالم الثالث والتي تنتمي إليها موريتانيا تتراوح مابين 30إلى 40٪ من المنتجات الحيوانية المختلفة سنويا(25).

وإذا علمنا أن الثروة الحيوانية لاتلقى الرعاية الصحية الضرورية في ظل أزمة

بتلك الأزمة، والمنتجات الحيوانية ليست ضرورية لغذاء سكان البدو والحضر على حد سواء بقدر ماهي ضرورية للاقتصاد الوطني في ظل أزمة عالمية تعمقها التغيرات البيئية(26) التي تتعرض لها منطقة الساحل الإفريقي من حين لآخر.

لذا كانت العناية بالأمراض الحيوانية والتغطية الصحية لهذا القطاع ضروريتين للاستفادة أكثر من هذه الثروة، ويزداد الأمر أهمية إذا ما أضيف إليه دور كل من العادات والتقاليد الانتاجية.

3- دور العادات والتقاليد في كل من الإنتاج والاستهلاك

تلعب العادات والتقاليد دورا مميزا في عملية الإنتاج الحيواني ببلادنا على وجه الخصوص كما أن طرق الاستهلاك والرعاية الصحية وتوفير الأعلاف وماللعادات في ذلك من دور ... كلها أمور تساعد على جمود أو حركية طرق الإنتاج الأمر الذي يساهم في الحياة الاقتصادية المعاصرة ويدفع الإنتاج الحيواني نحو تطور إيجابي أو سلبي غير أن الملاحظ من دور هذه العادات والتقاليد في القطاع الريفي عندنا لا يتعلق بتطور إيجابي ويبدو ذلك واضحا من خلال المثالين التاليين:

أ- الإنتاج: يمارس المنمون حاليا في إنتاجهم الحيواني نفس الطرق تقريبا التي كانت تمارس فيه منذ عشرات السنوات ويظهر ذلك جليا من خلال تتبع كيفية الإنتاج والطرق التي يتم بها والتي تظهر أن هذا الإنتاج يتم بطرق تساهم في جموده أكثر من حركيته(27) وبديهي أن ذلك غير مقبول اقتصاديا، فالحيوانات أصبحت مصدرا للثراء الاقتصادي لذلك كانت العناية بها ضرورية فقد اصبحت ترعى وتربى بطرق تهدف إلى الرفع من منتجاتها إنتاجا اقتصاديا أكثر منه إنتاجا اكتفائيا ويمارس في ذلك العلم الحديث كالطب البيطري وعلم التغذية والوراثة... وهي أمور تغيب عن طرق الإنتاج عند منمينا تماما بل يعتمدون في إنتاجهم الحيواني علي ما تجود به البيئة الطبيعية غير المستقرة مما يترك أثرا سلبيا واضحا علي هذا الإنتاج خاصة إذا كانت طرق الاستهلاك تسير في نفس الاتجاه.

ب- الاستهلاك: يتم استهلاك المنتجات الحيوانية في كل من القرى والأرياف والمدن بطرق تقليدية تميل إلى الاستهلاكية أكثر منها إلى النمو الأقتصادي فالحليب مثلا يستهلك بإسراف في موسم الإنتاج ولا توجد حتى الآن طرق للاستفادة من الفائض في المواسم الأخرى تلك المواسم التي يزداد فيها الطلب على الحليب ومنتجاته وتتم تلبية هذا الطلب بالاستيراد من الخارج، كما أن الإفراط في استهلاك اللحوم أمر شائع هو الآخر، وما يوجد حتى الآن من طرق للاحتفاظ بفائض اللحوم الكبير لا يعدو كونه عادات قديمة جدا لا تواكب العصر ولا تمكن من الاستخدام الامثل لهذا المنتج البالغ الأهمية الاقتصادية، ولا يتعلق الأمر هنا بمنتجات الأبقار فقط بقدر ما يتعلق بالمنتجات الحيوانية الأخرى.

من ذلك يتضح أن دور التقاليد والعادات الإنتاجية والاستهلاكية سلبي في هذا المجال ولا يتعلق الأمر فقط بمنتجات الحليب واللحوم بقدر ما يتعلق أيضا بمنتجات أخرى قد

الإجتماعية والاستهلاكية فقط وإنما أيضا من النواحي الاقتصادية البحتة، غير ان هذه المنتجات محكومة حتى الآن بطرق الإنتاج التقليدية من جهة والظروف الطبيعية القاسية من جهة أخرى فهل ستعى الجهات المعنية الأهمية الاقتصادية البالغة لهذه المنتجات من الأبقار وتحويلها إلى أداة للتنمية أم أن ذلك مازال غير ممكن ؟.

الجدول رقم 1 تطور انتاج حليب ولحوم الابقار 64-1979.

السنة	القطيع 1000رأس	انتاج الحليب	انتاج اللحوم		
		الانتاج(طن)	٪من الإنتاج الوطني	الانتاج(طن)	٪من الانتاج الوطني
1964	2000	92960	50,13	30000	55,60
1968	2100	97608	41,33	31500	45,23
1969	2430	112946	44,42	36450	48,38
1970	1920	89242	39,91	28800	43,78
1971	1550	72044	35,64	23250	39,37
1972	1500	69720	34,95	22500	38,64
1973	1115	51825	29,95	16725	33,39
1974	1150	53452	29,81	17250	33,42
1975	1300	60424	30,68	11500	34,15
1976	1400	65072	31,23	21000	34,73
1977	1550	72044	33,46	23250	37,07
1978	1700	79016	34,50	25500	38,15
1979	1900	88312	35,60	28500	39,29

المصدر: الهامش رقم 6 (ترجمة) ص 31

الولاية	المساحة	عدد القطيع	انتاج الحليب طن	إنتاج اللحوم طن
الحوض الشرقي	166000	380000	17662,4	5700
الحوض الغربي	57000	270000	12549.6	4050
العصابه	36000	250000	11620	3750
كوركول	14000	145000	6739,6	2175
البراكنه	37000	120000	5577.6	1800
غيديماغه	10000	100000	4648	1500
الترارزه/ نواكشوط	68000	85000	3950.8	1275
تكانت	93000	50000	2324	750
آدرار	215000	0	0	0
تيرس زمور	255000	0	0	0
إينشيري	49000	0	0	0
داخلت نواذيبو	30000	0	0	0
المجموع:	1030700	1400000	67072	21000

المصدر: مرجع الهامش رقم2 (بتصرف) ص: 5,7.

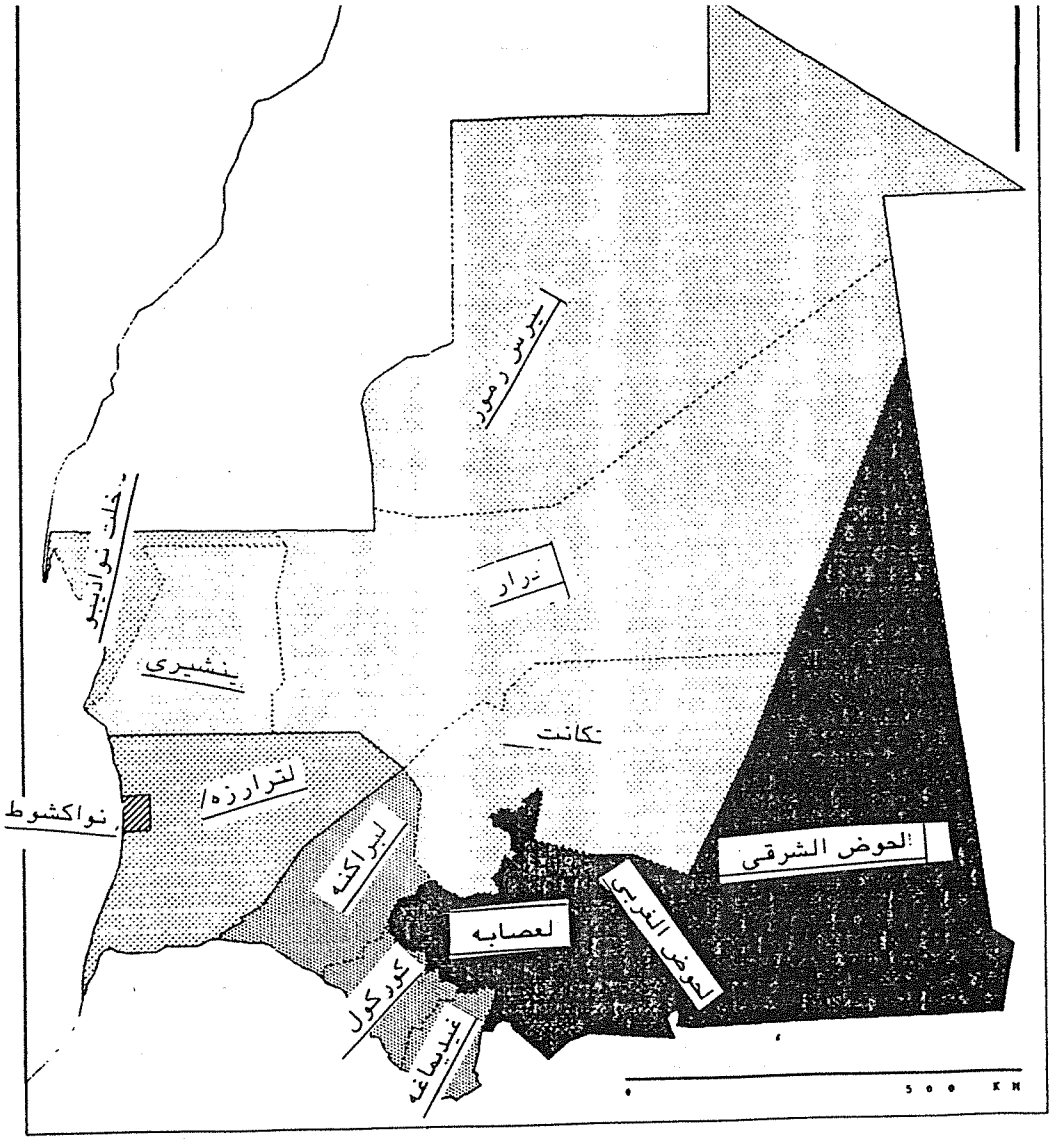

انواكشوط

من 200- 400 ألف/ رأس

من 100- [illegible] ألف/ رأس

من 50- [illegible] ألف/ رأس

من 0 - [illegible] ألف/ رأس

1) المنظمة العربية للتنمية الزراعية: دراسة الجدوى الفنية والاقتصادية التفصيلية لمشروع تصنيع الاعلاف وإنتاج وتصنيع الالبان في موريتانيا، المجلد الثاني، الخرطوم 1986، ص:63.

2) MINISTRE DU DEVELOPPEMENT RURAL: Le Betail et la Viande en Mauritanie (ronéo type) Nouakchott 1992 P. 4

3) Institut d'élévage et de médecine vétérinaire des pays tropicaux (IEMVT): Elevage et ptentialitès pastorales sahéliennes: Synthéses cartographiques - Mauritanie. P. 3

4) المنظمة العربية للتنمية الزراعية: دراسة الجدوى الفنية والاقتصادية التفصيلية لمشروع تصنيع الاعلاف وإنتاج وتصنيع الالبان في موريتانيا، المجلد الثاني، الخرطوم 1986، ص:5.

5) المقصود بنسبة المسحوبات هو نسبة العدد المذبوح سنويا في المجازر وخارجها إلى القطيع العام في تلك السنة وهذه النسبة بالنسبة للابقار في حدود 10٪.

6) المركز العربي لدراسة المناطق الجافة والأراضي القاحلة (أكساد): دراسة حصر وتقييم مصادر الاعلاف في موريتانيا/ دمشق 1982، ص:41.

7) MINISTRE DU DEVELOPPEMENT RURAL: Le Betail et la Viande en Mauritanie (ronéo) Nouakchott 1992 P. 7

8) لمزيد من التفصيل يمكن الرجوع الي موسوعة الثروة الحيوانية في موريتانا الصادرة عن المركز العربي لدراسة المناطق الجافة والأراضي القاحلة، دمشق1984 ص. 162 و174

9) MINISTRE DU DEVELOPPEMENT RURAL: Le Betail et la Viande en Mauritanie (ronéo) Nouakchott 1992 P. 8

10) عبد الحميد محمد عبد الحميد: حيوانات المزرعة، دار النشر للجامعات المصرية- مكتبة الوفاء، ط1/ 1991، ص:303.

11) علي زياد كيالي وعادل محيو: أساسيات تصنيع الحليب ومنتجاته، مديرية الكتب والمطبوعات بجامعة حلب 1981، ص:9.

12) المركز العربي لدراسة المناطق الجافة والأراضي القاحلة: موسوعة الثروة الحيوانية في موريتانيا، 1984، ص: 174.

13) ظهر هذا المشروع في السنوات الأخيرة ويقوم ببسترة وتعقيم حليب الإبل (تيفسكي) وحليب الأبقار (البادية) وله أهتمام بمنتجات أخرى كالجبن وغيره.

14) عبد الحميد محمد عبد الحميد: (مصدر سبق ذكره)، ص:393.

15) نسبة التصافي العامة تساوي: $\frac{\text{وزن الذبيحة بعد الذبح}}{\text{وزن الذبيحة قبل الذبح}} \times 100$

وعند تقدير إنتاج اللوحم العام تؤخذ نسبة التصافي الحقيقية التي= $\frac{\text{وزن الذبيحة بعد الذبح}}{\text{وزن الذبيحة قبل الذبح - الأحشاء والجلد والرأس}} \times 100$

وهذه المعادلة الأخيرة هي المستخدمة عندنا، وللتوسع أكثر يمكن الرجوع إلى:

زهير فخري الجليلي وجلال أيليا: إنتاج الاغنام والماعز، مطبعة جامعة الموصل، العراق (الطبعة غير مذكورة) 1984، 214.

17) موسوعة الثروة الحيوانية في موريتانيا (مصدر سبق ذكره) ص:٥٠٢.

18) المنظمة العربية للتنمية الزراعية: دراسة الجدوى الفنية والاقتصادية لإقامة مزارع رعوية لإنتاج الألبان ولحوم الإبل في موريتانيا/ الخرطوم 1984،ص:26

19) موسوعة الثروة الحيوانية في موريتانيا (سبق ذكرها)، ص:131.

20) المنظمة العربية للتنمية الزراعية: دراسة الجدوى الفنية والاقتصادية لإقامة وحدات صغيرة لتصنيع الأعلاف في مناطق الإنتاج الحيواني بالجمهورية الإسلامية الموريتانية/ الخرطوم 1984، ص:82.

21) الوحدة الحيوانية مصطلح يستخدم لتوحيد فئات أعمار القطيع المختلفة عند الحاجة من خلال المتوسط بينها ويعبر عنه عادة ببقرة تزن 450كلغ، وعلى أساس ذلك تمثل:

البقرة 0,70 وحدة حيوانية مدارية

رأس الإبل 1 وحدة حيوانية مدارية

رأس الأغنام والماعز 0,15 وحدة حيوانية مدارية

الفصيلة الخيلية 0,55 وحدة حيوانية مدارية.

ولمزيد من الإضاح يمكن الرجوع إلى دراسة الجدوى الفنية والإقتصادية لإقامة وحدات صغيرة لتصنيع الأعلاف في مناطق الإنتاج الحيواني بالجمهورية الإسلامية الموريتانية/ الخرطوم 1984، ص:17.

22) نفس المرجع السابق، ص: 53.

23) تقاس الوحدة العلفية بكمية الطاقة التي يعطيها كلو اغرام واحد من الشعير، ولمزيد من التوسع يمكن الرجوع إلى : المعجم العربي الزرعي الجزء الثاني الصادر عن المنظمة العربية للتنمية الزراعية 1981، ص:258.

ويعادل الوحدة العلفية ما يساوي 2كلغ من المادة العلفية الجافة: موسوعة الثروة الحيوانية الآنفة الذكر، ص: 140.

ولمن يريد التوسع أكثر عن المادة الجافة وقياساتها ومحتوياتها تمكنه مراجعة: علي عبد الكريم العطار وفاروق حبيب غريب: أساسيات تغذية الحيوان، مطبوعات كلية الزراعة بجامعة الموصل 1990، ص:239.

24) للتوسع في هذا الموضوع يمكن الرجوع إلى موسوعة الثروة الحيوانية في موريتانيا (مصدر سبق ذكره)، ص: 154-150

25) المنظمة العربية للتنمية الزراعية: دراسة حماية الصحة الحيوانية وتحسين الخدمات البيطرية بالجمهورية الإسلامية الموريتانية/ الخرطوم 1982،ص:106

26) المنظمة العربية للتنمية الزراعية: خطط تنفيذية لتحسين سلالات الأبقار والأغنام والماعز المحلية، الخرطوم مارس 1989، ص:20.

27) المنظمة العربية للتنمية الزراعية: دراسة إنتاج وتسويق اللحوم الحمراء في الوطن العربي - الخرطوم ديسمبر 1991، ص:96.

التصحر في الوطن العربي
أسبابه مظاهره وطرق علاجة *

إعداد: محمد الأمين الحسن
أستاذ: بجامعة انواكشوط
قسم الجغرافيا

طرحت ظاهرة التصحر نفسها كمشكل متزايد التأثير وأخذ الإهتمام بها يتسع منذ الخمسينيات من هذا القرن عند ما شمل مجالها نطاقات جغرافية عديدة ومنعت تأثيراتها شعوبا مختلفة من الحصول على أدنى حد من أمنها ا لغذائي فانعقدت من أجل دراستها الندوات والمؤتمرات ووضع في سبيل مواجهتها الخطط والبرامج، وتأسست في نفس السياق الجمعيات الوطنية والمنظمات الإقليمية وشبه الإقليمية... وأصدرت الجمعية العامة لمنظمة الأمم المتحدة في دورتها التاسعة والعشرون سنة 1974م قرارها رقم: 3337 لعقد مؤتمر عالمي خاص لمناقشة التصحر، ثم أعادت في دورتها الثلاثين التأكيد على ضرورة مواجهة التصحر فأصدرت قرارها رقم: 3511 الداعي إلى إجراء مزيدا من البحوث والدراسات في مجالات إقليمية محددة وأسندت إلى وكالاتها المتخصصة مهمة تنفيذ ذلك.

وفي نفس الإطار أنجزت اليونسكو بالتعاون مع المنظمة العالمية للأرصاد الجوية ومنظمة الأغذية العالمية خريطة للمناطق المهددة بمخاطر التصحر في شمال إفريقيا وفي أمريكا الجنوبية.

كل ذلك سعيا إلي إعادة التوازن الإيكولوجي للبيئة، الذي هو أساس مواجهة ظاهرة التصحر، وحين تهتم منظمة الإيسيسكو بهذا المشكل فإنما تؤكد على أن مشكل التصحر لم يعد مجالا هامشيا يمكن التغافل عنه، بل يؤكد أن الإشكاليات التي يطرق داخلة بشكل متجذر ومتسع صلب الإهتمامات المختلفة المتعلقة بالإنسان من حيث هو أداة التنمية وغايتها في ذات الوقت، ومن حيث هو كذلك الأداة الأولى في اتساع التصحر والأداة الأولى لمواجهته أيضا.

وتمثل دراسة التصحر في الوطن العربي حلقة أساسية في دراسة ظاهرة التصحر العالمية، فالوطن العربي شهد الظاهرة منذ بدايتها الأولى وشكل قاعدة ارتكاز ولايزال إلى اليوم... وهو لذلك الأجدر بأن يكون مجال الدراسة بنفس المقدار الذي أجدر فيه بأن يكون راعيها وموجهها والمستفيد الأول منها.

---

*) قدم هذا البحث أثناء الحلقة الدراسية الخاصة بإبراز ملامح جغرافية العالم الإسلامي ضمن المناهج التربوية

1992/12/20-24

شمولية تجتاح معظم الارض العربية لا تكاد تعيننا على مانحن بصدد البحث فيه، فالدراسات على قلتها متعلقة بأقاليم مختصة وإن تجاوزتها فإنما تتسم بالتعميم و الإطلاق دون معايشة ولامعالجة المعطيات اللازمة لذلك. من هنا تكون مهمتنا بالغة الصعوبة بدرجة نكاد معها نقر بأن موضوعنا هذا لايمثل في حقيقة الأمر سوى بداية تتعين متابعتها وتعميقها، تتبع مؤثراتها بما هوضرورى على مواجهة ظاهرة التحصر بالوطن العربى التى أصبحت بشكل جدى وحقيقى معضلة لامفر من التصدى لها بنظرة شمولية ولكنها معمقة وبرؤية استراتيجية واجرائية في ذات الوقت.

سنتناول ظاهرة التصحر في الوطن العربى من خلال:

مفهومه، أسبابه، توزيعه المجالي، مظاهره، طرق علاجة، لنتهى بنقد نأمل أنْ يفيد في إطار المشاريع المقبلة أو تلك في طور الإنجاز.

أولا: مفهوم التصحر:

سنتناول هذا المفهوم من خلال أربعة تعريفات تناولته من جوانبه المختلفة

- التصحر، تراجع إنتاجية البيئة بالاقاليم الجافة وشبه الجافة بسبب عوامل طبيعية وبشرية (فاروق الباز 1986م، ص: 81).

- التصحر، دفع استخدام الأرض الزراعية والرعوية والغابوية وتقهقرها خلف حدودها الآمنة من خطر الجفاف (عبد المقصود اغنيمي 80م، ص:7).

- التصحر، تطور الأراضي الزراعية والمراعي الطبيعية في المناطق شبه الجافة إلي صحراء قاحلة نتيجة جفاف مستمر لسنوات متتالية أو بسبب الإستغلال غير الأمثل لموارد البيئة (فليح حسن هادي الطائي 1984م، ص:9).

- التصحر، يعني التدهور في إنتاجية البيئة وجعلها تنزح نحو بيئة صحراوية تظهر من خلال تراجع العينات الترابية وظهور الأملاح بالتربة (فليح حسن، ص:9).

يتضح ما سبق أنها تجمع أربعتها على أن التصحر يعني تدنيا في إنتاجية البيئة وعلى أن أسباب ذلك مشتركة بين الإنسان والطبيعة وأن مجاله مقصور على أقاليم مناخية محددة.

والواقع أن الجانب الأول من التعريف لا اعتراض لنا علي تعميمه عكس ماعليه الحال بالنسبة للجانب الثالث المتعلق بالتصحر في مجال إقليمي محدد، إذ أن التصحر ليس خاصية قارية فقط، بل إن البحار والمحيطات يصيبها التصحر أيضا حين تتعرض لتدني إنتاجيتها من الكائنات الحية البحرية، وكذلك الأمر بالنسبة للمناطق القطبية. من هنا نعود لنقرر أن التصحر في تعريفنا هو تدني إنتاجية البيئة أما مجاله وأسبابه ومظاهره، فتلك متغيرات لا تدخل في أساس تعريفه، رغم أنها تعتمد كأساس عند تصنيفه، فالتصحر كظاهرة دينامية يصنف حسب عوامل نشأته ومظاهره وأحيانا بحسب خطورته، ونعرض فيما يلي لأهم تلك التصنيفات: (عبد مخور نجم الريحاني86م، ص:13).

1- التصحر بحسب أسبابه:

يمكن أن نميز بين عوامل ثلاثة قد تؤدي مجتمعه أو منفردة إلي التصحر هي: الجفاف، الإنسان، الإنسان والجفاف معا.

1.1- التصحر بسبب الجفاف: الجفاف هو نقص الرطوبة (أرضية كانت أو جوية) بسبب عاملي ارتفاع أو انخفاض درجات الحرارة. ويؤدي الجفاف إلى التصحر عن طريق نقص في الرطوبة الذي يسببه. وفي هذا المجال يرتبط الجفاف بعناصر عديدة أهمها: ندرة التساقطات، ارتفاع درجات الحرارة ونسبة التبخر، ملوحة التربة، فانفتاح الغطاء النباتي واحتمال زيادة سرعة الرياح. فالتذرية الريحية وتشكيل الكثبان الرملة، كل ذلك يدل على تراجع وتدهور إنتاجية البيئة.

2.1- التصحر بسبب الإنسان: يبدو أثر الإنسان في خلق وتنمية الظروف الملائمة لنشأة التصحر وتطوره من خلال استخداماته المختلفة لموارد البيئة الطبيعية، فعندما يشيد المدن والقرى ويقيم المشاريع الصناعية.

يستغل مساحات بعد أن يجردها من غطائها النباتي الذي كان يحافظ علي توازنها البيئي، فتهيئة المجال تعني في جوانب معينة تعريض التربة لعوامل التعرية حتى ولو كان الأمر يتعلق بالزراعة. كما يؤدي استخدام الري إلى تملح التربة في حال عدم استخدام تقنيات تصريف المياه الزائدة عن حاجة المزروعات. ويمثل الرعي الجائر الذي تقوم به الجماعات البدوية سببا في الضغط على البيئة الهشة، ذلك لأن كل وحدة مساحية لها قدرة تحمل غالباما لاتراعي. كذلك قطع الأشجار لاستخدامها وقودا أو علفا يساهم من خلاله الإنسان في تصحر كثير من الأقاليم.

يبدو مما تقدم أن عمل الإنسان-مثله مثل الجفاف- سبب من أسباب التصحر وإن كان ذلك يختلف من إقليم لآخر تبعا لاختلاف نمط استغلال المجال وثقافة السكان المحليين.

3.1- التصحر المركب: وهو التصحر الذي ارتبط في نشأته بالعوامل الطبيعية والبشرية. حين تتفاعل فيما بينها لتجعل إقليما معينا كان خارج حدود الصحراء ينزح نحو سيادة الظروف الصحراوية. وحسب الدراسات الأركيولوجية، فإن الأقالم الحالية الصحراوية كانت مجال استغلال من لدن الإنسان (MONOD ET TOUPET 1961 P: 17) فشيد بها حضارات مزدهرة تركزت على الزراعة، وأنها بسبب ذلك وطول فترة الإستغلال وطبيعته وبمرور الزمن نزحت تربتها نحو التدهور وتراجعت إنتاجيتها بما يعني تصحرها.

ولقد أكد مؤتمر نيروبي الذي عقدته الأمم المتحدة في سنة 1977م حول التصحر التداخل بين عاملي الجفاف وفعل الإنسان وكذلك أكدت الدراسات التي قيم بها في إطار برنامج الأمم المتحدة حول دول الساحل الإفريقي حين خلصت إلى أن التصحر بهذه الدول وليد التفاعل بين المناخ واستغلال الانسان غير المعقلن لموارد بيئته الطبيعية.

2- التصحر بحسب مظاهره:

يمكن رصد التصحر من خلال جملة من المظاهر نذكر من أهمها (الزراعة والمياه 1986، ص:14).

الباطنية.

- تناقص العينات النباتية وتراجع الغطاء النباتي ونمو النباتات غير المرغوب فيها في المراعي الطبيعية على حساب النباتات المرغوب فيها.
- تعرية التربة من خلال تذريتهاو/ أو انجرافها وتراجع انتاجيتها بسبب تملحها.
- تشكيل الكثبان الرملية وتطور الدينامية الريحية.

3- التصحر بحسب درجته (فليح حسن هادي الطائي 1984م، ص:23).

غالبا ما يصنف التصحر حسب درجاته إلي اربعة هي:

3.1- التصحر الشديد جدا: وهو الذي يحدث حين تكون البيئة خالية من الغطاء النباتي وترتفع ملوحة التربة إلى درجة فقدان إنتاجيتها وزوال المسكات الترابية وظهور الصخر المحلي.

2.3- التصحر الشديد: ويحصل حين تتملح التربة وتتناقص إنتاجيتها بنسبة تزيد على 50٪ وتتراجع العينات النباتية.

3.3- التصحر المعتدل: ويحدث حين تتعرض التربة لتدهور متوسط وتتشكل ربى صغيرة وتتطور منخفضات ماء - ريحية.

4.3- التصحر الطفيف: يحدث حين تتعرض التربة والغطاء النباتي إلى تدهور خفيف لايؤثر على إنتاجية البيئة وتظهر مختلف هذه الدرجات بالوطن العربي، حيث نجد أشد المناطق تصحرا في كل من تونس والسودان والعراق والمغرب وليبيا والصومال واليمن وموريتانيا. كما يظهر التصحر الشديد بكامل النطاق العربي الإفريقي وبعض المجال الآسيوي العربي (العراق، سوريا، فلسطين، لبنان، الأردن، اليمن، السعودية والكويت). أما التصحر المعتدل فيظهر في شبه الجزيرة العربية والسودان، مصر، فلسطين، لبنان، سوريا والعراق). أما في الصحراء العربية الإفريقية الممتدة من البحر الأحمر شرقا إلى موريتانيا غربا، فلا تظهر سوى مرتبة التصحر الخفيف (عبد القادر منصور حمدي، 1989 م، ص:128). لكن ماهو مجال التصحر في الوطن العربي؟ كيف نشأ؟ وماهي العوامل التي أدت إلي تطوره؟ وكيف واجهت الأقطار العربية ظاهرة التصحر؟.

محاولة الإجابة علي هذه الأسئلة هي مدار هذا العرض.

ثانيا: التصحر في الوطن العربي:

يقع الوطن العربي (باستثناء الصومال وجزء من السودان) بين دائرتي عرض 13 و 37 شمالا وخطي طول 13 غربا و52 شرقا، تبلغ مساحته الإجمالية حوالي 14مليون كلم2، تقع 90٪ منها ضمن نطاق المناخ الجاف وشبه الجاف وتصل نسبة الأراضي الصالحة للزراعة 14,1٪ يستغل منها 3,6٪ وتسود الزراعة البعلية في الأقاليم الزراعية حيث تمثل مجال استغلال نسبة 80٪ من الأراضي المستغلة في حين يستخدم الري للنسبة المتبقية 20٪ (الكتاب الإحصائي 1981م، ص:63).

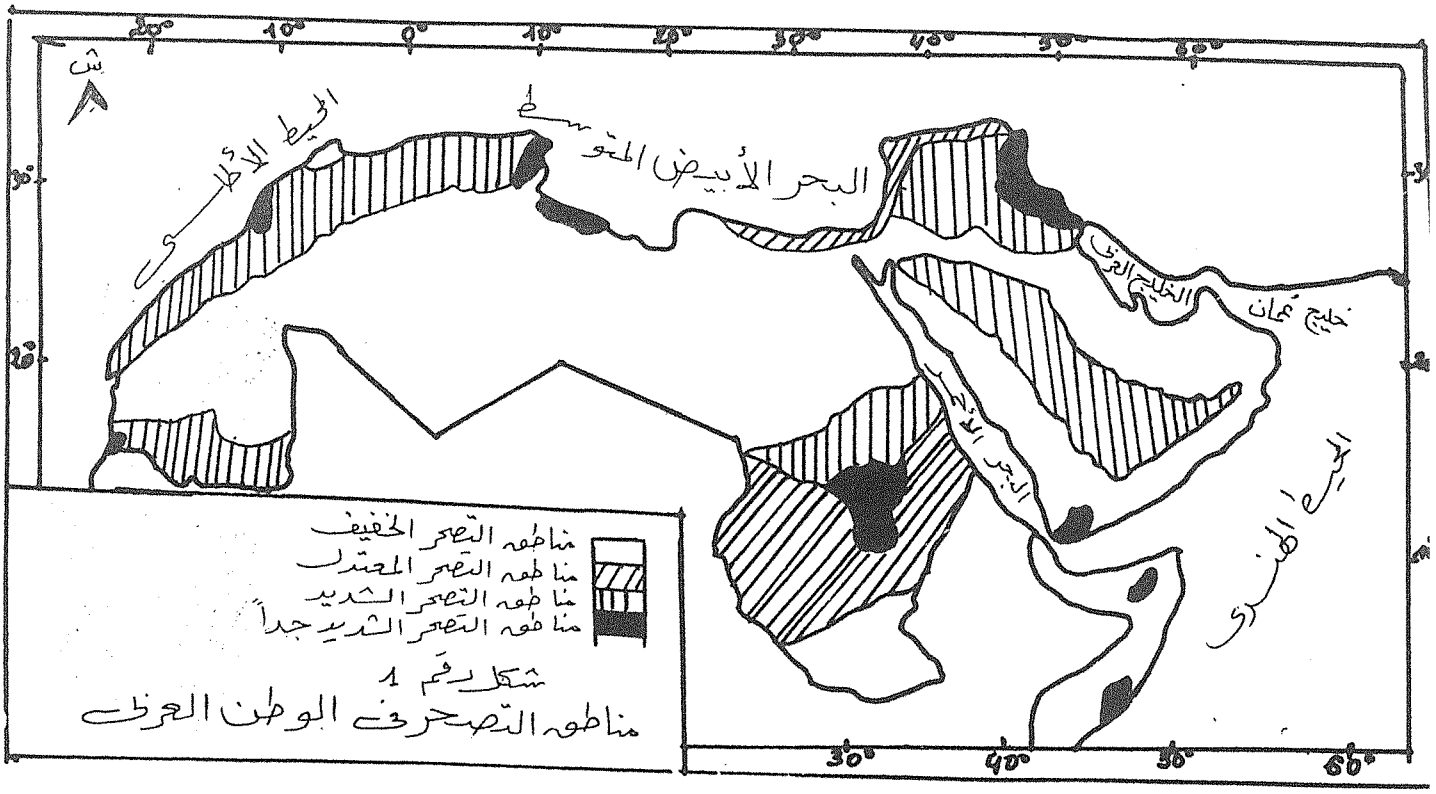

شكل رقم 1

مناطق التصحر في الوطن العربي

المصدر: خريطة الأمم المتحدة «التصحر في العالم 1977»

وماتزال- تشهد انكماشا واتساعا بسبب التغيرات المناخية (جودة حسنين جودة 1980م، ص:216). وأهم مجالات التصحر الحالية ترتبط ارتباطا وثيقا بنمط استغلال المجال فيوجد التصحر المرتبط بالري في كل من العراق وسوريا ولبنان وفلسطين ومصر، كما يوجد التصحر بسبب الرعي المفرط في كل من موريتانيا والسودان والأردن.

ويوجد التصحر المرتبط بقطع واجتثاث الغطاء النباتي (العشبي، الشجيري، الشجري) بكل أقاليم الوطن العربي، خاصة في تونس والجزائر والمغرب وموريتانيا والسودان والعراق والصومال... ويوجد التصحر بسبب انجراف التربة في كل من المرتفعات الجبلية بالمغرب والجزائر وتونس والعراق والأردن وسوريا واليمن ولبنان (الزراعة والمياه 1986م، ص: 18) وتدل هذه المعطيات علي أن كامل مجال الوطن العربي يشهد تصحرا وإن اختلف في مواقع وجوده بسبب اختلاف أسبابه، الا أن ذلك لا يعني أنه قد لا يختلف في خطورته علي طول امتداد المجال العربي فنجد التصحر الشديد جدا في وسط المغرب، الوسط التونسي والجنوب والشمال الغربي الليبي وشمال السودان والجنوب الغربي الموريتاني واليمني وفي العراق، ونجد التصحر الشديد على طول الوطن العربي في النطاق الإفريقي العربي المغرب العربي والسودان والصومال وجيبوتي وفي كامل المجال العربي الآسيوي، وتصحر متوسط يمتد في شريط ضيق يبدأ من شرقي ليبيا في اتجاه مصر، فلسطين، لبنان، سوريا، فالشمال العراقي.

وأخيرا تصحر طفيف يحتل كامل امتداد الصحاري العربية (الصحراء الكبرى وصحاري شبه الجزيرة العربية) (ATLAS MIRA 1984)

1) عوامل نشأة وتطور التصحر في الوطن العربي:

التصحر- حسب تعريفنا السالف- تدني إنتاجية البيئة الطبيعية بسبب تفاعل العوامل الطبيعية والبشرية التي تضفي على البيئة الطبيعية خصائص تؤدي اتساع وتطور التصحر.

1.1- العوامل الطبيعية: تساهم الظروف الطبيعية في نشأة التصحر،، فنوع الغطاء النباتي لعب دورا مهما في تسارع وتفاقم مظاهر التصحر كما يلعب الرصيد الرسوبي دورا في دينامية التصحر، وأهم الظروف الطبيعية الفاعلة في نشأة التصحر هي المناخ الذي يتذبذب بين فترات رطبة وأخرى جافة تنعكس سلبا أو إيجابا على عناصر البيئة الطبيعية وترتبط فاعلية الأمطار بكميتها ونسبة التبخر والنتح، لذلك تعد الموازنة المائية مؤشرا على مدى تأثير المناخ في ظاهرة التصحر، وتقاس الموازنة المائية من خلال قياس نسبة التبخر والنتح بالنسبة لقيمة التساقطات، فإذا توازنت القيمة نكون أمام مناخ معتدل أما إذا زادت قيمة التساقطات فإننا نكون ضمن أقاليم رطبة، وإذا قلت نسبة التساقطات بالقياس مع نسبة التبخر والنتح نكون ضمن الأقاليم الجافة وشبه الجافة، ويدخل الوطن العربي ضمن الأقاليم التي ترتفع فيها نسبة التبخر والنتح علي حساب كمية التساقطات.

بتملح التربة الذي قد يؤدي إلى تراجع إنتاجية البيئة كما يعد الجفاف من أهم العوامل التي تساهم في الإسراع والتوسع المجالي لظاهرة التصحر، ذلك أنه يؤدي إلى عدم انتظام في التساقطات الذي قد يؤدي إلى حدوث القحط ويزداد التأثير السلبي للمناخ في المنطقة العربية التي تشهد أمطارا غزيرة فجائية، حيث تعمل علي انجراف التربة وتدهورها، وتؤكد الدراسات الباليو-مناخية أن التصحر بسبب المناخ يعود في نشأته إلى فترات قديمة، حيث كان يسود مناخ تتعاقب فيه فترات جافة مع أخري رطبة بدليل تعاقب رواسب مائية وعضوية مع الرواسب الريحية (MONOD 1938 P:357).

مما يدل على نشأة الكثبان الرملية خلال الفترات الجافة واستقرارها بسبب نمو الغطاء النباتى إبان الفترات الممطرة، ولقد اكتملت نشأة الصحراء الكبرى خلال فترة الميوسن بسبب الجفاف كما نشأت الصحاري بالنطاق العربي الاسيوي لاحقا بسبب الجفاف فنشأت صحراء الربع الخالى التى تعتبر امتدادا للصحراء الكبرى ولقد استقرت الظروف المناخية منذ تلك الفترات وبدأت تنزح نحو القساوة، مما جعلها تؤثر على المناطق المجاورة (FAURE 1969 P.138).

ومن أهم سمات الفترة الحالية - ارتفاع المدى احراري (اليومي والسنوى)
- ارتفاع نسبة التبخر بالقاس مع كمية التساقطات.
- ندرة الأمطار وتذبذبها وفجائيتها.
- طول فترة الجفاف وتكرارها.

وتلعب هذه السمات دورا اساسيا في نشأة ظروف بيئية هشة، تظهر من خلال تدهوروغياب الغطاء النباتى، وانعدام عمليات التدبل والتصويل وندرة المصادر المائية.

2.1- العوامل البشرية يتضح من دراستنا للعوامل الطبيعية كأساس للتصحر أن المنطقة العربية كانت ترتبط هذه الظاهرة في نشأتها وتطورها بعامل الجفاف- العامل الأساسي- رغم أننا لا نمتلك الدلائل والبراهين على ذلك فالدراسات الأركليوجية تثبت أن الصحراء الكبرى العربية كانت مجال استغلال منذ القدم (monod et Toupet 1961 p 266) حيث شيدت بها حضارات قديمة مزدهرة، اعتمدت الزراعة أسلوبا للتنمية، مما يعني أن الإنسان يمكن أن يكون حاضرا كسبب في تصحر هذه المناطق قديما. والأكيد أن الإنسان الحديث بدأ أساليب جديدة لاستغلال الأراضي والإنتفاع بها، مما جعله يساهم إلى جانب الجفاف في خلق الظروف الملائمة لنشأة التصحر، بل إن أثر الإنسان تجاوز تأثير الجفاف في كثر من الأقاليم حين بدأ استغلال البيئات الهشة التي يكون فيها التوازن الأيكولوجي غير قابل لأي نوع من أنماط الإستغلال، وقد ساهم التطور التكنولوجي وارتفاع مستوى المعيشة وتنوع الحاجيات البشرية في الاستغلال غير الأمثل لموارد البيئة الطبيعية، ويتجلى دور الإنسان في نشأة وتطور التصحر من خلال أنشطته المختلفة، ومن أهمها (من حيث تأثيرها علي التصحر).

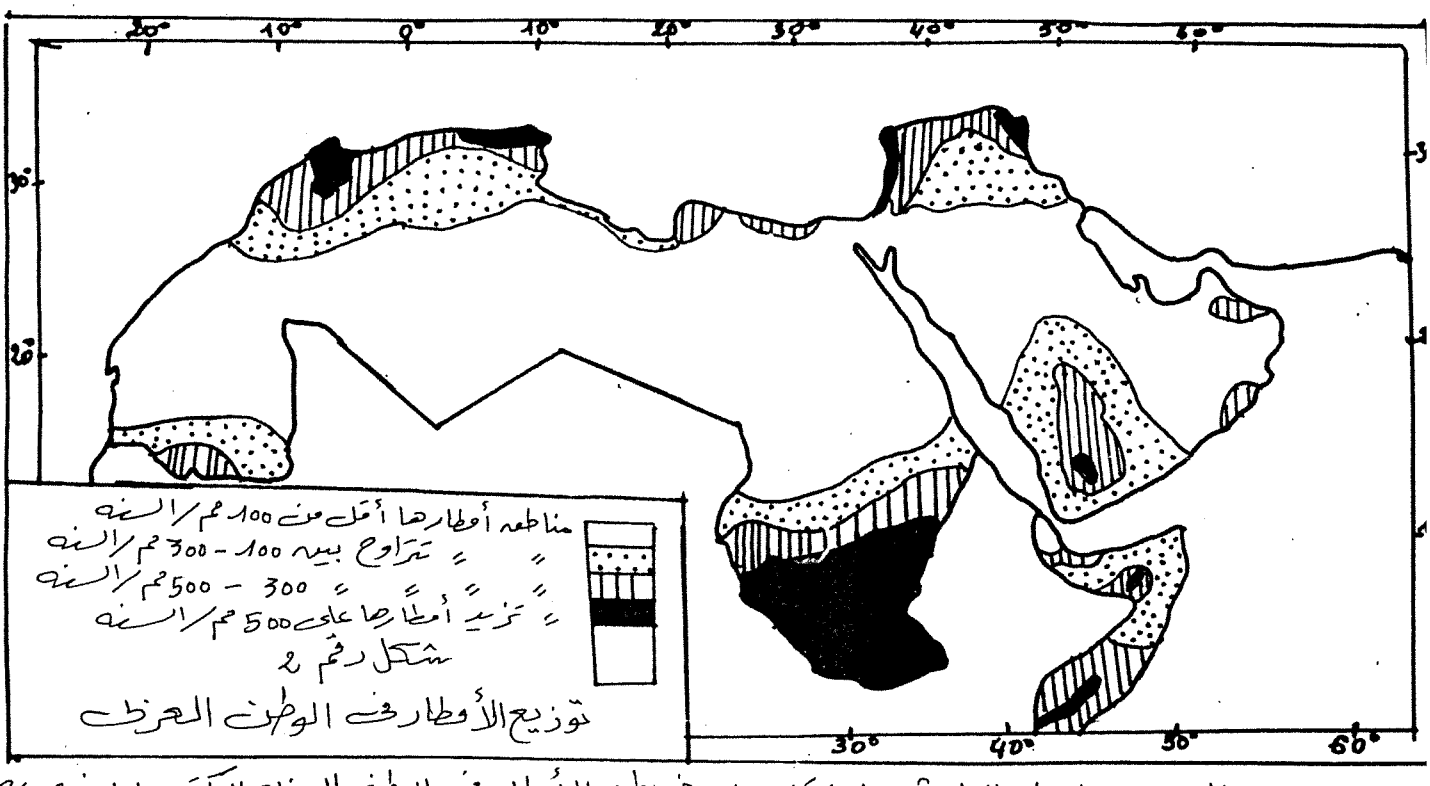

شكل رقم 2

توزيع الأمطار في الوطن العربي

المصدر :- اعداد الباحث بالإعتماد على خريطة الأمطار في الوطن العربي للدكتور جان جوزي 1986

البيئية وتقاس هذه الطاقة من خلال معادلة الان Allan (حسن عبد القادر ومنصور 1989م، ص:21). وبما أن غالبية أراضي المراعي الطبيعية تقع ضمن نطاق الإستبس فإن استغلال هذا المجال الهش قد يعرض النباتات للتدهور، فتتراجع قابلية البيئة للإنتاج فينشأ التصحر الذي قد يتوطن في حالة استمرار الضغط علي العناصر الطبيعية للبيئة، فتتحمل المراعي الطبيعية بكثير من أقاليم الوطن العربي كثافة حيوانية تفوق طاقتها بكثير، ففي سوريا مثا تتحمل طاقة تزيد عن كفاءتها ثلاث مرات، بينما ترتفع إلي أربع مرات في العراق وبادية الشام بالأردن، وتزيد على كفاءتها في كل من موريتانيا والسودان (الزراعة والمياه 1986م، ص:72).

2.2.1- حرق النباتات: لقد ساهم الإنسان العربي في تحطيم بيئته الطبيعية من خلال حرق نباتاتها، خاصة بالمغرب العربي (الجنوب الغربي الموريتاني، الجزائر، المغرب وليبيا) إبان فترات حرب الإستقلال، حيث قام في الجزائر بتحطيم، وحرق 4 ملايين هكتار من الغابات، كما تم تحطيم جزء هام من غابات الصنوبر بكل من تونس والمغرب وتخسر موريتانيا سنويا كميات هامة من مصادر العلف بسبب الحرائق التي تصيب الحشائش بعد انقضاء موسم المطر الصيفي وتضيع نسبة 35٪ من مصادر العلف بالسودان بسبب الحرائق (عبد الباقي ببكرونجيب البراهيم 1983م، ص:46).

3.2.1- قطع الأشجار: تستغل الأشجار في مجالات مختلفة، فمن أسباب التصحر في تونس مثلا استنزاف الغابات بهدف بناء الأساطيل البحرية والإستعمالات المنزلية خلال حكم الفينيقيين والرومان (فؤاد نجيب ابراهيم 1983م، ص:83)، كما أن استخدام الأخشاب كوقود للقطارات البخارية في أوائل الصناعات ساهم في تدهور العديد من الغابات في إقليم الشرق الأوسط، كما يتدخل الإنسان من خلال عادة الإحتطاب في تدهور البيئة الطبيعية وتمارس هذه العادة في كامل الوطن العربي، ففي موريتانييا تستغل غابات السنط (Acacianilotica) في الجنوب بهدف تزويد انواكشوط وبعض المناطق الأخرى بالحطب والفحم الخشبي، كما يستغل الأردنيون والسودانيون غابات تبعد عن نطاق الحضرب 80كلم، وتفيدنا الدراسات (الزراعة والمياه، ص:15) التي قيم بها حول تطور الغابات بالوطن العربي بأن هذه الغابات شهدت تراجعا مهما، ففي المغرب كانت المساحة الإجمالية للغابات تصل حوالي 13,5مليون هكتار سنة 1690م، وقدرت هذه المساحة ب 4,2مليون هكتار سنة 1940م، أي بنسبة تراجع تصل حوالي 5000 هكتار للسنة. وقدرت نفس المساحة سنة 1990 بمليون هكتار، أي نسبة تراجع 20.000 هكتار للسنة، وقد تزداد هذه النسبة ناحية الجنوب، وتدل هذه الأرقام على أن العقود الخمسة الأخيرة شهدت فيها الغابات المغربية استنزافا مذهلا وخطيرا. أما في تونس فكانت غابات الصنوبر تقدر بحوالي 300.000 هكتار خلال التاريخ القريب وتقدر حاليا ب70.000 هكتار، وفي منطقة قابس وحدها يتم تحطيم 1800 هكتار من الغابات سنويا، وتقدر البحوث بأن الأرياف في المغرب العربي تستخدم مايقدر ب2,4 مليون هكتار من الغابات سنويا لكل عشرة ملايين شخص (حسن عبد القادر ومنصور حمدي 1989م، ص:95).

300.000 هكتار في الجبال الداخلية بسوريا ولم يبقى منها في الوقت الحاضر سوي النزر القليل، وفي العراق تدهورت الغابات لدرجة أنه لم يبقى منها إلا اشرطة ضيقة تنمو على ضفاف نهري دجلة والفرات، كما تدهورت غابات الأرز والصنوبر بلبنان ولم تبقى منها سوى تجمعات بسيطة.

وفي اليمن والهضاب الغربية بالسعودية والتهامة تدهورت الغابات التي كانت توجد بها لحد فقدانها (المياه والزراعة 1986م، ص:16).

كما يساهم الإنسان في التصحر من خلال أنماط استغلال المجال في الزراعة، فهو حين يوظف الأقاليم المرتفعة في زراعة المدرجات دون مراعاة لخطوط التسوية فإنه يساهم في تعرية التربة وانزلاقها كما تلعب مواسيم الحراثة دورا أساسيا في تنشيط فاعليات التصحر، فحين يقوم بالحراثة خلال مواسيم قوة الرياح، فإنه يعرض التربة للتذرية وبالتالي تراجع انتاجيتها.

4.2.1- سوء استخدام المصادر المائية: أدى التطور التكنولوجي إلى استغلال كميات هائلة من المياه ضمن المشاريع الصناعية بعد أن كان مقتصراعلى الزراعة، ورغم الحاجة المتزايدة للمياه وضرورة ترشيد استعمالهاورغم تأثيرها السلبى فى غياب تقنين استغلالها، كل ذلك لم يدفع البلاد العربية التي اتخذت من الرى أسلوبا للزراعة ترشيد مواردها المائة.

فنجد مثلا أن البلاد العربية تستغل 12.000م^3 لري الهكتار في حين أن الحاجة الحقيقية لا تتجاوز 7.500م^3 للهكتار (المصدر السابق، ص: 17) وسوء الإستغلال هذا قد يؤدى إلي تملح التربة وتراجع إنتاجيتها.

ثالثا: مظاهر التصحر في الوطن العربى:

تمثل أسباب التصحر أحيانا مظاهرا من مظاهر التصحر، فتراجع العينات النباتية والحيوانية تعتبر من بين مظاهر التصحر وسببا ممن أسباب تطوره في نفس الوقت، وفي إطار دراستنا لمظاهر التصحر سنقتصر علي تدهور التربة كأهم مؤشر يدل على التصحر في الوطن العربى .

1- انجراف التربة:

تتعرض التربات للإنجراف في مناطق عديدة (خاصة المجالات المرفتعة طبوغرافيا)، حيث يتم انجراف الفسخات السطحية وتظهر الصخورالمحلية. وتوجد ظاهرة انجراف التربات بالجناح العربي الاسيوى إذ تتضرر نسبة 21٪ من مساحات العراق، حيث نجد نهرى دجلة والفرات ينشران رواسب يصل سمكها 100م، كما ترسب نفس الأنهار ماقيمته 35 مليون طن من المواد الطين- طموية في شط العرب، وقد تشكلت 26 جزيرة ضمن الصخور الطين- طموية (الخشاب 1983م، ص:97).

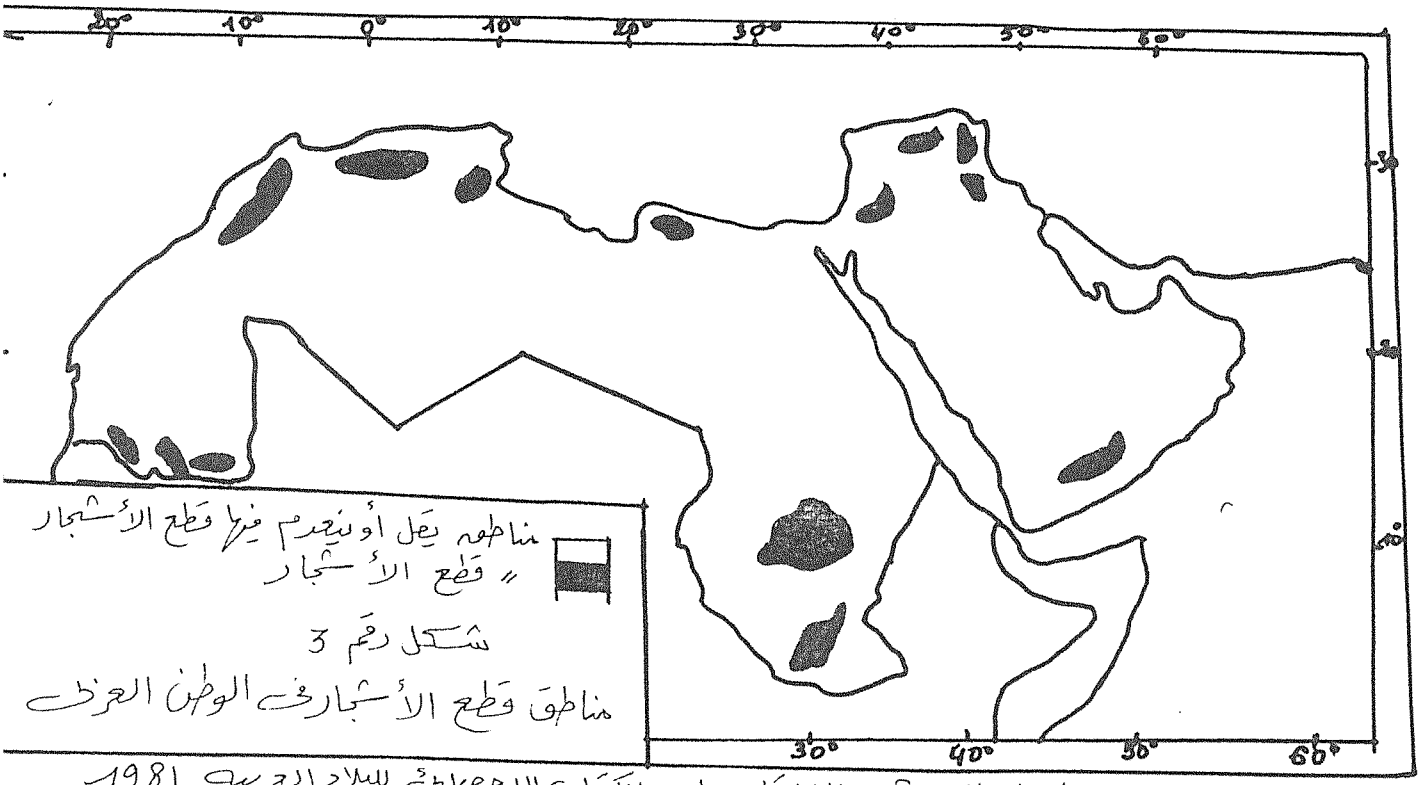

شكل رقم 3

مناطق قطع الأشجار في الوطن العربي

المصدر :- من اعداد الباحث بالاعتماد على الكتاب الاحصائي للبلاد العربية 1981

في الجزء الشمالي، تراكم الجليد على قمم المرتفعات الجبلية، انفتاح الغطاء النباتي. وتتعرض جبال لبنان وسوريا لعمليات انهيال التربة، حيث انزلقت 4/3 التربات ضمن أحواض الأنهار كما تتعرض الأردن لأخطر عمليات انجراف التربة، حيث فقدت تربتها سمكا يصل 14سم خلال ال50سنة الأخيرة، ويتعرض الشمال اليمني لفعاليات انجراف التربة (مصدر سبق ذكره، ص:18).

وفي الجناح العربي الإفريقي تخسر تونس 10 آلاف هكتار للسنة بسبب انجراف التربة ففي جبال ماجوره وسيدي عالي بن عوون تنجرف التربة بسبب غياب الغطاء النباتي.

وبفعل الأودية القصيرة التي تجري على طول المنحدرا (حسن عبد القادر وحمدي 1989م، ص:129). ويفقد المغرب ماقيمته 2.000 طن من المواد الدقيقة (طين ودقة) للكلمتر المربع ناحية جبال الريف (Ahmed elgharbaoiu 1981 p.287).

ونعتقد أن النسبة قد ترتفع ناحية الجنوب بسبب وجود السفوح المعراة. ويفقد السودان أراضي واسعة ناحية قردود بسبب عمليات التصويل وإفقار المسكات العليا (عبد الباقي ببكروفؤاد إبراهيم 1983م، ص:65) من مواد مركب الماص، وتشكيل الرصيد الرسوبي الذي يكون لاحقا مادة الكثبان الرملية.

2- التعرية الريحية:

تسود الرياح التجارية القارية معظم بلاد العرب وتعمل هذه الرياح تذرية مواد التفسخ وتحريكها في شكل كثبان رملية يساعدها على ذلك انفتاح أو انعدام الغطاء النباتي وتوجد مظاهر التصحر المرتبطة بأثر الرياح في مجالات واسعة من الوطن العربي.

ففي الجزء العربي الآسيوي توجد صحاري رملية واسعة، الربع الخالي (647.500 كلم2)، يبدو أنها تشكلت بسبب تراكم الكثبان الرملية ضمن منخفض واسع ويتراوح سمك الرواسب الرملية بهذه الصحراء مابين 150و300م، ثم صخراء النفوذ (22000كلم2) وصحراء الجافوره وإلى الشمال من ذلك توجد الصحراء الرملية العراقية، تصل مساحتها حوالي1,4 مليون هكتار وصحراء التذرية الريحية بالهضبة الغربية.

وفي سوريا والأردن بدأت الفسخات الموروثة عن ظروف مناخية سالفة تتعرض لحركة محلية مشكلة كثبان رملية (حمدي قادر89، ص:141.

وضمن المجال العربي الإفريقي هناك الصحراء الكبرى وتشغل مساحة تقدر بحوالي1.700.000كلم2، وقد بدأت هذه الصحراء تتسع أفقيا على حساب المناطق الهامشية، بل إن الكثبان الرملية قد تتحرك نحو مجالات بعيدة بسبب الرياح التجارية القارية (Mainguet 1979 p: 23).

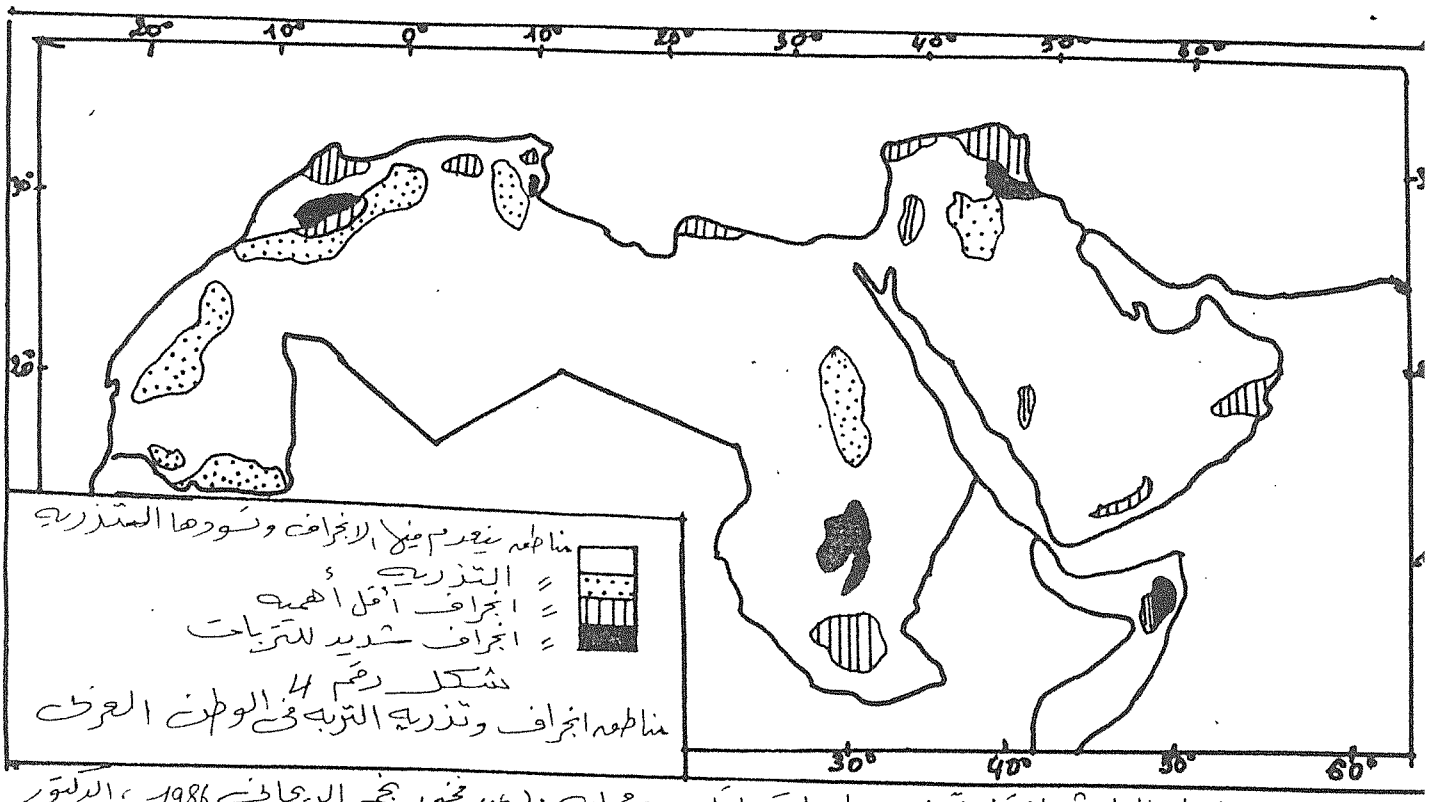

شكل رقم 4 مناطق انجراف وتذرية التربة في الوطن العربي

المصدر :- من اعداد الباحث اعتماداً على دراسات اقليمية ومحلية : (عبد مخور بحم الرحافي 1986 ، الدكتور أحمد الغرباوي 1981 ، الدكتور عبد الله الموفق 1981 ، الحسين خطاط 1984 ، الدكتور حسن عبد القادر ومنصور محمدي أبو علي 1959

مايعادل 8م من سمك التربة، ويختلف حجم المواد المنقولة من فترة لأخرى ومن مجال لآخر ففي نواحي دار الظاوي والبئر الأحمر تصل نسبة المواد المنحوتة بسبب الرياح إلي 55.73٪ خلال الصيف في حين لا تتجاوز 44.26٪ أثناء الخريف (Houcine khatali 1984 p:77).

3- تملح التربة:

تتعرض التربات ضعيفة النمو إلي التدهور الكيماوي المرتبط بالأملاح التي تعمل على تدهور بنية التربة وتغدقها بسبب ضعف تصريفها. وتوجد ظهارة تملح التربة بالسهول العربية خاصة في العراق، حيث تتأثر نسبة 70٪ من مساحة سهلة الإجمالية 708.000 هكتار) بتملح التربة.

وتفيد الدراسات إلى أن نسبة تتراوح مابين 20-30٪ من أراضي هذا السهل لم تعد منتجة (محمد شخاترة 1986م، ص:20). وفي مصر تغطي المساحات المتملحة نسبة 30٪ من الأراضي الزراعية المستصلحة قديما وحوالي 40 ألف هكتار من الأرضي المستصلحة حديثا، ويظهر التملح والتغدق في سوريا والأردن واليمن ودول الخليج (المرجع السابق، ص:20).

فكيف واجهت إذن الدول العربية تقدم مظاهر التصحر في بيئتها الطبيعية؟

رابعا:طرق مكافحة التصحر في الوطن العربي:

تختلف طرق مكافحة التصحر من حيث وسائلها من إقليم لاخر بسبب اختلاف الوسائل المتاحة والامكانيات المادية والبشرية الضرورية لمثل هذه المكافحة، وترتبط مكافحة التصحر - اليوم - بتثبيت الرمال الذى رصدت له أموال طائلة رغم أنه لا يعدو كونه مظهرا من مظاهر التصحر ونميز ضمن تثبيت الرمال بين اسلوبي التثبيت الميكانيكي والتثبيت البيلوجى.

1- التثبيت الميكانيكى:

يستهدف التثبيت الميكانيكيى وقف حركة الرمال ميكانيكيا ويتم ذلك في الوطن العربي بوسائل مختلفة (الوسحانى 1986م، ص125)، ومن اهمها :

1.1- التثبيت بواسطة الأسيجة: تستخدم اغصان الأشجار وسعف النخيل والقصب الجاف فى بناء أسيجة تقام على شكل مربعات تقل مساحتها مع شدة الرياح، وتهدف هذه العملية الى اضعاف سرعة الرياح ووقف تقدم الرمال نحو المشاريع الزراعية والمنشآت البشرية، وتستخدم هذه الطريقة بكامل أراضى الوطن العربى (عبد المقصود انميى 1980 ،ص:6).

2.1- التثبيت بواسطة السدود الترابية: تقام سدود ترابة مستعرضة مع اتجاه الرياح السائدة ويهدف من خلالها الى اضعاف سرعة الرياح وتراكم الرمال وحماية المنشآت البشرية، وينهج هذا الاسلوب فى اقطار المشرق العربى، خاصة السعودية والعراق (مخور

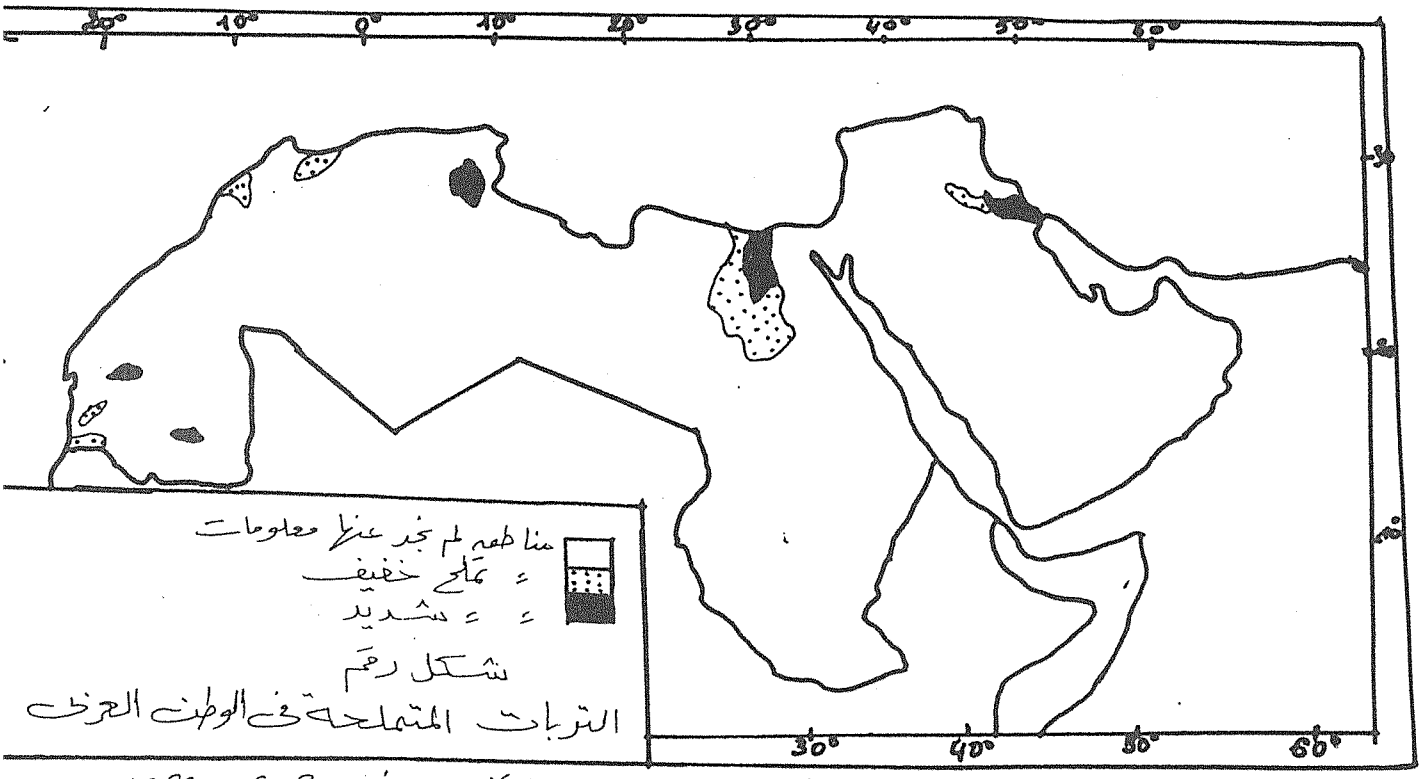

شكل رقم
الترب المتملحة في الوطن العربي

المصدر: اعداد الباحث بالاعتماد على حسن عبد القادر ومنصور حمدي 1989

الذى ستنشر عليه هذه المواد، وقد تساهم هذه العملية فى إعادة تأهيل الكثبان الرملية رغم انها قد تساهم فى تدهور مجال اقتلاعها وتستخدم هذه الطريقة فى العراق (المرجع السابق، ص:180).

4.1- التثبيت بواسطة رش الكثبان بالمواد الكيمياوية تتم عن طريق مزج المركبات الكيماوية بالمياه ونشرها فوق الكثبان الرملية وهي باهظة التكاليف فى الوطن العربى بسبب استراد المواد الكيماوية وتستخدم فى دول الخليج (مرجع سبق ذكره، ص: 183) وقد تكون لهذه الطريقة تأثيرات جانبية عند اعادة تشجير المنطقة.

5.1- التثبيت بواسطة المشتقات النفطية يستخدم اسلوب رش الكثبان الرملية بمشتقات النفط فى بعض الدول العربية (العراق ، ليبيا ، السعودية ، الجزائر) ، (الريحانى 86 ، ص: 181) وهى تعتبر وسيلة تثبيت ميكانكية ضعيفة التكلفة في هذه الدول اللهم اذا كانت موجة التصحر الاخيرة لها ارتباط باتباع هذه الاسلوب في التثبيت الميكانيكى للرمال!

2- التثبيت البيولوجى:

يعنى التثبيت البيولوجى تشجير المنطقة، ويعتبر اهم عمل يقام به فى اطار إعادة التوازن الإيكولوجى بالنطاقات المتصحرة، كما يعتبر الوسيلة الوحيدة الدائمة لمعالجة التصحر.

وقد اخذت الدول العربية بالثبيت البيلوجى رغم أن اتباع بعض الأساليب الخاطئة قد جعلت العديد من المشاريع تفشل والبعض الآخر في طرقه الى الفشل.

ويتلخص الاسلوب السليم في اعادة التوازن الإيكولوجى في تطوير المجتمعات النباتية المحلية عبر زراعة الاعشاب المعمرة وزراعة الاشجار لاحقا، وقد اتبعت بعض الدول هذا الاسلوب كليبيا، إلاأنها بذرت الأعشاب خلال موسم المطر، فلم تكن التجربة ناجحة وفى العراق بذرت بعض الأعشاب الحوليةالمحلية والمستوردة قبل رش الاقليم بالمواد الكيماوية، فلاقت التجربة نجاحا محدودا (المرجع السابق ، ص:192).

ونقترح في هذا المجال ان تبذر الأعشاب المحلية وقبل فصل سقوط المطر وفي نطاقات الرعى، ذلك ان الحيونات قد تساهم في ردم البذور وحمايتها من التذرية الريحية، مما يساهم في استفادتها من الأمطار عند بداية سقوطها وتتاح لها الفرصة بأكمال دورة حياتها وخلال عملية التشجير غالبا ما يتم اختيار اشجار معينة حسب معايير محددة من أهمها:- أن تكون قادرة على مقاومة فعل الرياح.

- ان تكون لها مجموعة جذرية (اخطبوطية) قادرة على الإستفادة من مصادر المياه الشحيحة.
- أن تكون سريعة النمو.
- أن تكون ضعيفة الحاجة إلى المواد العضوية.
- أن تكون قادرة على التكيف مع الملوحة.

العربي (يوكالبتوس، اكاسياهوريا، كازورينا) وتختلف نسبة نجاح وطريقة تشجير هذه الأشجار باختلاف الأقاليم (مصدر سابق، ص: 194).

وفي المناطق الرملية القادرة على الإحتفاظ بالرطوبة الكافية خلال موسم الأمطار تتبع طريقة التشجير الجاف، وقد تروى خلال موسم الجفاف. أما فى المناطق حيث تندر الأمطار وتنعدم الرطوبة الكافية لنمو النبات فإن التشجر يعتمد الري اسلوبا له، ورغم مشاريع التثبيت المكانيكى والبيولوجى، ورغم ما رصد من اموال طائلة لمكافحة التصحر فإن غالبية مشاريع تثبيت الرمال في الوطن العربى اما فشلت أو في طرقها إلى الفشل.

وربما يعود ذلك حسب رأينا، إلى أن غالبية الدول العربية انتهجت اسلوب التشجير أولا ثم بذر الاعشاب ثانيا (وكان عليها اتباع العكس) كما ان الدول التى سلكت اسلوب بذر الأعشاب أولا ولم تراعي الظروف الموضوعية التى قد تساهم في الحفاظ عليها ضمن التربة ونموها لاحقا. كما قد يعود سبب فشل بعض المشاريع إلى العجز عن تحديد التصحر تحديدا دقيقا وضبط ديناميته وفي هذا الاطار نعول على الإستخدام المستمر لصور لاندسات التى تغطى كامل المنطقة كما أن ادخال اسلوب الإستشعار عن بعد لتتبع ظاهرة التصحر ضرورية ومؤكدة لرصد دينامية هذه الظاهرة كما أن تحديد مصادر تقدم التصحر يجب أن تضبط ويعالج التصحر من عندها، وربما يعود سبب فشل المشاريع إلى كونها تستهدف حماية مجالات محددة ومعينة، فاصبحنا فى موقع دفاع لا في موقع "هجوم" على مواقع وعوامل التصحر.

ومهما يكن من فشل اصيبت به مشاريع الحد من مظاهر التصحر وتتعرض له مشاريع أخرى، فإن وعى المواطن العربى ورجال السياسة في الوطن العربى بمشكل التصحر والأخطار المترتبة عليه تجعلنا نأمل ان يجد سبيله الى الحل الذى قد يعنى اعادة النظر في اتجاه التنمية وأساليبها الإجرائية.

أولا: العربية:

1) جودة حسين جودة: العصر الجليدي وعصور المطر في صحاري العالم الإسلامي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، 1980م، بيروت.

2) غنيمي زين الدين عبد المقصود: مشكلة التصحر في العالم الإسلامي، قسم الجغرافيا، جامعة الكويت 1980.

3) مجلس الوحدة الإقتصادية العربية: الكتاب الإحصائي للبلاد العربية، العدد4، 1981م، عمان الأردن.

4) ابراهيم فؤاد نجيب: الأسباب الجرافية البشرية للتصحر في الإستبس التونسي وإقليم الساحل السوداني، المؤسسة العربية للدراسات والنشر1983م، بيروت (ترجمة).

5) الخشاب وفيق وآخرون: وزارة التعليم العالي جامعة بغداد 1963 المواد المائية في العراق، المجلة الجرافية السورية، المجلد(7-8) 1983.

6) الطائي فليح حسن هادي: واقع التصحر في الجمهورية العراقية وطرق مكافحته، مجلس البحث العلمي والمركز العربي لدراسات المناطق الجافة والقاحلة1984م، بغداد.

7) مجلة جغرافية المغرب: (الجمعية الوطنية للجغرافيين المغاربة)، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1984م.

8) المركز العربي لدراسة المناطق الجافة والأراضي القاحلة: الزراعة والمياه في المناطق الجافة في الوطن العربي، العدد4، 1986م.

9) عبد مخور نجم الريحاني: ظاهرة التصحر في العراق وآثارها في استثمار الموارد الطبيعية، أطروحة دكتوراه غير مطبوعة 1986م، جامعة بغداد.

10) فاروق الباز: مجلة الباحث العربي ، إبريل 1986م.

11) د. عبد القادر حسن منصور حمدي أبو علي: الأساس الجغرافي لمشكلة التصحر، دار الشروق والتوزيع الطبعة الأولى الأردن عمان 1989م.

ثانيا: الأجنبية:

1) Monod th. Notes Botamiques sur le Sahara Occidental et les conlino saheliens in la vie dans les regions desertiques nord tropicale de l'aucien monde "memoire soc. biogéogr. VI paris. 1938

2) Monod th et toupet ch. Utilisation des terres de la region saharo - sahélienne , une histooire de l'utilisation des terres des regions arides paris, 1961.

3) Faure.H. le quaternaire du sahara. Mitt . Inter. Wat verieu, Limal. Stuttqaxt, 1969.

4) Docteur AHMED EL GHARBOUI, la terre et l'homme dins la penincile de Tingitane, traveaux de l'institut scientifique serie geologie et geographie phisysique n° 15 Rabat, 1981.

5) Monique Mainguet, et autres sedimentation au sahara et sur ses manges travaux de l'institut de geographie de Reims publication trimestrielles. Le vont. 1984.

6) Houcine khataly, recherche sur la desertification de le jewera (sud tunisiene) revue tunisienne de geographie F.L.S.H. du Tunis N° 12.

العلاقات التروزية الفرنسية في عهد الاستعمار الزراعي (1831-1818) من خلال رواية أرنست بريني

محمد المختار ولد السعد
جامعة نواكشوط
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
قسم التاريخ

اضطربت العلاقات التروزية الفرنسية في الثلث الأول من القرن التاسع عشر بشكل لم يسبق له مثيل في تاريخها. ومن شأن التذكير - ولوباقتضاب- بالسياق التاريخي العام الذي استؤنفت فيه تلك العلاقات سنة 1817 أن يساعدنا على فهم الأبعاد الحقيقية لذلك الصراع الذي اصطدمت فيه مصالح الطرفين في مصب النهر وتشابكت وتفصلت مع الهموم الآنية لكل منهما.

فقد كانت إمارة الترارزة تعيش أول أزمة خلافة جدية في تاريخها جراء انتقال السلطة من الفرع الأكبر من أبناء أعلى شنظوره (ت: 1727) إلى الفرع الأصغر مع مطلع القرن 19. وإذا كان هذا الانتقال قد تم دون مشاكل - في البداية- باتفاق أهل الحل والعقد على إسناد السلطة لأعمر ولد المختار ولد الشرغي ولد اعلى شنظوره في أعقاب وفاة أعمر ولد المختار ولد أعمر ولد أعلى شنظوره سنة 1800، فإن جناح أهل أعمر ولد أعلى سرعان ما أعرب عن رفض السلطة الجديدة وعمل على استرجاع الإمارة. وقد تزعم تلك المطالبة محمد بن أعلى الكوري ابتداء من 1810 مدعوما من قبل جناح المعارضة التقليدية في الإمارة (أولاد دامان) وإيدوعيش أولا، ثم «والو» والفرنسيين ثانيا.

وإلى جانب هذه الانقسامات الداخلية المتولدة عن صراع العصبيات الخاصة، كان للإمارة - وقتها- مصالحها الخارجية المتعارضة مع المصالح الفرنسية.

فقد كان الترارزة يهيمنون على مملكة «والو» المجاورة ولهم حضور ملحوظ في جارتيها الجنوبية والشرقية (كايور واديولوف). وقد تجسد ذلك النفوذ على مستوى ممالك الضفة اليسرى في دفع المغارم السنوية وطلب الدعم لمواجهة الأخطار الخارجية أو لحسم الخلافات الداخلية على السلطة، فضلا عن حضور الترارزة البشري المكثف في كل من والو

كل الحرص على بقاء تلك العلاقات للاستفادة من التنافس الأوربي في المنطقة على تجارة العلك التي مثلت - دون منازع- القاعدة الاقتصادية لمركز سان لويس الفرنسي من القرن 18 وحتى سبعينات القرن 19 (تعود بداية تصدير الفول السوداني إلى 1864).

أما الفرنسيون فقد استعادوا سان لويس وتوابعه من الانجليز- الذين استولوا عليه للمرة الثانية أثناء الحروب النابليونية سنة 1709-في 1817 بموجب اتفاقية افينا (9يونيو 1815) في ظروف دولية ومحلية صعبة بالنسبة لهم.

فعلى المستوى الدولي ألزمهم الانجليز بانهاء تجارة الرقيق كشرط لتسليمهم سان لويس، وقضت مستعمراتهم في جزر الآنتيل على النظام العبودي حيث قوضت ثورة عبيد سان دومنيك في 1804 مستعمرات الرقيق الزراعية الفرنسية فضلا عن خسارة الصناعة في المراكز الفرنسية بالهند ولاسيما صناعة النسيج فيي بوندشري.

وعلى المستوى المحلي كان نفوذ الترارزة في الحوض الأسفل للنهر قد توطد وأفل نجم تجارة الرقيق وطغت تجارة العلك على النشاطات الاقتصادية في المنطقة منذ منتصف القرن 18 وساهم الانجليز في تعزيز دورها أثناء وجودهم في سان لويس (1809-1817) بوصفها مصدر الإغراء الاقتصادي الوحيد في المنطقة(1).

وهكذا ستعمل فرنسا جاهدة بعد استعادة مستعمرة السينغال على إقامة مستعمرة زراعية على الضفة اليسرى للنهر (في «فوته» أولا ثم في «والو» ثانيا) لتعويض خسارتها في العالم الجديد، وتوظيف اليد العاملة التي لم يعد بالإمكان تصديرها، وإيجاد مصدر اقتصادي آخر للحد من تبعية المستعمرة لتجارة العلك. وستصطدم تلك المحاولة بهيمنة الترارزة الفعلية على مملكة «والو» حيث سيعجز الوالي الفرنسي الجديد، الكولونيل شمالتز Schmaltz، وخلفاؤه من بعده عن تحقيق ذلك المشروع بفعل مقاومة الترارزة المسلحة له، ويعرف الثلث الأول من القرن19 سلسلة من الصراعات المكشوفة والمقنعة بين الطرفين.

ويلخص نص مفتش المزارع الاستعمارية بالسينغال أرنست بريني E. Brunet(2) وجهة النظر الفرنسية من تلك الصراعات التي لا توفر لنا المصادر المحلية عنها معطيات تذكر. وهنا تكمن أهمية هذا النص الذي نأمل أن يسد بالنسبة للقارئ عموما، وللباحث خصوصا، بعض النقص في المعلومات عن هذه الفترة التي تشكل منعطفا حاسما في تاريخ التغلغل الفرنسي في المنطقة. فقد تحول الحضور الفرنسي في المنطقة من حضور تجاري في الأساس إلى حضور له مراميه السياسية الواضحة. وتولد عن ذلك -أحيانا كثيرة- تباين في المواقف من الأوضاع المحلية بين التجار الغيورين على مصالحهم المركانتيلية الآنية والسلطات الإدارية ذات الأفق السياسي الأبعد مرمى.

ويتمحور النص حول محاور أساسية ثلاثة:

- مشروع الاستعمار الزراعي ومضاعفاته المحلية.
- محاولات القضاء على الحضور الانجليزي في بورتا نديك ومركزة تبادل العلك على النهر.

الصراعات.

فقد أوضح برينى Brunet كيف شرع اشمالتز Schmaltz فور استعادته قلعة سان لويس بتاريخ 17 يناير 1817 في وضع تصوره النظري لمشروع المستعمرة الزراعية في منطقة النهر وأحاله إلى البارون بورتال Baron Portal وزير البحرية والمستعمرات ليصادق عليه رسميا في 1818.

وعمل الوالي على كسب زعماء المنطقة - باستثناء السلطة القائمة في الترارزة- لمشروعه فأبرم معهم اتفاقيات (المامي يوسف، احمدو بن سيدي أعلي، أعمر فاتيم امبورسو، محمذ آغربط وامحمد بن اعلى الكوري) لضمان أكبر حظوظ النجاح للمستعمرة الزراعية وتحسبا لمعارضة إمارة الترارزة لها. وقد كان اشمالتز يتوجس منها، في الواقع، خيفة وإن تظاهر بتجاهلها والتقليل من شأنها حين قال في رسالة له إلى الوزير: «**لا أعرف ما إذا كان بوسعهم [الترارزة]، وهم في الوضع الذي هم فيه، الإقدام على أعمال عدائية، لكنه سيكون من السهل- في تلك الحالة- القضاء عليهم أو طردهم من البلد، وهو أمر لعمري عظيم الفائدة**»(3).

وماكاد الترارزة يأخذون علما باتفاقية 8 مايو1819 حتى شنوها حربا مدمرة على «والو» وأعربوا عن ملكيتهم العقارية ل«دكّانه» مركز المستعمرة الزراعية في رسالة من الأمير أعمر ولد المختار إلى الوالي لكوبي Lecoupé خلف شمالتز جاء فيها «**ودكّانه قرية لأهل محمد بابانه(4) لاتباع ولا تعار**»(5).

ورد اشمالتز على ذلك بتعميق الهوة بين قطبي الصراع في الترارزة بمدّ يد العون لامحمد بن أعلي الكوري ولأهل «والو» في الحرب ضد اعمر ولد المختار.

وستخف وطأة الصراع التروزي الفرنسي الذي أثاره مشروع الاستعمار الزراعي بموجب اتفاقية 7يونيو 1821 لتنشب خلافات جديدة - أخطر هذه المرة وأشدُّ وطأ بالنسبة للإمارة- مصدرها الاتفاقية السرية التي أبرمت في نفس التاريخ مع محمد فال بن عمير لمنع التبادل مع الانجليز في بورتانديك (اجريده حاليا).

فقد كانت أزمة تجارة سان لويس التي استحوذت على اهتمام السلطات المتعاقبة على المستعمرة طيلة النصف الأول من القرن 19 في بدايتها، وتبذل كل ما في وسعها لإنهاء الوجود الانجليزي على ساحل بورتانديك غير المقبول اقتصاديا وسياسيا بالنسبة للفرنسيين، ذلك «**أن البيضان {على حد قول البارون روجي Baron Roger} أصبحوا شيئا فشيئا أكثر تشددا ويهددون دوما بالذهاب إلى الانجليز، فسعر العلك الآن قد ارتفع ارتفاعا كبيرا نسبيا، فمتوسط القيمة قد بلغ 80إلى 90 رطلا لبيصة النيلة**»(6).

فوجدوا في ابن عمير المعروف بتطاوله على سلطة أهل الشرغي الجديدة ضالتهم المفقودة. وفي ذلك يقول الوالي روجي: «... **لقد حاول المفاوضون السان لويسيون الذين لهم مصلحة كبيرة في منع توجه العلك إلى بورتانديك لما ينجر عنه من أضرار بالنسبة لمحطات النهر، حاولوا كسب ودّ محمد فال الأمير**

Prince الاكثر نفوذا بين امراء الترارزة والذي منحته المعاهدة الاخيرة امتيازات مماثة لامتيازات الملك، فضمن لهم محمد فال عدم نقل العلك إلى بورتانديك، وقبلوا أن يقدموا له هدية تقدر ب 4500ف...»(7).

وسرعان ما علم الأمير أعمر ولد المختار بهذه الاتفاقية وأعرب للوالي عن قلقه منها ومن عواقبها على العلاقات بين الطرفين. وقد أحاط روجي وزيره علما بذلك قائلا: «...إن الملك Roi ينظر إلى هذه الإجراءات باعتبارها إهانة له، وقد أعلن لي عن استعداده للتخلى عن ضرائبه العرفية الجديدة إذا ما تم إلغاء تلك التي تقدم للأمراء الآخرين. وقد قال لي: إن محمد فال سيقتل إذا لم تقضوا على تلك الضرائب، وسندخل معا في حرب»(8).

ووضع أعمر تهديده موضع التنفيذ في مارس 1822 حيث قام إبنه ابراهيم والد باغتيال ولد عمير على أبواب بورتانديك وهو يحاول صد قوافل العلك للحيلولة دون التبادل مع الانجليز.

وقد زاد هذا الاغتيال الطين بلة على مستوى الإمارة حيث شق أهل الشرغي ولد هدّي وحلفاؤهم الكثر عصا الطاعة على الأمير وانضموا لابن اعلي الكوري وأعلنوها حربا على أعمر. وآزر الفرنسيون هذا الحلف باعتراف مجلس إدارة المستعمرة بابن اعلى الكوري أميرا للترارزة ودعمه ماديا وعسكريا، حيث قرر هذا المجلس في 19 يوليو 1822 منحه 100 بيصة عينا وقيمة 100 أخرى من البنادق والرصاص والبارود. وقد دامت هذه الحرب سبع سنين وتكبد فيها الطرفان خسائر جسيمة، ولم تضع أوزارها إلا بعد مقتل ابن أعلي الكوري في دجمبر سنة 1826.

غير أن تلك الجهود لم تؤت أكلها، فلم تقوض سلطة أعمر ولد المختار المحرج بالنسبة للفرنسيين وحلفائهم من أهل والو والترارزة، ولم توقف التبادل في بورتانديك وتقض على الحضور الانجليزي على سواحل المنطقة.

والأدهى من ذلك أن تلك الصراعات والحروب قد شلت التبادل في مصب النهر وقوضت الأمن والاستقرار فيه ودشنت سياسة انتقامية على الصعيدين الاقتصادي والعسكري. وأمام تردي هذه الأوضاع أعربت بعض الأوساط الرسمية السانلويزية عن عدم جدوائية السياسة المتبعة تجاه الترارزة وضرورة التصالح مع أعمر ولد المختار، في حين تمادت بعض الأوساط الإدارية ولوبي الدور التجارية البوردلية النافذ وأصحاب المزارع الاستعمارية بوجه خاص في الدعوة إلى مزيد من تقسيم صفوف الترارزة وإلى التدخل العسكري النشيط.

وقد مثل الموقف الأول الوالي البارون روجي الذي أعرب بجلاء، منذ إبريل 1822، عن موقفه مستخلصا العبرة من التجارب الفرنسية في المنطقة وقال: «... إنها لمسألة كبرى أن نعرف ما إذا كانت سياسة {مستعمرة} السينغال تقتضي شق صفوف الترارزة أو توحيدها تحت قيادة زعيم قوي ... أميل شخصيا إلى هذا الرأي الأخير لأنه من الأفضل أن نتعامل مع زعيم واحد لديه ما

الدليل على ذلك على مستوى البيضان أنفسهم؛ فأمير البراكنه قد قضى على الأوليغارشيا في المناطق التابعة له، وعلاقاتنا معه أسهل بكثير وأكثر أطمئنانا وثقة..»(9).

وانسجاما مع هذا التصور، الذي تبناه على مايدو وزيره(10)، ركز روجي جهوده على أعمر لتسوية الخلافات معه وحمله على التخلى عن بورتانديك مقابل امتيازات جديدة. وفي هذا الإطار تدخل اتفاقيات 17 يوليو و19 أغسطس 1824، و5 يناير 1825 و4 فبراير 1826.

أما الرأي الآخر المناهض للسلام مع اعمر فيمثله صاحب نص:

"Note concernant les démêlés qui ont existé entre la colonie du Sénégal et AMAR OULDOU MOKHTAR, Roi des Maures Trarza, depuis 1819 jjusqu'en 1829"

المطالب بتأجيج الحرب ضد الترارزة عن طريق تجنيد أهل والو وأنصار ابن اعلي الكوري اعتمادا على الرشاوي والتحريض، والعمل على كسب إيدوعيش والبراكنة وتعبئتهم ضد أعمر، واعتراض قوافل الزرع التموينية، وهدم كل قري كَنار، ومعاملة القبائل الزاوية بما تعامل به القبائل الحسانية أثناء الحرب، وعدم السعي بوجه خاص - كما حصل في السابق- «إلى تحقيق السلام عن طريق تنازلات مهينة وباهظة التكاليف لا يمكن حصر عواقبها»(10).

وستتأرجح سياسة المستعمرة بين هذين الموقفين إلى غاية سبتمبر 1828 حيث ستخف حدة التوتر ويجنح الفرنسيون إلى السلم بعد غياب الحليفين المحليين الرئيسيين (ابن اعلى الكوري وملك والو يريم امبانييك المتشدد تجاه الترارزة) والخصم الأساسي في المنطقة (أعمر ولد المختار).

وتعكس اتفاقية 25 مارس 1829 ومحضر المفاوضات الصعبة التي مهدت لها هذا التوجه الجديد الذي سيقوضه، ابتداء من 1832 إعدام الفرنسيين البشع المختار بن امحمد بن اعلي الكوري، وحرب زواج محمد الحبيب من أجنبت وصية عرش والو (1833-1835) التي أعطت للصراع التروزي - الفرنسي في مصب النهر بعدا سياسيا جديدا...

هوامش المقدمة

1) راجع: ANSOM: Sénégal et Dép.I, carton 8, doss 8c, "Baron Roger au Secretaire d'Etat à la marine et aux colonies, St-Louis, le 11 Avril 1823)).

2) أبريني: المفتش العام للمزارع على مستوى مستعمرة سان لويس، ومحرر العديد من التقارير والرسائل حول الوضع في منطقة مصب النهر عموما ووضعية المنشآت الزراعية الفرنسية في والو خصوصا في نهاية ثلاثينات القرن 19. وترأس، باسم الوالي جبليه Julbelin الوفد السانلويسي في المفاوضات المضنية مع الترارزة التي سبقت إبرام اتفاقية 25 مارس 1829 ووقع محضرها الطويل (ANSOM: Sénégal et Dép. IV, doss. 16c)

3) ANSOM: Sénégggal I, doss. 6a, pièce n°150 du 5 juin 1819

4) نسبة لمحمد ببانه بن اعلى شنظوره جد الفرع الثالث من أبنا ، اعلي شنظوره الذين لم يتقلد منه أحد الإمارة وإن كان ذا نفوذ كبير فيها.

5) ANS: 9G1/14 Mai 1821

6) نفس المصدر: رسالة الوالي إلى وزير البحرية والمستعمرات المؤرخة في 4 من ابريل 1822.

7) راجع رسالة 17 مايو 1822 المحال إليها أعلاه.

8) ذلكم ما يظهر من ملاحظاته الموجودة على هامش الفقرة السابقة من رسالة الوالي، حيث يقول: "Les relations de conciliations sont les meilleurs"

9) راجع الفقرة الأخيرة من نص برينى الوالى.

ملاحظات بشأن النزاعات التي جرت بين مستعمرة السينغال واعمر ولد المختار ملك الترارزة، من 1819 إلى 1829(10)

انقضت أربع سنوات تقريبا منذ أن أصبحت {مملكة} والو، المنهكة بالحروب الأهلية التي قضت على الكثير من سكانها، مجبرة، لأول مرة، على دفع مغارم لبيضان الترارزة(11) شبيهة بتلك التي سبق لهؤلاء البيضان أصلا أن دفعوا لابراك (12) للحصول على بعض الأراضي على الضفة اليمنى .

وعندما استعاد الفرنسيون المستعمرة(13)، كان عليهم أن يقيموا مزارع في هذا الجزء من افريقيا. غير أن الزمن قد كرس تفوق البيضان على الزنوج الذين أصبحوا، إما لوهن حقيقي أو سياسة منهم جراء ما امتازوا به من اللامبالاة، أتباعا خاضعين تمام الخضوع. فملك والو نفسه كان يدفع لملك الترارزة ضريبة سنوية مقدارها مائة ثور قبل هذا الأخير أن يهدي لابراك عوضا عنها فرسا بنفس القيمة. لكن هذه الهدية السنوية المتبادلة، التي كانت على مايبدو ثمرة اتفاق ودّي وضمانة له أصلا، سرعان ما تحولت إلى ضريبة إلزامية بالنسبة للزنوج وغير ملزمة البتة بالنسبة للبيضان. وكانت قرى معدودة من والو، من بينها انداياس، هي وحدها المعفية من تلك الضرائب.

{مايو 1819}(14). قام الكولونيل اشمالتز Schmaltz(15) في 1819، وكان ينوي أصلا إقامة المستعمرة الزراعية في منطقة تورو، بتغيير مشروعه والدخول في مفاوضات بهذا الخصوص مع ابراك وزعماء والو، بعد فشل مفاوضاته مع الإمام ببكر(16) رئيس إقليم ديمار(17). وعلى الرغم من أن أهل والو خاضعون منذ أمد بعيد للترارزة، فقد انتهزوا بتلهف الفرصة المتاحة للتخلص من النير الذي يرزحون تحته مقابل منحهم ضريبة عرفية سنوية تبلغ 8000 فرنك وتخلوا للفرنسيين عن كل أراضيهم غير المزروعة وحق إقامة منشآت في بلادهم، وكرست اتفاقية موقعة في 8 من مايو 1819 تلك الصفقة (18).

وقبل عودة السيد [العقيد] اشمالتز(19) إلى السينغال، ألحق قوم اعمر [ولد] المختار، ملك الترارزة، بعض الأضرار بسكان سان لويس وطلب منهم التعويض عن تلك الأضرار، لكنهم ردوا - كما هي عادة البيضان- على الشكاوي التي وجهت إليهم بأثارة شكاوي أخرى. وسرعان ما أخذت المفاوضات منعرجا حادا، ولم يعد طابع الأشياء سلميا على الاطلاق في عهد الاتفاقية المبرمة مع أهل والو (20).

وقد دعي أعمر لزيارة السيد اشمالتز، ولم يحضر. وفي نفس الوقت تم شتم أوربي من قبل بعض البيضان؛ وتباطأ أعمر أو رفض إنصافه منهم، وتفاقمت الخلافات شيئا فشيئا ولم يبذل أي جهد لتفادي القطيعة أو إبعاد أمدها لوجود اعتقاد خاطئ

كبريائه والنيل- في نفس الوقت - من مصالحه ومصالح الأمراء من أمته.

وقد فكر أعمر منذ ذلك الوقت في الانتقام من الأوربيين وبالذات من أهل والو الخارجين على سلطته بطريقة لم تكن متوقعة بالمرة. فقد تحالف مع الإمام ببكر الغاضب جدا من السيّد اشمالتز، وأفلحا معا في جر بيضان البراكنة وأهل فوته إلى التحالف معهما.

{أغسطس 1819}. كانت أول معكة {في هذه الحرب} هي المعركة التي أصيب فيها ابراك برصاصة وقتل أو جرح كل زعماء والو الآخرين تقريبا. وسرعان ما دمرت مختلف قرى والو باستثناء ثلاث أو أربع قرى مجاورة {لسان لويس} حمتها سفننا الحربية أو بطاريات مدفعيتنا لجأ إليها بعض سكان المملكة. أما الباقون فقد قتلوا، أوأسروا واسترقوا، أو انسحبوا إلى أراضي كايور.

{يونيو 1821}. لم تجر بعد هذه الحملة النهبية على والو من قبل الحلفاء هجمات حربية بارزة تستحق الذكر. فقد جاء السيّد لكوبي Le Coupé (21) لاستلام زمام الأمور بالمستعمرة في اغسطس 1820، وحدثت منذ ذلك الوقت شبه هدنة عسكرية. وسرعان ما تحقق السلام مع البراكنة وأعيد فتح محطتهم؛ بل وجرى تبادل العلك بصفة غير مشروعة (en interlope) مع الترارزة دون اعتراض من قبل أعمر. وتوجه هذا الأخير، في النهاية، إلى سان لويس في مايو 1821 وأبرم مع السيّد لكوبي في 7 من يونيو 1821 اتفاقية تنص بنودها الأساسية على:

1 -يعترف قائد {مستعمرة} السينغال بحقوق الترارزة على والو، ويمنحهم مقابل ذلك الحق ضريبة عرفية جديدة.

2- يتنازل أعمر، مقابل تلك الضريبة، لقائد السينغال عن كل أراضي الضفتين {الضرورية لإقامة المستعمرة}، ويضمن له حيازتها وحمايتها من الجميع.

3- امتناع البيضان مستقبلا من الإقدام على غزو أو نهب أو الحاق ضرر أو إهانات بأرض والو، اعتبارا لكون تلك المنطقة أصبحت تابعة للسينغال.

4- سيكون قائد السينغال وسيط السلام بين البيضان وأهل والو الذين يجب عليهم الاستمرار في دفع المغارم المترتبة للبيضان عليهم، كما كان الحال من قبل.

وقد نفذت كل تلك الالتزامات حرفيا من جانبنا (فضلا عن تقديم هدية ضخمة جرت العادة بتقديمها عند التوقيع على اتفاقة جديدة) وتم إبرام الصلح بين ابراك وأعمر في دكّانه.

وهكذا فقد أفلح هذا الأخير تماما في مسعاه، إذ عاقب ابراك ونال الاعتراف الواضح والصريح بحقوقه على والو ومنح ضريبة عرفية عوضا عن حقوقه، وما انفك يتمتع بتلك الحقوق لأن أمراء الترارزة مستمرون في جباية المغارم التي يدعون ملكيتها.

بشان ملكية والو، وسمحت باعادة فتح كافة المحطات {التجارية على النهر}. وعليه فمن الخطأ القول إن أهل والو وأنصارهم يعتقدون أن سبب الحرب الحالية هو إقامة المنشآت الزراعية {الفرنسية}، كما تروج لذلك بعض الأوساط. فلنرى الأسباب الحقيقية لتلك الحرب.

عند ما كنا نسعى إلى تحقيق السلام مع أعمر، كان يوجد من بين أقربائه أمير شاب يدعى محمد فال ولد عمير(22) استطاع بفضل ثرائه ونبله وإقدامه أن يفوق كل الأمراء الآخرين، وأن ينال خطوة وتأثيرا غير عاديين في الترارزة؛ وعليه فقد سعينا إلى كسب ولائه، ويقال إنه هو الذي أقنع أو أجبر اعمر على التوجه إلى سان لويس. ولتحقيق ذلك الهدف، تعهدنا لمحمد فال - دون علم من أعمر - بدفع ضريبة عرفية كبيرة جدا مماثلة لضريبة الملك،، وأبرمت اتفاقية خاصة بهذا الشأن(23).

لقد فتح الانجليز لأول مرة محطة بورتانديك في 1821(24)، وألحقت تلك المحطة ضررا بالغا بمحطات النهر، لا بكميات العلك التي انتزعت منها فحسب وإنما بسبب ارتفاع الأسعار الناجم عن التنافس كذلك. وأعرب التجار عن مدى ضرورة القضاء على تلك المحطة، وقاموا بعدة محاولات فاشلة بهذا الخصوص تجاه أعمر، ثم فكروا في أن يستخدموا لذلك الغرض محمد فال الآنف الذكر الذي أكد للفرنسيين قبل مغادرته سان لويس ولاءه اللامحدود لهم. وقد أحطناه علما بالمشاريع التي نود استخدامه فيها ووافق عليها مقابل هدية قدمت له على الفور والتعهد بتقديم هدية أكبر في حالة نجاحه في طرد السفن الانجليزية من بورتانديك أو احتجاز قوافل العلك المتجهة إليها.

{مارس 1822}. وسرعان ما علم أعمر بتلك الاتفاقة، ودفعه التذمر من الخطوة غير العادية التي أصبح محمدفال يتمتع بها بعد تحقيق السلام مع السينغال والخوف من تأثير نفوذه المتزايد يوما بعد يوم؛ إلى أن يقرر قتله، ونفذ ذلك القرار بالفعل إبن أعمر الأكبر عند بورتانديك(25).

وقام عمير(26)، والد محمد فال، على الفور - وهو أقوى وأغنى زعيم بعد الملك - باستنهاض معظم القبائل واستدعى محمد {ولد اعلي} الكوري، ابن سلف أعمر(27)، وأعترف به ملكا على المحطات {النهرية} وانضم إليه أهل والو walo المحالفين له منذ أمد بعيد، وقام الجميع بطرد أعمر إلى أعماق الصحراء.

كان ذلكم المصدر الوحيد للانقسام السائد بين صفوف الترارزة وللحرب التي يخوضها أهل والو حتى اليوم ضد أعمر {ولد} المختار.

{إبريل 1822}. وقد نصت مادة من اتفاقية موقعة في {15 نوفمبر 1819} مع أمير الترارزة اعلي الكوري (28) حرفيا على أنه لن يفتح أية محطة في بورتانديك. والتزم أعمر بموجب المادة 13 من الاتفاقيات الجديدة مع لكوبي Le Coupé بالتمسك بتلك الاتفاقية. بيد أنه أقدم بنفسه، بعد ذلك التعهد بقليل، على فتح تجارة العلك للانجليز(29). وعندها رأى {الفرنسيون} أن من حقهم وقف

خلاله، من جديد، عن رفضه القضاء على بورتانديك، وقد تلا ذلك فتور في العلاقات بين الطرفين. وبعد هذا اللقاء بأيام معدودة حصل الانشقاق داخل صفوف البيضان(31) وطرد أعمر إلى داخل البلاد، ولم يكن بالامكان إيجاد تقارب معه.

{مايو 1822}. وقد استمرت الحرب، منذ الفترة السالفة الذكر وحتى أواخر 1824، بين أعمر وفوته مرحليا من جهة، ووالو ومحمد {ولد اعلي} الكوري من جهة أخرى دون مشاركة من مستعمرة السينغال إلا ما كان من تقديم تجار سان لويس لبعض الهدايا لهذا الأخير لمساعدته في جهوده للقضاء على بورتانديك، ودون أن تتوقف تجارة العلك أو يقوم أنصار أعمر باعتداءات جدية ضدنا.

{19 أغسطس 1824}. وعلى النقيض من ذلك، تقدم هذا الزعيم، بصفة غير مباشرة، أكثر من مرة إلى قائد السينغال باقتراحات {لتسوية الخلافات}. فقد تعهد بطرد الانجليز إذا كان بوسعه الاحتفاظ بمحطته على النهر. وتمكن بواسطته أمير من أنصاره في سان لويس {أوجميني}(32) من إبرام اتفاقية بين مفوضين كاملي السلطة التقوا على متن سفينة قرب مستنقع Marigot مارينكوينه (33). ولم يصادق أعمر على هذه الاتفاقية، إلا أنه لو صودق عليها لما أفضت إلى نتيجة لأننا التزمنا بحمل أهل والو على القبول بالسلام، ولم نكن قادرين على الوفاء بهذا التعهد.

{25 يناير 1825}. تم التوقيع بعد ذلك بقليل على اتفاقية أخرى، أعدت بنفس المنطق ولم يكن لها أيضا أثر يذكر، مع محمد شين Hamet Chin(34) وابراهيم، رئيس لبيدات، باسم أعمر. إلا أنه يبدو أن هذين البيضانيين لم يكونا مخولين أية صلاحيات ولم يقترحا عقد هذا الاتفاق إلا بهدف الحصول على هدية، وتحليا بقدر كبير من المرونة جعلهما يحصلان على نتيجة. ويقال إنهما تمكنا من إقناع {مفاوضيهما} بقدرتهما على حمل أعمر على القبول بالمقترحات التي قبلا بها شريطة منحهما إمكانات {مادية} لاستمالة بعض القبائل، وأنهما حصلا كذلك على قيمة كبيرة لهذا الغرض. ومهما يكن من أمر فإن محمد شين Hamet Chin ورئيس لبيدات Boidads(35) ذهبا إلى بلاد كايور وعملا جاهدين على استنهاضه ضد والو، مما يظهر عدم رغبتهما في السلام، وقام بعض رفقائهما بسرقة جملين يملكهما أوربي.

{نوفمبر 1825}. قام البيضان منذ بعض الوقت بسرقات على أهل سان لويس، على الرغم مما جرى من مباحثات واتصالات. وتزايدت شيئا فشيئا تلك الاعتداءات حتى أقدم أولاد آكشار(36) في وضح النهار على انتزاع حوالي 300 ثور من زراع لام صار Lamsar {الفرنسيين}. وقد استنكر أعمر كل أشكال النهب هذه ووعد بإعادة المنهوب.

وقام السيد روجي Roger في ديسمبر 1825 بإيفاد السيدين جرار دين Gerardin وبارتريي Partarrier إلى أعمر للتعجيل بنتائج تلك الوعود

اعمر وثلاثة من كبار الامراء المناصرين له (/ 3) إلى سان لويس.
{6 فبراير 1826}. كان هؤلاء المبعوثون يتمعون بالصلاحيات الضرورية لتحقيق السلام، كما تم التوصل بسرعة إلى تسويات أولية.

فقد التزم البيضان ب:
1 - القضاء على محطة بورتانديك إذا كان بالإمكان أن يحقق لهم السلام مع والو.
2- الامتناع عن إرسال العلك إلى هذه المحطة طيلة الفترة التي ستستغرقها المفاوضات.
3- إعادة الـ 300 ثور المستحقة على ابراك {والو} التي قبل والي السينغال منذ أمد بعيد أن يتولى قضاءها.
ولضمان {تنفيذ} الشروط المبينة أعلاه، بقي ثلاثة أمراء رهائن {في سان لويس}، ومن جانبه قبل السيد روجي - تبعا لعادة البلاد المؤسفة- أن يسدد نصف متأخرات الضرائب العرفية، وسددها فعلا دفعة واحدة.
{مارس 1826}. ويبدو البيضان حسنو النية. وكانت النقطة الصعبة التي تجب معالجتها هي السلام مع والو. فقد أرسلنا إليهم رجلا منهم يستوطن سان لويس منذ وقت طويل واحتفظ بنفوذ كبير على بوكانغ Boucaneg (38). وأعرب السيد روجى عن نواياه للعديد من الأشخاص القاطنين عادة بوالو؛ وحدد لهم النهج الذي ينبغي اتباعه، وعندما أيقن أن الأمور قد وصلت إلى مرحلة متقدمة جاء بنفسه إلى النهر. وبعد أيام عديدة من المحادثات، تراوحت فيها مواقف أهل والو طويلا بين القبول بهدية تبلغ حوالي 120 بيصة من النيلة، توزع على كبار الرؤساء في حالة تحقيق السلام، والتمسك بسياستهم القاضية بمساندة حليفهم محمد {بن اعلي} الكوري بدل حرمانه من محطاته وبالتالي من جزء من مغارمه لإثراء عدوهم الدائم أعمر؛ أوقفوا نهائيا أية مباحثات بهذا الخصوص ورفضوا الدخول في مفاوضات مع المبعوثين البيضان. وسرعان ما عاد هؤلاء إلى ذويهم سوى واحدا احتفظ به حتى تعاد ثيران لام صار. وبعد ذلك بوقت يسير، تم ذلك التعويض بشكل ناقص جدا بواسطة خيول ورقيق، وتم إطلاق سراح آخر الرهائن.
{دجنبر1826}. انقضت سنة 1826 بكاملها دون حدوث حرب نشطة بين البيضان. بيد أن آخر حملة شهدتها تلك السنة كانت وبالا بالنسبة لأهل والو. فقد قتل امحمد {بن اعلي} الكوري في هجوم غير مهم قام به ضد حي صغير من أولاد آكشار. وقامت القبائل {المساندة له} على الفور بمبايعة ابنه المختار(39) خلفا له واعترف به أهل والو علنا. ولا يستطيع هذا الشاب الحدث الذي لم يتجاوز16 من

مستوي ذويه بتلك السلطة وذلك التقدير الكبير الذي نالهما امحمد (بن اعلي) الكوري بعد جهود مضنية ومثابرة لا تعرف الكلل.

{8أو10 مارس 1827}. ورغم كل ما حدث لم تنقطع الصلات بين السينغال واعمر. فقد ظل هذا الأخير يعرب عن رغبته في أن يصبح في سلام تام مع الوالي. وعلى الرغم من تلك الصلات وهذه الرغبة المعبر عنها،، فقد تم مجددا نهب ثيران في لام صام. وقام عمال المزارع {الاستعمارية} بملاحقة السراق وتمكنوا من قتل اثنين من تغرجنت Takaraguintes(40). ويدعى أفراد هذه القبيلة أنه لم يكن في نيتهم الاستيلاء على مواشي أهل السينغال، إلا أنهم لم يعيدوا الثيران المنهوبة وطالبوا بدية زميليهما المقتولين.

{ابريل، مايو ويونيو 1827}. تم القيام، مجددا، في هذه الأثناء ببعض المحاولات غير المباشرة للقضاء على بورتانديك؛ غير أنها - كسابقاتها- لم تفض إلى أية نتيجة. وربما يكون من الخطأ أن نأمل الحصول على موافقة أعمر على ذلك مالم يحصل على محطة على النهر تعوض - بما تمده به من ضرائب عرفية- الفوائد التي تدرها عليه المحطة الانجليزية (41). ومع ذلك فقد جرى في هذه الفترة، وهي فترة مغادرة السيِّد روجي لإدارة المستعمرة، العديد من المحادثات غير المجدية.

{اغسطس 1827}. اقترب أعمر وجيشه من النهر في نهاية يوليو، وعسكر على ضفافه أمام فاف Faff مابين 1و2 أغسطس. وأجرى أمير البيضان، بواسطة ابنه محمد الحبيب (42)، اتصلالات مع السيِّد بلكرين Pellegrin(43) وآلين Alin(44) المكلفين - على مايبدو- من قبل السيِّد جربيدون gerbidon (45) بالاستماع إلى مقترحاته. غير أن {محمد الحبيب} رفض أي نوع من التفاوض معهما عندما علم أنهما غير مخولين صلاحيات إبرام تسوية نهائية.

وفضلا عن ذلك، قام أهل والو بجمع قواهم البالغة حوالي 1000 رجل وخيموا على الضفة اليسرى معربين عن عزمهم على اجتياز النهر. وانسحب البيضان، الذين بدأت المواد الغذائية تنقصهم، وأرهقهم تهاطل أمطار قوية طارئة، وغير الواثقين - ربما- من قدرتهم على الصمود في وجه أهل والو؛ انسحبوا في 4و5 {أغسطس}.

وعند هذا الحد انتهت الحملة وتوقفت معها المباحثات. بيد أن أعمر أقسم على أن ينال المحطة {النهرية} أو يموت، لكنه يفضل - في الواقع- إيجاد تسوية بالطرق الودية.

ولم تتبع قبيلتا تغرجنت وأولاد آكَشار، أو أجزاء من هاتين القبيلتين، أعمر في انسحابه. فقد تمركزتا في القرى المجاورة للبحر وشنتا من هناك حملات ضد مزارع أهل سان لويس.

ففي ما بين 24 إلى 31 أغسطس 1827، انتزع فرسان حيوانات مزارع لولييه Lollieux وآلين Alin ومواشي لأهل كَت اندر guet-Ndar(46) يبلغ عددها حوالي 400 رأس. وقد رفعت احتجاجات وشكاوي إلى أعمر الذي زعم

{12 نوفمبر 1827}. وسرعان ما تم القيام باعتداءات أشد خطورة حيث هوجمت مزرعة فستال L'habitation la Vestale، واغتيل السير لوليه le Sr. Lollieux وثلاثة من عماله واحرقت المنشأة ونهبت. وجرى الشيء نفسه بعد ذلك بعدة أيام لمزرعة بواروك Bouwarouk التي أحرقت ونهبت وجرح صاحبها (السير موجيه Mougin) جروحا خطيرة وكذا العديد من ذويه.

{17 يناير 1827 - ابريل 1828}. كما قتل في الأيام الأولى من [هذه] السنة عامل من مزرعة مارام توري Maramtouret في لام صار، وأطلقت النيران مؤخرا على العديد من سفننا المبحرة في النهر. وبعد الاطلاع على الأحداث المتقدمة، فإن من حقنا أن نتساءل: هل نحن في حرب أم في سلم مع أعمر؟

نحن في حرب:

1 - لأن أولاد آكشار وتغرجنت المعترفين بسلطة أعمر، مافتئوا منذ عدة سنوات يقترفون سرقة ممتلكات سكان السينغال.

2- لأن منشأتين أوربيتين قد هدمتا من قبل نفس المعنيين.

3- لأن أوربيين وستة زنوج من السينغال قد تم إعدامهم علنا من قبل أناس تابعين لأعمر.

4- لأنه لم يقدم أي تعويض عن كل تلك السرقات والاغتيالات باستثناء التعويض الجزئي عن العملية الأولى ضد قرية لام صار.

وبوسعنا أن لا نعتبر أننا في حرب {مع أعمر}:

1 - لأن سفننا، وإن كانت قد تعرضت لإطلاق النار، فإنها لم تهاجم قط بشكل جدي مقارنة مع ماكان بالإمكان أن يقع لو رغب أعمر في ذلك.

2- لأنه، فيما يبدو، لم يعترض إطلاقا على توجه العلك إلى النهر.

3- لأنه ما فتئ يعرب عن رغبته في السلام معنا ومع أهل والو.

4- لأنه يؤكد، من ناحية أخرى، على أن اعتداءات أناس ضد السينغال قد اقترفت على الدوام رغما منه ومن تحذيراته.

ولنقارن هذه الحجج لنرى أن أولائك الذين يساندون الشطر الأول من السؤال محقون وحججهم محسوسة، وأن حجج الآخرين ضعيفة.

فنحن إذن في حرب حقيقية مع أعمر. وفي مثل هذه الحال ما الذي ينبغي القيام به؟

إن هذا السؤال يطرح نفسه بنفسه، وهو أصعب الأسئلة وأكثرها استعصاء على الإجابة. فالصحراء بالنسبة للبيضان قلعة حصينة لا يستطيع الأوربيون مهما جمتها، ولا نستطيع التفكير في خوض حرب نشطة ضدهم بانفسنا. ولا نستطيع أن نوظف {لهذا الغرض} غير الأعوان، وأولائك الذين يترتب علينا أن نستخدمهم كأعوان هم أفراد قبيلة المختار(47) ولاسيما اهل والو، الأعداء الطبيعيين لأعمر. وإذا ما

ومنحناهم بعض المكافآت؛ فمن المحتمل أن تتم بسرعة معاقبة القبيلتين اللتين الحقتا بنا أكبر الضرر ونصبح، تقريبا، في الموقف الذي كان يترتب علينا أن نكون فيه قبل الاستماع إلى المقترحات التي قد يتقدم بها أعمر مجددا.

وستكون تلك المقترحات، دونما شك، هي نفسها التي تقدم بها في فبراير 1826 (48). فهل يتعين علينا القبول بها؟ اعتقد أن الجواب بالنفي إذا كان ذلك سيؤدي إلى خلافات بيننا مع أهل والو أو إلى حرمان المختار من المحطة الموجودة لديه الآن.

إن التجارب السابقة، وسوء نية أعمر المعروفة تجاهنا؛ تجعلنا نتصور تماما ماسيحدث لو أصبح سيِّد المحطات النهرية. فالمختار المحروم من وسائل لإغراء القبائل، سرعان ما يجدها تجتاز كلها إلى الضفة اليمنى وتنضوي تحت لواء منافسه الماكر. ولهذا السبب سيجد أهل والو - من جانبهم- على الفور أنفسهم أضعف من البيضان ولن يعود بوسعهم، بكل تأكيد، منعهم من التمركز على مقربة من النهر. وما المصير الذي ستؤول إليه، وقتها، منشآتنا الزراعية التي تنعم، في الوقت الحاضر، بأمن تام لأنها تحميها من الخلف مخيمات تشغل كل السهل الممتد بين البحيرة وفاف Faff(49)؟ لكنه عندما يتم إخلاء هذا الخط {الدفاعي}، فستكون {تلك المنشآت} هدفا لهجمات القبائل المتمركزة على الضفة اليمنى التي لا يلزمها أكثر من ساعتين للقيام بهجوم خاطف على مزارعنا والابتعاد بنفسها عن الخطر. ولن يعود العمال آمنين، وبالتالي لن تكون هناك أعمال منتجة.

ومن جهة أخرى، فما الذي سيحدث إذا تحققت كل تلك التوقعات؟ إن أعمر عندما يتمكن من جمع كلمة كل الترارزة من حوله، وهو ماسيحدث لامحالة، سيكون عندها في وضع يمكنه من النضال ضد السينغال ووالو بصفة أفضل من ذي قبل، ولن تنقضي عليه سنتان حتى يعيد فتح محطة بورتانديك. فسيجد من الأفيد له أن يتلقى من الطرفين، وبتلك الوسيلة سيكون من السهل عليه إحكام قبضته على قبائله بحيث لن يتردد فيما تزين له نفسه من إلغاء الاتفاقيات. وستتلو ذلك عما قريب الحرب مع السينغال، كما يتردد على الشفاه، ويفقد {أعمر} ضرائبه العرفية. لكن ماذا يهم أعمر في الموضوع؟ ألم ير على الدوام، منذ أن أصبح ملكا، أنه من الأفضل له الإكثار من خوض الحرب للإكثار من تحقيق السلام؟ أولا يكسب منه باستمرار بضع مائات من بيصات النيلة، لأن كل اتفاقية تدر عليه عادة هدية ذات قيمة كبيرة وزيادة في حجم ضرائبة العرفية وضرائب أمرائه فضلا عن متأخراته من الضرائب؟

وهكذا تتجلى مع الزمن مساوئ سياستنا. فالتجارة بحاجة إلى السلام كما يقال. واعتقدنا على الدوام أنه يترتب علينا تحقيقه بأي ثمن كان؛ ويعرضنا هذا النوع من قلة الصرامة في كل حين- فضلا عن ما خلفه عنا من نظرة احتقارية لدى الأهالي- إلى تجدد تلك الأعمال العدوانية التي يكثر الحديث عن أضرارها ويرغب في تفاديها أشد الرغبة.

هيمنة اعمر على المحطات النهرية وعلى كل بيضان التهارزة، فهل بوسعنا ان نامل تنفيذ هذا المشروع دون مقاومة؟ إن أهل والو يرفضون الحديث عن أي تحالف مع أعمر: فهل سنجبرهم بالقوة على النزول عند رغبتنا؟ لا شك أننا سنفلح في ذلك، إلا أنه لن تعود هنالك {قوة} توازي قوة البيضان، وبالتالي لن تكون هناك زراعات بل لن يعود هناك أمن بالنسبة للملاحة {النهرية} العتيقة وتجارة السينغال الداخلية القديمة. بيد أنه من المستحب، لتفادي المساوئ الخطيرة الآنفة الذكر، أن نتوصل مع أعمر إلى تصالح يكون من نتائجه المباشرة القضاء على بورتانديك، وأن نعرب عن كل الأفكار التي من شأنها أن توصلنا إلى هذا الهدف. وسبق لمحرر هذه الملاحظات أن أعرب في تقرير آخر عن الفكرة القائلة بامكانية إعطاء محطة نهرية لأعمر دون أن تنتزع من المختار {ولد اعلى الكوري} المحطة الموجودة لديه حاليا، ولا علم لي بأي اعتراض جدي على هذا المشروع مع أني لا أنفي البتة إمكانية وجوده. وإنني لأعرض مجددا هذه الفكرة ليتدبرها من هم أكثر مني تبصرا ودراية بالموضوع.

ونعتقد أخيرا، أنه إذا كان أعمر لايريد إطلاقا التنازل عن أي شيء من مطامحه، فإنه لم يبق إلا أن نفرض بالقوة ماكان علينا أن نحصل عليه بالتفاوض. وعندما نصل إلى هذا المستوى من الحزم، يجب أن نعبئ له- وبكل الوسائل- أهل والو وأنصار المختار من البيضان، ونحرص على إيجاد سرية خيالة جيدة بالسينغال لتعزيزهم بها، وأن نعبأ أعداء آخرين ضد {أعمر}، إذا أمكن، مثل إيدوعيش(50) والبراكنة(51)، ونحشد أكبر عدد من السفن الحربية على النهر لا عتراض قوافل الزرع، كما يجب أن نهدم كل قرى كَنار(52)، وأن نعامل القبائل الزاوية، كغيرها من القبائل {الحسانية}، بلاهوادة في هذه الحرب الجديدة، وأن لا نسعى بوجه خاص -كما حصل في السابق- إلى تحقيق السلام عن طريق تنازلات مهينة وباهظة التكاليف لايمكن حصر عواقبها.

سان لويس في 10 مايو 1828
الإمضاء/ أ. بريني

نسخة طبق الأصل
الوالي: جيلين Jubelin

10) راجع: ANSOM: Sénegal et dép I,cart 16,doss. 16E ;

11) التراريزة: نسبة لتروز بن هداج بن عمران بن عثمان بن مغفر بن أودي بن حسان. وتتألف هذه المجموعة، التي بسطت نفوذها العسكري والسياسي على منطقة الجنوب الغربي الموريتاني من القرن 17 وحتى القرن20، أساسا من الأفخاذ الرئيسية التالي:

أولاد احمد بن دامان (وفيهم استقرت السلطة الأميرية منذ القرن17)، وأولاد دامان، وأولاد البوعليه، ولعلب وعزونه. وتنضاف إلى هذه المجموعة المتجانسة سلاليا، مجموعات أخرى عن طرق الحلافة والموالاة.

وقد أصبح الجزء الغربي من منطقة القبلة الذي تشغله إمارة التراريزة منذ 1630 (راجع: ولد السعد: «الإمارات والمجال الأميري البيضاني خلال القرنين18و19: التراريزة نموذجا» حوليات 1990/2) يحمل كمرادف له اسم التراريزة.

وخلافا لماذهب إليه صاحب نص «ملاحظات بشأن النزاعات...»، فإن صغارم التراريزة على والو لا تعود إلى عشرينات القرن19، وإنما تعود - على الأقل- إلى فترة الحرب الأهلية التي اجتاحت تلك المملكة الولفية مابين 1766-1786 والتي كرست هيمنة التراريزة الفعلية على ذلك البلد (راجع: باري: مملكة والو، كارتلا 1984 ص:180وما بعدها). غير أن برينى Brunet سيتناقض مع نفسه عندما يؤكد في فقرته الثانية «أن الزمن كان قد كرس تفوق البيضان على الزنوج» عند استعادة الفرنسيين لسان لويس في 1817. ألم يقنع الكولونيل شمالتز ملك والو أعمر فاتيم امبرصو بأن «الاتفاقية التي تخلى لتوه بموجبها عن مملكته لملك فرنسا (اتفاقية 8 مايو 1819) ستحرره تماما من ذلك المغرم البالغ قيمة 4000 فرنك».

(J. Morenas' Seconde petition contre la traite des Noirs qui se fait au Sénégal, Paris 1821)

12) إبراك: لقب ملوك والو منذ عهد اندديان انجاي في القرن 12م الذي دشن «نظام الملكية الانتخابية؟» في هذه المملكة (باري:م س.، ص:72-78).

13) كان الانجليز قد استولوا سنة 1809 على المركز الفرنسي في سان لويس بالسينغال وتوابعه أثناء الحروب النابليونية، ولم يتم استرجاعه من قبل الفرنسيين إلا في 27 يناير 1817 طبقا لاتفاقيتي اكس لاشابيل (9يونيو1815) وباريس (20 دجمبر 1815) اللتان ألزمتا الإنجليز بإعادته للفرنسيين.

14) تجدر الإشارة إلى أننا عمدنا في تحقيقنا لهذا النص إلى وضع بعض التواريخ المثبتة بين معقوفتين في بداية الفقرات. وتمثل تلك التواريخ في الواقع حواشي على النص الأصلي مثبتة أصلا في الهامش أو بين الفقرات غالبا.

15) جليان شمالتز Julien Schmaltz (1769-1827): كان مهندس جسور وطرقات قبل أن يصبح مقدما سنة 1808. وأسر أثناء الحرب سنة 1811 وعاد إلى فرنسا في 1813 حيث عين من قبل الملك لواء قائدا لجزيرة اكوادلوب في 1814. وعاد إلى فرنسا سنة 1815 إثر نفي السلطات البونابرتية بتلك الجزيرة له حيث أصبح، في بداية 1816، رئيس مكتب بإدارة المستعمرات بعد إعارته لوزارة البحرية. وعين في 25 ابريل 1816 واليا للسينغال وتوابعها. وكان أحد الناجين القلائل من غرق سفينة La Méduse في 2 من يوليو 1816 على سواحل .كين.

وشرع شمالتز، فور استعادته سان لويس في يناير 1817، في صياغة مشروعه للمستعمرة الزراعية في السينغال، طبقا للتعليمات الموجودة لديه، الهادفة إلى ملاءمة الحضور الفرنسي بالمنطقة مع المتطلبات الجديدة المتولدة عن حظر تجارة الرقيق عبر المحيط وخسارة فرنسا لإعانتها المالية في حق الأنتيل.

بالسيطرة التي فرضها البرازرة تدريجيا على مدة الإمارة الوالية منذ حرب شريبة (الحرب [illegible] والتي يقدم لنا هذا النص صورة جزئية عنها.

وعند ما عجز شمالتز عن التحكم في المصاعب المثارة من كل جانب، ولاسيما من طرف البرازرة وفوته، استدعي إلى فرنسا في 3من يوليو 1820 وعين مكانه الرائد البحري لكوبي Le Coupé .

16) الإمام بوبكر: هو الزعيم الزمني والروحي لمنطقة ديار المتوفى سنة 1851. وقد عرف بسعة معارفه الإسلامية التي نالها في الأساس من محضرة «بُيرْ» الشهيرة في كابور.

17) ديار: هو الإقليم الغربي من فوتا تورو الممتد على ضفتي النهر من حدود دكّانه الشرقية غربا إلى مستنقع Marigot دُوَى Doué شرقا. وتعتبر «ديلمات» و«تيلي- بوبكر» أهم مراكزه الحضرية. وترجع التقاليد المحلية اشتقاق تسمية هذا الإقليم إلى أصل مشرقي فتجعل من «ديار» و«ديالمات» مجرد تحريف لاسم «دمشق» (راجع: إيف سان مارتن: السينغال في ظل الامبراطورية الثانية (بالفرنسية)، كارتيلا 1989، ص:78).

18) يتعلق الأمر باتفاقية 8 مايو 1819 الموقعة من قبل أعمر فاتيم امبورسو (1812-1821) وكبار زعماء مملكة والو لإقامة المستعمرة الزراعية في بلادهم، بعد يومين من المباحثات بين الوالي شمالتز والبنك اديوربل براهم كورا، مقابل ضريبة عرفية سنوية جديدة ومغربة قدرها 10.358,64فرنك (لم تكن تمثل سوى 1.357,06 فرنك) وتعهد شمالتز بحمايتهم من البرازرة (راجع: ANS 1362).

19) يشير الكاتب إلى عودة شمالتز من باريس في 13 مارس 1819، بعد استدعائه للتشاور بشأن مشروع الاستعمار الزراعي.

20) كانت تلكم أولى تجليات ردة فعل البرازرة بقيادة أعمر ولد المختار ضد اتفاقيتي 1819 مع والو وامحمد بن اعلي الكوري (وقعتا على التوالي في 8مايو و15نوفمبر)، المسيئتان إلى البرازرة والمضرتان بمصالحهم. وقد تم الإعلان عن ردة فعل البرازرة تلك منذ يوليو1819 ووضعت قيد التنفيذ في 21 سبتمبر 1819 بالهجوم على قرية انتياكار NTiagar حيث كان يوجد الملك ومعظم وجهاء بلده.

21) الكوبي (جان باست Jean Baptice): رائد بحري ووالي السينغال بعد الكولنيل شمالتز من 3 يوليو 1820 إلى 26 يوليو1821. وقد وقع في 7 من يونيو 1821 اتفاقية السلام مع البرازرة التي أنهت حرب الاستعمار الزراعي الأولى.

22) يتعلق الأمر باتفاقية 7يونيو 1821 التي أبرمت بفضل وساطة تجار سان لويس ولاسيما المولد السانلويسي ابلكّريه Pellegrin الذي يرتبط بعلاقات حسنة مع البرازرة، وبالذات مع محمد فال ولد عمير النافذ وقتها على مستوى قومه ووقعت معه في نفس اليوم اتفاقية أخرى (سرية هذه المرة).

23) هو محمد فال بن عمير بن سيدي المختار بن الشرغي بن هدي بن احمد بن دامان. ويتمتع فرع أهل سيدي المختار ولد الشرغي بنفوذ كبير على مستوى إمارة البرازرة. ومملكة كابور الولفية منذ أواسط القرن18 (راجع ولد الشيخ: «"قائدية" بدون "قائد"»، الوسط رقم1/1987 ص:17 وما بعدها). وقد اغتيل محمدفال، مع ثلاثة من مرافقيه، من قبل ابراهيم والد الإبن الأكبر للأمير أعمر ولد المختار في شهر مارس 1822 قبالة بورتانديك (اجريده حاليا)، حيث كان يحاول منع التبادل مع الأنجليز وفقا للالتزامات التي قطع على نفسه بسان لويس في 7 يونيو 1821. وذكر النابغة الغلاوي في منظومته الوعظية «أم اطريد» مقتل ابن عمير فقال:

وابن عمير عند جور جارا — فصار للشاطئ ثم جارا
ترميه الأمواج بكل الزبد — أعجوبة دائمة في الأبد

24) بلغت تلك الضريبة العرفية المسددة من قبل الإدارة الفرنسية، والمساوية لضريبة الأمير، 1494 فرنك.

.(Sénégal et dép. I, Carton 8, Doss. 8c

25) يرجع وجود محطة بورتانديك إلى الربع الأخير من القرن17. فقد دفع استيلاء الفرنسيين على آركين في 28 أغسطس1678 الهولنديين، المبعدين من آركين والحريصين على تجارتهم العلكية على السواحل الموريتانية، إلى فتح محطة تبادل على الساحل أكثر توغلا نحو الجنوب أطلقوا عليها إسم ميناء هدّي Porto d'Häddi (بورتانديك لدى الفرنسيين و"مرسى جور" أو "انجيل" لدى سكان المنطقة). وظل الهولنديون يرتادونها حتى اتفاقية لاهاي في 13 يناير 1727 التي تنازلوا بموجبها للفرنسيين عن حقوقهم في التبادل على السواحل الموريتانية مقابل تعويض مالي.

26) يتعلق الأمر بابنه ابراهيم والد الذي سنم تصرفات محمدفال المتحدية لسلطة الأمير اعمر ولد المختار. وقد قتل ابراهيم والد سنة 1822/1237 في معركة غسرم التي دشنت الحرب بين اعمر ولد المختار وعمير في أعقاب أغتيال محمد فال ولد عمير.

27) هو عمر ولد سيدي المختار ولد الشرغي ولد هدّي ولد احمد بن دامان المتوفى قبيل 1826 بقليل. كان شخصية نافذة في إمارة الترارزة في نهاية القرن18 وبداية القرن 19، حيث نجد اسمه في مكان متميز من قائمة المستفيدين من الضرائب العرفية لسنتي 1817و1821. ونجد توقيعه مباشرة بعد أعمر ولد المختار على النسخة الأصلية من اتفاقية 7يونيو1821.

28) ليس أعلي الكوري (والد امحمد) الذي تولى إمارة الترارزة من 1771 إلى 1786، آخر أمراء أهل اعمر ولد اعلي شنظوره كما يزعم صاحب النص. فقد تلاه ثلاثة أمراء هم أبناء أخيه المختار الثلاثة (امحمد، عاليت وأعمر) قبل انتقال السلطة إلى أهل الشرغي ولد اعلى شنظوره في 1800 عقب وفاة أعمر ولد المختار الملقب ولد كنبه (1794-1800).

29) إن الاتفاقية الوحيدة التي وقعها، فيما نعلم، امحمد ولد اعلى الكوري- المطالب بعرش الترارزة- مع الفرنسيين هي اتفاقية 15 نوفمبر 1819 مع الكولنيل شمالتز ولاتتضمن موادها السبع أي بند، ولاحتى أية إشارة، بهذا الخصوص. وربما كان مايقصده الكاتب هو الإلتزام الشفهي الذي أخذه بهذا الصدد امحمد للبارون روجي، والي السينغال الجديد، الذي أمرته التعليمات الوزارية «بالبحث عن أفضل السبل الكفيلة بالحيلولة دون توجه العلك» إلى بورتانديك (ANSOM: Sénégal et Dépendances I, Carton 8, Doss. 8). فقد جاء في رسالة روجي Roger إلى كاتب الدولة للبحرية والمستعمرات، دكليرمون تونير De Clermont-Tomerre، الصادرة في 4 من ابريل 1822 بهذا الخصوص مانصه: «... لقد وعدني أحمد الكوري Amdou Korry (امحمد ولد اعلى الكوري)، ابن أمير الترارزة الأخير، الذي سبق وأن تعرفت عليه وكان في انتظاري بسان لويس، بأن يمنع الزوايا من التوجه إلى بورتانديك أو نقل مخيمه إلى ناحيته لإرهابهم عن طريق القيام ببعض الغارات النهبية؛ وهو ما يكفي لإنهاء التبادل في ذلك المركز. ولم أعقد معه أية اتفاقية مكتوبة أو صريحة بهذا الشأن، وإن كنت لم أرفض العرض الذي دفعته إلى تقديمه إلي، مؤكدا له أن أي خدمات يقدمها للسينغال سينال مكافأتها. وفضلا عن ذلك فإنه لم يكلف حتى الآن خزانة الملك أي شيء...» ANSOM:, Sénégal et Dépendances I, Cart.8, dos. 8c-

30) يتعلق الأمر في الواقع بابنه امحمد ولد أعلى الكوري، منافس أعمر ولد المختار على عرش الترارزة ما بين 1826-1810.

31) لا تتضمن مواد اتفاقية 1821 الثماني عشرة أي بند بهذا الخصوص. ويبدو أن الكاتب خلط بين هذه الاتفاقية واتفاقيتي 17 يوليو و19 أغسطس 1824 مع البارون روجي.

32) البارون روجي: محام في الأصل، ووالي السينغال من 26 يوليو 1821 إلى 4مارس1827.

34) مارينكوبه الأدبيات الفرنسية في القرن19 هو آدليك الحالي الواقع في أقصى جنوب غربي منطقة الترارزة.

35) محمد شين Hamet Chein: يتعلق الأمر في الواقع بسيدي أحمد بن امحمد شين، الشخصية النافذة في أهل سيدي المختار ولد الشرغي وأحد أعوان أعمر ولد المختار المقربين الذي نجده هنا يوقع باسمه، كما سنجده على رأس وفد الترارزة المفاوض لتذليل الخلافات مع الفرنسيين المتولدة عن زواج محمد الحبيب من الأميرة اجنبت وصية عرش والو في 1833.

وسيوقع في 1842، مع والي السينغال، اتفاقية حول طرق جباية مغارم أسرته على كايور. وكان سيد احمد هذا زعيم خندوسة المشاقة لمحمد الحبيب والمهاجرة إلى آدرار سنة 1847. أما والده امحمد شين فمتوفى سنة 1827.

36) يقصد الكاتب "بالبيداد" قبيلة لبيدات، وهي قبيلة حربية من الدرجة الثانية يربطها بعض النسابة البيضان بارميث بن أودي بن حسان (راجع: الحسوة... ص:124).

37) يعلق الأمر بقبيلة أولاد آكشار التي تؤلف مع أولاد بنيوك مجموعة عزونة المنحدرة من أعلي بن تروز.

38) كان ذلك الوفد مؤلفا من احمد ولد اعمر ولد المختار المعروف بابن الليكّاط، واحمد بن ببكر الصديق، واحمذوت، ومحمد بن سيدي الذي سنجده في مفاوضات مارس 1829 الشاقة.

39) بوكاناك اديوريل: رئيس عبيد عرش والو الذي كان يتولى إدارة الديوان الملكي فيها. وسيصبح مع انتصار حزب تيودو Tyeddo الحربي واحدا من كبار وجهاء والو حتى لعب دور«رئيس الوزراء» في هذه المملكة (راجع عنه: بابي: 103/1972).

40) المختار بن امحمد بن اعلي الكوري (1811-1832): ولد في بداية حرب الخلافة على عرش الترارزة بين الجناحين الإميريين من أهل اعلي شنظوره، وكان عليه أن يتحمل مبكرا تبعات ذلك الصراع. فقد وجد نفسه، وهو في 16 من عمره، مجبرا على تحمل أعباء خلافة أبيه (المقتول في دجنبر 1826) على رأس معارضة الترارزة للاستيلاء على عرش الإمارة.

ويشهد لحداثة سنه عند توليه زعامة معارضة أهل أعمر ولد أعلي، ولمكانته فيهم وفي أخواله ايدوعيش، قول ابن مانو في اتهيدينت «لوصايه» (الوصية):

[...] ذَاكْ الزَيْنْ أعْليكْ يَالْمُخْتَارْ ... النَّاسْ مَا اسْغيرْ كُوتْهَا فيكْ

وانْتَامَاسيلْهَاالبَاشْ تَخْوَارْ ... مَنْ يَوْمْ بَدْلْ اعْلْ إلاَدْ سَنَيكْ

لَيْنْ اكْطَعْتْ لَكْرُونْ مَنْ ذَالدَّارْ ... مَكَطْ خَصَّرْتَنْ النَّاظْرِينْ فيكْ

أسَابَكْ مَا خَلَكَتْ كَاعْ لَخْبَارْ ... اشْيَاخْتْ بُوكْ ابْكَاتْ فَايْديكْ

أكَلْكُمْ عَنْدْ لَشْنَيْنْ تَنْدَارْ ... أهُوَ احْجَبْهَا لَكْ لاَحْ فيكْ

إلْعَادْهُوَ وَلْخْ الْمُخْتَارْ ... عَمَّكْ لَميرْ اشْيَاخْتْ فيكْ

أبُوكْ امْحَمُدْ مَتْنَيْنْ تَتَكَارْ ... اشَّيْخْ أعْلْ ابَّاتْ الْكَوْمْ ذيكْ

أبُوكْ أعْلْ الْكَوْرْ شيخْ مَحَصْرَازْبَارْ ... امْصَابْتْ أمْتَيْنْ يَحَصْرْ اتْوَاريكْ

وانْتَ مَا أكَلْ فيكْ مَنْهُمْ لحْرَارْ ... ألاَهُمْ أخَيْرْ وَالْدَيْهُمْ مَنْ وَالْدَيْكْ

وَانْتَ امْخَرَّجْ أعْليهُمْ بَهَلْ بَكَارْ ... وَلْ أعْمَرْ بيهُمْ أمْتَنْ آزْريكْ [...]

مَزَيْنْ مَا وَسَيْتْ بَالْمُخْتَارْ ... أبَرْ مَكْسَادْ أعْلْ حَدْ خَاطيكْ

أبرمْظَانْ مَفَاتْ شَارْبَكْ أخْطَارْ ... اجْمَاعْتَكْ كَامْلْ امْجَمْعْ اعْليكْ...

وقد قام أنصاره وحاميه بريم امبانييك ملك والو«بتنصيبه ملكا للترارزة.. كما اعترف به السينغال بحكم الخدمات الجليلة التي قدمها والده للفرنسيين» (مونسرات Monserat/16). غير أنه بموت امبانييك في ديسمبر 1827، الذي

سياسة تصالح مع أعسر ولد المختار الذي توطدت سلطته فعلا وخاب كل أمل لدى الفرنسيين في تحقيق مشروع الاستعمار الزراعي: (ANS. 2B12, C.G. au M.,St-louis, le12 Mai 1828).

ويقول مونسرات أن المختار «الذي آزدرى به الزنوج في العديد من المواقف، قد ضاق بهم ذرعا وقرر الإستسلام لأبن عمه محمد الحبيب والتعهد له بالتخلي عن المطالبة بالسلطة طيلة حياته مادام أسن منه. وعليه فأنه سينضوي - دون عناء- تحت لوائه مادام حيا بدل أن يظلا على الدوام في شقاق وحرب مفتوحة لا يمكن إلا أن تضعف كلا منهما وتلحق به الضرر. غير أنه قد نص على أنه سيثأر بنفسه من قاتل أبيه، وهو ماتم تنفيذه».

بيد أن محمد الحبيب «لم يغضب عندما وجد المختار نفسه (في يوليو 1831) متهما بين قتلة جاك ماليفوا Jacque Malivois» والذين يضمون، إلى جانبه، أعسر ولد اعلي ولد أعسر بوشارب وسيدي احمد ولد آغنيب وإحمد ولدهيبه. وأعلن الفرنسيون، على الفور- مدعومين من قبل أهل الو- الحرب على الترارزة. ولم تضع تلك الحرب أوزارها إلا عند ما قبل محمد الحبيب، في النهاية، توقيع اتفاقية سلام مع الوالي كرنل quernel في 24أغسطس 1831 تنص على أن القتلة يجب أن ينفوا من أرض الترارزة.

وعند ما توجه المختار إلى سان لويس «للتفاهم مع الوالي بشأن ضرائبه العرفية» الملغاة بعد اغتيال مالفوا، ألقي القبض عليه وحوكم ونفذ فيه حكم الإعدام في 19 دبسمبر 1832 طبقا للحكم رقم: 551 الصادر في فاتح ديسمبر 1832 عن المحكمة الابتدائية بسان لويس (راجع بهذا الخصوص: Sénegal, greffes de St-louis, T.17/1832

وتذكر التقاليد الشفهيه التروزية أن محمد الحبيب نصح المختار بعدم التوجه إلى سان لويس وحذره - دون جدوى - من عواقب ذلك السفر المشؤوم.

وخصصت Le Journal du Havre في عددها الصادر في 26 أغسطس 1834 مقالا مطولا لذلك الاعدام وانعكاساته على علاقات مستعمرة السينغال مع الترارزة، اعتمادا على «رسائل واردة من سان لويس». ويعطي صاحب هذا المقال رواية عن الأحداث مغايرة، في أكثر من نقطة، لرواية مونسرات. ونختم هذا الهامش المطول عن المختار ولد اعلي الكوري باستشهاد طويل من المقال المذكور لما يعطيه من معلومات تفصيلية هامة عن نهاية المختار المأساوية مادامت المصادر المحلية قد صمتت عنه صمتا غريبا إلى حدّ أن بعض أولاد احمد بن دامان أنفسهم يجهل أنه المعني «باتهيدينت لوصاية» ويتساءل عن صاحبها.

"... كان الشاب المختار ولد امحمد ولد اعلى الكوري Moctat Amhmdoul koury يطالب بميراث أبيه، وفي أعقاب نقاش مع أحد زنوج سان لويس يتهمه بالعمل لصالح منافسه، أطلق عليه المختار النار. ولم تصب تلك الطلقة البتة الزنجي إلا أن أنصار المختار، خدمة منهم لأهدافه، أطلقوا النار من بعد بشكل أفضل مما رأوه يفعل- ودون تشاور معه- على الزنجي الذي توفي فيما بعد متأثرا بجراحه. وأراد السيد دسين جرمين De Saint-germain أن ينتقم لمقتله من البيضان الموجودين وقتها بسان لويس، فوضعهم في الأغلال وأجبرهم على حمل رمال المدينة، وهاجم قافلة مسالمة كانت تجتاز من ضفة كنجول.

وسرعان ما أشفعت تلك السياسة الحمقاء بشكل آخر من أشكال الحزم.

كان اغتيال الزنجي السانلويسي ماليفوار Malivoare قد اقترف منذ أكثر من سنتين عند ما جاء المختار إلى كت اندر Guett-en-Dar يطالب بالضرائب العرفية التي تسدد لزعماء البيضان مثل الملوك أوملاك الأرض. ورفض السيد دسين جرميه تسديدها للمختار متهما إياه بالاغتيال الذي تنع مسؤوليته عليه، وطالب المختار بتبرير موقفه، وتوجه رفقة حاشيته إلى مقر الوالي. وأقدم هذا الأخير على اعتقاله وتقديمه فورا إلى المحاكمة أمام محكمة صورية حكمت عليه بالإعدام.

فرنسيه، فقد كان من اللازم ان تطبق عليه كل احكامها؛ على الرغم من كل ذلك القي الامير الشاب في حوش لايتجاوز عرضه ستة أقدام وأعدم رميا بالرصاص ورمي جثمانه للضباع.

لم يكن المختار، وقتها، قد تجاوز السابعة عشر من العمر. وإذا كانت حداثة سنه، وشجاعته، وجماله الذي يذكر بجمال أمه- الشهير لدى الترارزة- لم تشفع له ولم تفده سوى مشاعر عطف مبتذل، فإن التأثير الذي يتمتع به بين صفوف قومه كان ينبغي أن يشفع له ويبقيه على قيد الحياة خدمة لمصالح البلد التي يمثلها والينا بالسينغال، ووصف مكتوب موجه إلى عدد من أعضاء الغرفتين تعذيب المختار بأنه من باب العدالة والصرامة. فإما أن تكون المعلومات التي زودنا بها شهود عيان خاطئة تماما، أو أن ذلك التعذيب لا يعدو كونه اغتيالا قيم به إثر نصب كمين.

ويمكن القول إن هذا الإعدام، شأنه في ذلك شأن إعدام آخر أكثر شهرة، كان أكثر من جريمة، إنه خطيئة يكفر عنها اليوم السينغال تكفيرا باهظ الثمن.

فغور العلوم بمصير الشاب الشيخ المختار، امتطى أفراد حاشيته من البيضان صهوات جيادهم وساروا في كل الاتجاهات ينذرون شعوب الصحراء بماحدث {للمختار}. ومنذ ذلك الوقت بدأت أعمال عدائية لامتناهية ضدنا. وقد انتهز محمد الحبيب نفسه، الذي خلصه لتوه دسين جرميه بطريقة لاسياسية من منافس {يحسب له حسابه}، الفرصة السانحة لإعلان القطيعة معنا بحجة الثأر لأخ. وسرعان ما أصبحت سان لويس محرومة من كل التموينات التي تحصل عليها من والو، وأضحى لزاما عليها أن تشتري من الانجليز الزرع والقطن الذين لم يعد بالإمكان الحصول عليهما من بلد مجتاح بكامله. وأصبحت غارات وهجمات البيضان أكثر اضطرادا وجرأة. وغدت المستعمرة محاصرة في سان لويس، وكرس محمد الحبيب احتلال عصاباته لوالو بزواجه من وصية عرش ذلك البلد. وحاول السيد دسين جرميه كل مافي وسعه للحيلولة دون ذلك القران. وأراد أن يعزز تهديداته باستعراضات عسكرية، فقام بحملة توفي أثناءها ولم تسفر إلا عن حرق قرى زنجية(...). وواصل السيد كرنل quertnel تلك الحرب (...) المستمرة حتي اليوم، والتي لا يتوقع انتهاؤها الوشيك بالنظر إلى إمكانات المستعمرة ...»

41) تغرجنت: إحدى قبائل الترارزة الكحل، وتجعل منهم التقاليد الجنيالوجية المحلية إحدى مكونات أولاد رزك التي استقرت في عزونة على ضفاف النهر.

42) طبع الصراع المحتدم بين الانجليز والفرنسيين من أجل السيطرة على محطة بورتانديك (اجريده حاليا) بطابعه القوي العلاقات بين هاتين القوتين الأوربيتين طيلة القرن 18 والنصف الأول من القرن 19 حيث تأزم الوضع فجأة بين إدارات المستعمرات والسفارات إلى حدّ أن الصحافة والغرف التجارية والبرلمانات الأوربية قد أعطت صدى عنها. ويجد هذا التنافس أساسه في النضال من أجل السيطرة على تجارة العلك واحتكارها التي كانت، وقتها، «كل شيء بالنسبة للسينغال». ويعطي كل من دلكور Delcourt (1952: الفصلان 3و4) وباسكي Pasquier (1987: ج3/1321-1362) ما فيه الكفاية من المعلومات حول قضية بورتانديك هذه. أما بالنسبة للترارزة، فقد كانوا يقدرون حق قدرها الأهمية الاستراتيجية والتجارية والسياسية لبورتانديك في علاقاتهم مع القوى الأوربية. فلم يقبلوا أبدا التخلي عنها وحرصوا على مابوفره لهم موقعهم الجيوبولتيكي من هامش مناورة إزاء التنافس الفرنسي الانجليزي. وليس من باب الصدفة أن يتزامن أول انتصار حاسم تحققه مستعمرة السينغال في صراعاتها المتكررة مع الترارزة مع رحيل الانجليز النهائي عن الساحل الموريتاني سنة 1857.

43) محمد الحبيب: يعتبر واحدا من أبرز الأمراء في تاريخ الإمارات البيضانية وأعظم أمراء الترارزة على الإطلاق. وقد تقلد زمام الأمور في الترارزة بعد وفاة أبيه أعمر ولد المختار في يناير 1829 وحتي 15 سبتمبر 1860 حيث تم اغتياله من طرف أبناء إخوته بقيادة سيدي احمد ولد اعلي خملش. واستطاع محمد الحبيب، الذي يعتبر عهده الطويل الممتد على مدى 31 سنة «العهد الذهبي» للإمارة، بفضل مهاراته السياسية وقوة شخصيته أن يوطد سلطته في الداخل ويهيمن

الكيانات السياسية المجاورة لنهر السينغال، حجر الزاوية في خلافاتهم المتكررة مع محمد الحبيب التي تحولت مرتين إلى حروب مفتوحة (1833-1835و1855-1858). وفي نهاية هذه الحرب الأخيرة، تمكن فيدرب Faidherbe (1818-1871) في النهاية أن يحمل محمد الحبيب على التوقيع على اتفاقية 20مايو1858 التي كرست تماما انتصار البرنامج الذي رسمته مستعمرة السينغال الفرنسية لنفسها بوضوح مع بوي ويميز Bouet-willaumez (6 نوفمبر 1844) وبعث من مرقده في شكل توجيهات رسمية للوالي ابروتي Protet طبقا لبرقيتي وزير المستعمرات ديكوس Ducos الصادرتين في4و5 يناير 1853، والمجدد من قبل فيدرب في رسالته الصادرة في 19 يناير 1855 (ANSOM: sénégal I, dos. 41 b.).

44) فرانسوا بلكرين F.Pellegrin: مولد سانلويسي، كان يرتبط بعلاقات متنوعة مع الترارزة مكنته، في مناسبات عدة، من إنقاذ المفاوضات الفرنسية- التروزية من الانهيار ويتوصل إلى حل وسط مقبول لدى الطرفين.

45) شغل آلين Alin منصب عمدة سان لويس في النصف الأول من القرن19.

46) جربيدون Gerbidon : رئيس المكتب الثاني في إدارة المستعمرة، ووالي السينغال وكالة من 4 مارس إلى 18 مايو 1827 حيث أصبح والي السينغال إلى غاية 13 سبتمبر 1827.

47) كت اندر: بمعنى مربض سان لويس، ويقصد به، وقتها، قرية كبيرة تقع على الكثيب الرملي المقابل لسان لويس، تمر منها القوافل القادمة من الضفة اليمنى للنهر.

48) يقصد أنصار المختار ولد امحمد ولد اعلي الكوري من الترارزة الذي كان لاجئا في والو (راجع الإحالة 39).

49) يتعلق الأمر بالمقترحات التي أفضت إلى اتفاقية 6يونيو 1826.

50) البحيرة دافاف: يعني الكاتب في الحالة الأولى بحيرة باني فول Panier Foule بوالو، أما بلدة «فاف» فتقع على الضفة اليسرى للنهر على بعد 4 أميال إلى الغرب من ريشارتول، وهي إحدى المؤسسات الزراعية الأربع المقامة في والو بموجب قرار 19 أغسطس 1824 والمصادق عليه بموجب قرار وزير البحرية والمستعمرات رقم:248 الصادر في 27 اكتوبر 1828. وكان يوجد بها سنة 1825، في إطار تجارب الاستعمار الزراعي، مزرعة قطن من 100 هكتار مزروعة «يعمل بها25 رقيقا(...) كما يعمل بها- حسب أهمية الأعمال- من 25 إلى75 من الزنوج الأحرار(...) فضلا عن 50 إلى 60 رأسا من الأبقار وثيران العمل...» (ANSOM: Sénégal xx, doss. 16).

51) ابدوعيش: هم المجموعة الصنهاجية الوحيدة التي تمكنت، ابتداء من النصف الثاني من القرن 18 من بناء إمارة بمنطقة تكانت. وتنقسم قبيلة إبدوعيش إلى عدة أفخاذ أعيد تنظيمها أوائل القرن19 في ثلاث مجموعات كبرى متميزة هي: أبكاك، اشراتيت وأهل سيدي محمود (راجع: باب ول الشيخ سيديه: تاريخ إبدوعيش ومشظوف، وولد الشيخ: م س/ 327 وما بعدها).

52) البراكنة: تطلق هذه التسمية عموما، كما هي الحال بالنسبة للترارزة، على مجال جغرافي وبشري بسطت عليه ذرية بركني بن هداج سلطتها الإميرية منذ أوائل القرن 17.

أما البراكنة من الناحية الجنيالوجية فيتألفون من ثلاث مجموعات كبرى هي: أولاد عبد الله، وألاد احمد وليتامه... ولمزيد من المعلومات عن هذه الإمارة يمكن الرجوع إلى: هاردن بن الشيخ سيديه: كتاب الأخبار، الدفتر 4، وولد الشيخ: م س، ص.ص:298-312.

53) كنار: إسم يطلقه سكان الضفة اليسرى لنهر السينغال على أقصى الأجزاء الجنوبية الغربية من منطقة الترارزة وعلى سكانها القاطنين على الضفة اليمنى.

محمدو بن محمذن

كلية الآداب/ قسم التاريخ

جامعة نواكشوط

في سنة 1894، أي قبل قرن من الزمان، كلفت الإدارة الفرنسية في السنغال ترجمانها دودْ سك بن المقداد بمهمة في منطقة تگانت الواقعة بوسط البلاد الموريتانية بغية إقناع زعماء مجموعة اشراتيت الإدوعيشية بتوقيع إتفاقية تحالف مع الفرنسيين. فتوجه دودْ سك إلى تگانت لتنفيذ هذه المهمة وهو يحمل معه مشروع الإتفاقية المقترحة من قبل الفرنسيين ليعرضه على شيوخ تلك القبيلة وكانت مضاربها إذ ذاك في منطقة آفطوط الموريتانية حيث قضى ابن المقداد أياما مع المختار ولد أحمد ولد المختار زعيم اشراتيت لتقديم ومناقشة مشروع تلك الإتفاقية.

وقد أرتأينا أن ننتهز فرصة مرور قرن كامل على مهمة ابن المقداد تلك لنسلط عليها الأضواء من خلال وثيقتين تاريخيتين تتعلقان بها. الأولى منهما هي تقرير أعده ابن المقداد عن هذه المهمة. وقد نشرنا قبل حين(1) النص الفرنسي الأصلي لهذه الوثيقة. وأما الثانية فهي مشروع الإتفاقية(2) التى أوكل الفرنسيون إلى دودْ سك توقيعها مع زعماء اشراتيت، وسنكتفي الآن بتعريب هذه الوثيقة الأخيرة آملين أن نعود إليها في مناسبة أخرى.

وفضلا عن انقضاء مائة سنة على الوثيقتين المذكورتين فإن مسعانا من وراء نشرهما ينبع من مسوغات أهمها:

أ-المساهمة في بعث نصوص من التاريخ الموريتاني من مرقدها وتعريبها علّ ذلك يساعد في وضعها في متناول الباحثين والمهتمين بهذا التاريخ ممن لا يتقنون اللغة الفرنسية.

ب- محاولة التعريف -ما استطعنا إلى ذلك سبيلا- بأهم الأعلام البشرية والجغرافية المذكورة في النص وذلك لتقريبها من القراء غير الموريتانيين على وجه الخصوص.

ج-السعي إلى إزالة بعض الغموض الذى اكتنف -وما يزال يكتنف- شخصية ابن المقداد المزدوجة. وهو الغموض الذى أوقع بعض الباحثين والمهتمين بالتاريخ الموريتاني من موريتانيين وفرنسيين في بعض الخلط خاصة فيما يتعلق بابن المقداد.

فالأستاذ الخليل النحوي يذكر أن دودْ (محمد) سك " ابن المقداد " قد أوفدته

حاجا، وسنة 1879 لمرافقة پول سوليي Paul SOLEILLET وسنة 1900 رفيقا لپول بلانشي Paul BLANCHET(3) .

ويسير الأستاذ محمد المصطفى بن الندى في المنحى نفسه قائلا :" **إن دودْ سك الملقب محمد سنغالي متعرب أخذ العلم عن الشناقطة واحتك بهم اوفدته السلطات الفرنسية في ثلاث مهمات استطلاعية الأولى سنة 1860 تحت عنوان رحلة إلى الحج يرافقه فرنسيون [؟!] ونجح في مهمته وفي سنة 1879 سار مواكبا لپول سوليي (...) وفي سنة 1900 بعثته فرنسا مواكبا لپول بلانشي لاستطلاع الوضع في آدرار..** "(4).

ورغم مجهوداتهما التي تستحق التنويه في تدوين ونشر جوانب مهملة من تاريخ المنطقة فقد خلط الباحثان الخليل النحوي والمصطفى بن الندى، في هاتين الفقرتين، بين شخصيتي ابن المقداد (دودْ سك) ووالده محمدن بن المقداد(5).

ولم ينج الفرنسيون، بدورهم، من الوقوع في أخطاء تتعلق بابن المقداد، من بينها على الخصوص اختلاط الأمر-ايضا- على بعض الباحثين الفرنسيين(6) بشأن الرجل وابنه.

أما الابن فسنعود إلى الحديث عنه في سياق تناولنا للتقرير الذى اختتم به مهمته في تگانت. وأما الوالد فهو محمدن بن المقداد(7) الذى قضى فترة طفولته في منطقة الترارزة بالجنوب الغربي الموريتاني لتعلم العربية ومبادئ الدين الإسلامي قبل أن يعود إلى مدينة سان لوي حيث شغل منصب قاضي تلك المدينة. قبل أن يختاره الجنرال فدرب FAIDHERBE الوالي الفرنسي على السنغال كبير مترجميه.

وفي نطاق حملة الاستكشافات التى أشرف عليها ذلك الوالي زار ابن المقداد (محمدن) المجال الموريتاني مرتين: الأولى خلال ربيع 1860 صحبة نقيب الأركان العامة هنري فينصان Henri VINCENT المبعوث في مهمة استطلاعية نحو منطقة آدرار الموريتانية بغية جمع المعلومات عن هذه المنطقة وسعيا إلى الوصول إلى مدنها التاريخية، وهو ما لم يسمح به أمير آدرار ومشايخ المنطقة في ذلك الوقت(8).

أما في الزيارة الثانية فقد اجتاز ابن المقداد الصحراء الموريتانية اثناء شتاء السنة نفسها وهو في طريقه إلى المغرب في مهمة مزدوجة، استهدفت الحصول على معلومات بخصوص المنطقة، من جهة، وتأدية فريضة الحج، من جهة أخرى(9).

ولم يكن ابن المقداد بالتأكيد - خلافا لما ذهب إليه الاستاذ الندى - مرفوقا بفرنسيين خلال هذه الرحلة. ذلك أن الأوربيين الخلّص لغة وديانة وبشرة لن يتمكنوا من عبور البلاد الموريتانية لربط السنغال بالجزائر أو بالمغرب - رغم محاولاتهم المتعددة -إلا في بداية العقد الثاني من القرن العشرين(10) أي بعد رحلة ابن المقداد المذكورة بأزيد من نصف قرن من الزمان.

قيل)، أسماء الأشخاص المرافقين له. ولم يكن ابن المقداد - بالطبع - من ضمنهم.

ويشير صوليّي في التقرير نفسه إلى أن لديه توصيات من ضمنها واحدة من ابن المقداد موجهة إلى أمير الترارزه اعلي بن محمد الحبيب والشيخ سعد بوه وبعض الشخصيات ذات الاعتبار في تيشيت وولاتة(12). ويضيف هذا الرحالة: "**لقد تركت عند ابن المقداد [في سان لوي] أنواعا مختلفة من البضائع سيتولى إرسالها إليّ مباشرة نحو تيشيت**"(13).

وهذا الخلط بين الرجل وابنه متأتٍّ حسب اعتقادنا من جملة من عناصر التشابه بين الشخصيتين أهمها:

أ-اشتهار الرجلين معا بلقب ابن المقداد وهو لقب تغلّب بسرعة علي الاسم الذى لم يعد له وجود يذكر.

ب- كون الرجلين قضيا فترة طفولتهما بين صفوف البيضان لتعلم مبادئ العربية والدين الإسلامي.

ج- كون الرجلين قد شغلا منصب مترجم لدى الإدارة الفرنسية في السنغال.

د- إخلاص الرجلين للسلطات الفرنسية. فقد قدّما خدمات متعددة لتوسيع النفوذ الفرنسي بالمنطقة (جمع المعلومات، مرافقة المستكشفين الفرنسيين، الاستكشاف، الترجمة ..الخ).

هـ- أداء الرجلين فريضة الحج على نفقات الدولة الفرنسية مما خول كلا منهما حمل لقب الحاج ابن المقداد.

و-ازدواجية الولاء، حيث الدراسة تقليدية إسلامية جرت - كما ذكرنا - في المحاضر البيضانية، مما ربط الرجلين ثقافيا ودينيا بالبيضان. كما نمت وتطورت علاقات وطيدة بين الرجلين والفرنسيين المتمركزين في السنغال والطامحين إلى توسيع نفوذهم داخل البلاد الموريتانية للسيطرة عليها ولربط المستعمرتين الفرنسيتين الشمالية (الجزائر) والجنوبية (السنغال).

وقد وفق الاستاذ الندى إلى حد بعيد في التعبير عن هذا الازدواج حين اختار لمقاله السابق الذكر عنوان: "**ولاءان في ولاء...**"(14). إذ يلخص هذا العنوان الطريف تلك الازدواجية.

أما ولاء أسرة أهل ابن المقداد للبيضان فيفسّر بكونهم أساتذة ومعلمي أفراد هذه الأسرة، حيث استقبلوا على التوالي محمدن بن المقداد (الأب) وابنيه عبد الله سك ودودْ سك. وقد اكتسبت أسرة ابن المقداد بفضل المعارف التى حصلها أفرادها من الموريتانيين مكانة متميزة داخل المجتمع السنغالي تفطن إليها الفرنسيون بسرعة فمنحوا هذه الأسرة عناية خاصة. فبعيد وفاة الأب محمدن بن المقداد سنة 1882 سارع بريير دو ليل Brière de Lisle الوالي الفرنسي على السنغال (1876- 1881) بتعيين الابن الأكبر عبد

سك لتسلم تركة أسرة آل ابن المقداد بما فيها منصب ترجمان الإدارة الفرنسية بالسنغال، فواصل النهج الذى اختطه أبوه وسار عليه أخوه من قبله. ولعل هذه الحظوة هي التي كانت وراء ولاء تلك الأسرة المحافظة المتدينة للفرنسيين. فمن هو ياترى وارث أسرة ابن المقداد الجديد ؟

صاحب النص

هو محمد وشهرته دودْ سك بن المقداد وقد ولد بمدينة سان لوي في 24 من سبتبر1867(15) أي بعد سبع سنوات على مرور والده بالأراضى الموريتانية الذى أشرنا إليه سابقا. وحين بلغ دودْ سك التاسعة من العمر توجه على غرار والده وأخيه الأكبر إلى منطقة الگبلة بالجنوب الغربي الموريتاني ليتلقى على أيدى البيضان دراسته التقليدية. وعاش ابن المقداد بين صفوف البيضان أربع عشرة سنة تمكن خلالها من حفظ القرءان الكريم وتعلم العربية إلى أن أجاد قرض الشعر الفصيح والحساني(16) .

وفور اغتيال عبد الله سك استدعي الوالي الفرنسي بريير دو ليل دودْ سك ليعينه مترجما من الدرجة الثانية خلفا لأخيه.

وقد انخرط "المترجم" الجديد الذى لا يعرف الفرنسية(!) في المدرسة الحديثة. واسندت إليه الإدارة الفرنسية مهمة استقبال المراسلات التى ترد يوميا باللغة العربية من مختلف الزعماء المحليين على المكتب السياسي بمستعمرة السنغال.

وعندما بدأ الفرنسيون في أواخر القرن الماضي ومطلع الحالي يكثفون حملاتهم الإستطلاعية نحو البلاد الموريتانية تمهيدا لإخضاعها سياسيا وعسكريا استخدموا دودْ سك مرافقا للمستكشفين ومترجما لهم ومستكشفا، حيث أسندت إليه أحيانا مهمات استكشافية دون أن يكون مرفوقا بفرنسيين. ومن أشهر المهمات الإستطلاعية التى شارك فيها دودْ سك بن المقداد أو قام بها يمكن أن نذكر:

أ- بعثة نوارو NOIROT سنة 1889 وهي أول مهمة فرنسية شارك فيها ابن المقداد داخل البلاد الموريتانية حيث رافق الإداري الفرنسي نوارو المكلف بمهمة استطلاعية وقتها في منطقة الترارزة.

ب- بعثة ليون فابير Léon FABERT وهو مستكشف فرنسي عهد إليه خلال سنة 1891 بالقيام بمهمة استكشافية في آدرار في محاولة لإقامة علاقات تجارية وسياسية(17) مع إمارة آدرار، وقد كلف ابن المقداد بمرافقة فابير أثناء مهمته هذه التى لم تتكلل كسابقتها بالنجاح.

ج- مهمة 1892 فى آدرار: وقد مكنت هذه المهمة ابن المقداد من الاتصال بأمير

د- مهمة 1894 في تكانت وهي التى يتمحور حولها هذا المقال.

هـ- مهمة 1898 في آدرار وكانت مواصلة لمهمته السابقة حيث حاول أن يبرز لأمير آدرار ولكبار الشخصيات في المنطقة "**الفوائد المتعددة[!] التى سيجنونها من التعاون مع الفرنسيين في السنغال** "(18).

و- بعثة بول بلانشي Paul BLANCHET سنة 1900 . فقد كلف هذا الشاب الجامعي بمهمة(19) في آدرار تتعلق بدراسة الموارد الاقتصادية والمعدنية خاصة في تلك المنطقة وذلك تمهيدا لمد خط حديدي عابر للصحراء من المحتمل أن يربط بين الجزائر والسنغال. وقد رافقه ابن المقداد في هذه المهمة التى كان حظها من النجاح أسوأ من حظ سابقاتها.

ز- مرافقة الإداري الفرنسي گزافيي كوپولاني Xavier COPPOLANI إلى منطقة الترارزة سنة 1902.

ح- مرافقة الإداري الفرنسي كوپولاني إلى منطقة البراكنة سنة 1904.

ط- مرافقة الضابط فَريرجان FREREJEAN إلى تجگجة سنة 1905 للتحقيق بشأن اغتيال كوپولاني.

وسيعود ابن المقداد إلى آدرار مرة أخرى سنة 1909 وهو مترجم للعقيد گورو GOURAUD أثناء حملته الشهيرة (20) بالشمال الموريتاني. وقد ربطت ابن المقداد علاقات وطيدة بذلك الضابط حتى بعد عودته إلي فرنسا(21).

وقد توفي دودَ سك سنة 1943 مخلفا لنا وثيقتين إحداهما سيرة ذاتية نتمنى أن تُتاح لنا فرصة العودة إليها مستقبلا، و أما الأخرى فهي التقرير الذى أعده عن مهمته في تكانت سنة 1894.

الوثيقة

يتألف هذا التقرير المحفوظ بالأرشيف الوطني السنغالي(22) والموجه إلى مدير الشؤون السياسية بمستعمرة السنغال من 12 صفحة بمعدل ثلاثين سطرا للصفحة واثنتيْ عشرة كلمة للسطر. وهو يتمحور حول مهمة ابن المقداد في منطقة تكانت.

ويبدو أن الانشغال بالقضايا السياسية قد استحوذ على مجمل اهتمامه أثناءها مما جعل الجزء الأكبر من التقرير يركز على ذكر الخلافات والانشقاقات داخل المجموعة الإدوعيشية وفي صفوف أهل سيد محمود وعلى الحروب (التى وقعت والتى قد تقع؟) بين إمارتيْ آدرار وإدوعيش ودور تلك النزاعات الداخلية والحروب في عرقلة مشاريع الأمير بكار ضد الفرنسيين(23).

محاولة رسم خريطة لرحلته، كما أن الإشارات الواردة عن خط سيره كانت ناقصة بدرجة تجعل محاولة رسم خريطة أو خط سير تقريبيين لهذه الرحلة مسألة مستعصية. فقد اكتفى بذكر بعض محطات التوقف في بداية المهمة (الانطلاق من سان لوي، المرور بقرية والالدي ثم بكيهيدي فالوصول إلى آفطوط)، بينما لم يقل كلمة واحدة عن طريق عودته إلى سان لوي.

وقد أهمل ابن المقداد وصف المناطق والمناظر الطبيعية التي مر بها أثناء هذه الرحلة.

ورغم طغيان الجانب السياسي على الوثيقة فإن قيمتها التاريخية جلية. فالمعلومات التي زودتنا بها عن مجموعة إدوعيش وصراعاتها الداخلية وحروبها مع جيرانها والتحالفات القبلية التي تنعقد وتنهار؛ كلها معلومات تساعد في فهم طبيعة المجتمع البيضاني في ذلك الوقت.

واشتملت هذه الوثيقة كذلك على إشارات خجولة إلى بعض التصنيفات الاجتماعية البيضانية (الزوايا، الطلبة، حسان، الشرفاء، الأتباع.. إلخ)، وعلى الإشارة إلى بعض الأنشطة الإقتصادية كالزراعة والرعي والتجارة. وقد شغل هذا النشاط الأخير، أكثر من غيره، ابن المقداد نظرا للاهتمام الذي يوليه الفرنسيون للتجارة وسعيهم إلى توطيد المبادلات التجارية مع البيضان وتخوفهم من عرقلة هذه المبادلات.

وقد تم ذكر حوالي الثمانين من الأعلام البشرية والجغرافية غالبيتها أعلام موريتانية في هذه الوثيقة التي يمكن تسجيل المآخذ التالية عليها:

أ- غياب المنهجية والتسلسل والربط. الشيئ المتأتي -طبعا- من أن دراسة الرجل كانت دراسة تقليدية.

ب- عدم بذل جهد يذكر في تحديد المواضع الجغرافية. بل إن ابن المقداد أغفل -كما أسلفنا- ذكر النقاط التي مر بها في طريق العودة إلى السنغال.

ج- عدم الدقة في تدوين بعض الأعلام. ونكتفي بمثال واحد على ذلك. فابن المقداد يكتب اسم قبيلة إدوعلي كتابتين مختلفتين(24).

د-المبالغة والتحامل في بعض الأحيان. وخير مثال نسوقه هنا هو حديث الرجل عن قبيلة كنته الذين اعتبرهم "غير أصيلين بالمنطقة" ووصفهم بـ"الغزاة"(؟) مؤكدا أنه وقت مغادرته لتكانت أصبحت علاقة كنته بحليفهم بكار بن اسويد أحمد؛ الذي يوفر لهم الدعم، تعاني الفتور فصاروا عرضة لنهب اشراتيت المتواصل، مما دفع هذه القبيلة إلى الفرار نحو الحوض(25)، وكذلك مبالغته بشأن الخلافات والحروب الداخلية بين بعض القبائل (أهل سيد محمود مثلا).

وقبل انهاء هذا التقديم نود إبراز الملاحظات التالية:

أ- إن ابن المقداد يتحلى بشجاعة فائقة في الدفاع عن نهجه في التعامل مع

على تعامل يكاد يبلغ حد الانصهار.

ب- إن مسألة السيادة في حوض نهر السنغال ما تزال -وقتها على مايبدو- مطروحة بإلحاح بعد مرور حوالي نصف قرن على محاولات الجنرال فدرب FAIDHERBE حسمها لصالح الفرنسيين. فحتى زعماء اشرتيت، وهم على وشك التوقيع على معاهدة صداقة و تحالف مع الفرنسيين، يثيرون مشكلة السيادة تلك، فيبدون تحفظهم على المادة رقم 12 من مشروع الاتفاقية مؤكدين أن منطقة مقامة هي مجال لسيادتهم الخاصة ويطرحون في الوقت نفسه مشكلة گيدماغه(26).

ج-إن فرنسا قد بدأت التحضير الجدي للسيطرة على البلاد الموريتانية عازفة على وتيرة الخلافات الداخلية لإرغام هذا الطرف أو ذاك على الدخول في كنف حمايتها. ذلك ماحدث سنة 1891 في الترارزة عندما وقع الفرنسيون اتفاقية مع الأمير أحمد سالم بن اعلي بن محمد الحبيب تنص على وضع الترارزة تحت الحماية الفرنسية. وهو ما وقع أيضا أثناء هذه المهمة حينما قبل اشراتيت اتفاقية تنص مادتها الثانية على وضعهم تحت الحماية الفرنسية.

وكما انتهز الفرنسيون صراع أعمر سالم بن محمد الحبيب مع ابن أخيه أحمد سالم لينتزعوا من هذا الأخير قبول الحماية الفرنسية مقابل دعمهم له؛ استخدموا كذلك الصراع بين الأمير بكار ولد اسويد أحمد وابن عمه المختار بن أحمد بن المختار زعيم اشراتيت ليقنعوا هذا الأخير بقبول معاهدة مشابهة وفي ظروف مماثلة.

د- إن هدف فرنسا، في هذه المرحلة، من تعاملها مع المنطقة، هو ربط مستعمراتها في إفريقيا الغربية بتلك الموجودة في الشمال الإفريقي. ذلك مايفهم من السياق العام لمأمورية ابن المقداد في تگانت، ويتضح خاصة في خاتمة تقريره عن هذه المهمة.

1 - Mohamedou OULD MOHAMEDEN, "Les tentatives de pénétration française dans le Pays Maure à travers le rapport de mission de Bou El Mogdad en 1894 au Tagant", *Maçadir, Cahier des sources de l'histoire de la Mauritanie*, Cahier n°1, I.R.E.M.A.M. et L.E.R.H.I., Aix-en-Provence et Nouakchott, 1994, pp. 79-99.

2 - Archives Nationales du Sénégal (A.N.S.): Série G: Politique et administration générale, Sous-série 9G: Affaires politiques et administrations musulmanes: 9 G-9: Projet de traité avec les Maures Chrattit, 7 pages, mars, 1894.

3- الخليل النحوي، بلاد شنقيط، المنارة...،الرباط. عرض للحياة العلمية ،الإشعاع الثقافي ،الجهاد الديني من خلال الجامعات البدوية المتنقلة (المحاضر)، تونس، 1987، 647 ص.، ص. 326 .

4- محمد المصطفى بن الندى، "من وحي التاريخ: ولا عن في ولاء" ، جريدة *البصائر*، السنة الأولى، العدد: 5 ، اغسطس/ آب 1992، صص. 26 . 28 ، ص. 26.

5- رغم أن الأستاذ الندى أشار في مكان آخر من مقاله الآنف الذكر إلى أن "ابن المقداد ابن مترجم وهو نفسه مترجم..."، راجع بهذا الخصوص، المصطفى الندى، مرجع سابق، ص.26 .

6- راجع بهذا الخصوص:

- Numa BROC, Dictionnaire illistré des explorateurs français au XIXème siècle, I, Afrique, Paris Editions du Comité des Travaux Historiques et Scientifiques, 1983, 316 p.,pp.31 et 42.
-DUBOC, Le Général, La Mauritanie, Paris, Fournier, 1935, p.318.
- Jacques VALETTE, "Pénétration française au Sahara et exploration: le cas de Paul SOLEILLET ", *Revue française d'histoire d'Outre-Mer*, T. XVII, n° 248-249, 3ème et 4ème trimestres, 1980, pp. 253-267, p. 266.

7-فضلا عن رحلة هذا الرجل وملفه الأرشيفي المذكورين يمكن الرجوع إلى:

- J. ANCELLE, capitaine de génie, breveté , Les explorations au Sénégal et dans les contrées voisines, depuis l'antiquité jusqu'à nos jours, Paris, Maisoneuve frères et Ch. Leclerc, Editeur, 1886, XL+445 p.,pp .143 et suivantes.
- Anonyme, Hommes et destins,dictionnaire bibliographique d'Outre-Mer, Paris, 9T.,1975-1989, T.IV., 1981.
- Marcel CHAILLEY, Les grandes missions françaises en Afrique Occidentale, Dakar, Initiations africaines, I.F.A.N., 1953, 145 p., p. 103.
- Hubert DESCHAMPS, L' Europe découvre l'Afrique. Afrique Occidentale .(1794-1900), Edition Berger-Levrault, Paris, 1967, 282 p., p.155.
- GILLIER (Commandant breveté), La pénétration en Mauritanie, Paris, Librairie orientaliste, Paul Geuthner, 1926, 359 p. , pp.80-84.

Algérienne et Coloniale , 3ème série, n°4, octobre 1860, pp. 443-494.

9 - BOU EL MOUGDAD, "Voyage par terre entre le Sénégal et le Maroc, *Revue Maritime et Coloniale*", 1er semestre, mai 1861, pp. 477- 494, pp.493- 494.

10- انظربهذاالشان:

-GILLIER, Commandant breveté, La pénétration en Mauritanie, op. cit. , p.93 .
-Henri-Paul EYDOUX , L'exploration du Sahara, Paris, Gallimard, 1938, 242 p.,p.19 .

11-تقرير رحلة پول صولبي إلى آدرار المحفوظ بمركز أرشيف ما وراء البحار:

Archives Nationales de France Centre des Archives d'Outre-Mer, Série: Missions, carton 2, Rapport à Monsieur Le Ministre des Travaux Publics sur le voyage de Saint-Louis à l'Adrar, Décembre 1879-Mai 1880, 154 p., dossier Paul SOLEILLET , pp. 20-21.

12- المصدر السابق، صص. 20.19 .

13- المصدرالسابق، ص. 21 .

14-محمد المصطفى بن الندى، "من وحي التاريخ ... " مرجع سابق.

15.اعتمدنا في معظم معلوماتنا المتعلقة بسيرة الرجل على:

Archives Nationales du Sénégal (A.N.S.), Notes autobiographiques de DOUDOU SECK (Bou El Mogdad), 35 p., dossier Bou El Mogdad.

16-يقول ابن المقداد في الحنين إلى منطقة إيكيدي الواقعة بالجنوب الغربي الموريتاني التي نشأ ودرس بها:

سلم على إيكيدي إن جنته وحيه مني على بعده
وقل له إني مقيم علـــى ما يعلم الرحمن من وده

ويقول متغزلا (بالحسانية):

يكطع بيك أنت يا الشيطان مذالك عايد لي وحل
شدّور اف شيباني سدان ما يتمنك زغب كحل

17-حول هذه المهمة تمكن مراجعة :

Archives Nationales de France, Section d'Outre-Mer (A.N.F.S.O.M), Série: Missions:
Carton 3: Missions dans le pays des Maures (1889-1892), dossier FABERT.
Carton 4:

18- DOUDOU SECK (Bou El Mogdad), Notes autobiographiques, op. cit.,pp. 15-16.

19. بخصوص تلك المهمة يمكن الرجوع إلى:

Archives Nationales de France Section d'Outre-Mer (A.N.F.S.A.O.M.):
+ Séries: Affaires Politiques, Carton 2711, Mission BLANCHET dans l'Adrar, dossier 4: rapport de mission.
+ Série géografique: Afrique, Sous-série: Afrique Occidentale Française- III: Explorations, missions et voyages:
- A.O.F. III- 4 à 9: Mission BLANCHET en Adrar.
- A.O.F. III- 4 a: Rapport de Mission, 25 p. dossier BLANCHET.

20- تمكن مراجعة الرواية الفرنسية لتلك الحملة في:

GOURAUD (Le Colonel), La pacification de la Mauritanie, journal des marches et opérations de la colonne de l'Adrar, Paris, Emile Larose, sans date, 287 p.

21- عندما حان الوقت القانوني لاستفادة دودو سك (ابن المقداد) من التقاعد لم يكن يرغب مغادرة مهنته فكتب بذلك إلى صديقه الجنرال چورو الذى تدخل لدى الإدارة الفرنسية في المتروپول من اجل إلغاء قرار إحالة ابن المقداد على التقاعد. وهكذا بقي راتب ابن المقداد جاريا حتى وافاه الأجل المحتوم.

22- Archives Nationales du Sénégal (A.N.S.): Série G: Politique et administration générale, Sous-série 9G: Affaires politiques et administrations musulmanes: 9 G-14: mission du Tagant , rapport de Bou El Mogdad ,15 juin 1894, 12 p.

23- Ibid, pp.7- 8 .

24- هاتان الكتابتان هما: Idaouali في الصفحة رقم 9 من المخطوط و Daouli في الصفحة رقم 11.

25 . راجع حول هذا الموضوع تقرير ابن المقداد المذكور في الإحالات السابقة ومشروع الإتفاقية:

Archives Nationales du Sénégal (A.N.S.): Série G: Politique et administration générale, Sous-série 9G: Affaires politiques et administrations musulmanes: 9 G-9: Projet de traité avec les Maures Chrattit, 7 p., mars, 1894.

26-Ibid, pp.6 et 9 .

سان لوي 15 يونيو 1894
الترجمان الرئيس من الرتبة الثانية الحاج بو المقداد
إلى السيد مدير الشؤون السياسية

السيد المدير،

يشرفني أن اطلعكم على نتائج المهمة التى تفضلتم بتكليفي بها والتى تمثلت في الذهاب إلى تكانت(1) بغية اقتراح معاهدة تحالف على المختار ولد أحمد ولد المختار(2) ملك [أمير] مجموعة اشراتيت(3) البيضانية.

لقد غادرت سان لوي يوم 19 يناير 1894 مع أحمد محمود ولد الفلالي(4) ملك [زعيم] أولاد عايد(5) وسيد أحمد(6) ممثل ولد المختار(7) ومرافقيهما ونزلنا يوم 23 في والالدي(8) التى كان من المقرر أن نرحل منها إلى كيهيدي(9) على متن قوارب بعثة الرائد إيلورست(10) ILLOURST. ونزولا عند الرغبة التى أبداها البيضان بغية الوصول بسرعة إلي كيهيدي، وبعد الاتفاق مع الرائد إيلورست، فقد واصلت السفر معهم براً على خيل زودنا بها شيخ قرية والالدي.

وصلنا كيهيدي يوم 24 يناير وطلب مني قائد المركز أن أعود غدا لاستلام القماش الغيني الأزرق(11) المخصص لولد المختار ولسيد أحمد.

وعندما أكتملت إجراءات سفري، غادرنا كيهيدي يوم 30 يناير لنقضي الليل في مضارب حي أحمد محمود حيث كان ينتظرنا ما بين 200 و300 من فرسان قبيلة اشراتيت جاؤوا لاستقبال سيد أحمد.

وفي غرة فبراير كنا بمخيم توابير آنوازير(12) حيث يوجد محمد صمب (13) أخو أحمد محمود الذى كان سيرافقنا في جزء من هذه الرحلة.

وفي هذا المخيم التقيت كذلك بأحد أبناء بكار(14) يدعى الحسين(15) جاء لاستلام المغرم(16). وقد استقبلت هذا الأمير يوم الثاني من فبراير وكان مرفوقا بحوالي 30 رجلا ولم يكن معي في المخيم وقتها سوى أفراد من اشراتيت لأن سيد أحمد والآخرين نزلوا في مخيم التوابير.

وأثناء تبادلنا التحية، سألني الحسين بوقاحة قائلا :

" أأنت الذى كنت على ما يبدو السنة الماضية في مكة؟ " . فأجبته:

- " نعم ولم هذا السؤال؟ "

- "لاشيئ، فقط للاطلاع ... إنني مندهش جدا لرؤية رجل في مثل ذكائك، وهو ليس فقط مسلما بل أكثر من ذلك حاج، يظهر هذا القدر من الولاء والإخلاص لأعداء الرسول [الفرنسيين] الذين لا يسعون إلا للايقاع بالمسلمين بيضا وسودا [البيضان والزنوج]، ليسطروا على بلادهم."

St Louis, le 15 Juin 1894

L'Interprète Principal de 2e classe El Hadj Baril Mogdad
à Monsieur le Directeur des Affaires Politiques

Monsieur le Directeur,

J'ai l'honneur de Vous rendre compte de la mission dont Vous avez bien voulu me charger, et qui consistait à aller dans le Tagant proposer un traité d'alliance à Mokhtar Ould Ahmet Ould Mokhtar, roi des Maures Chrattit.

Parti de St Louis le 19 Janvier 1894 avec Ahmed Mahmoud Ould Filali, roi des Oulad Aïd, et Sidi Ahmed délégué de Ould Mokhtar, et leurs suivants, nous débarquions le 25 à Oualaldé d'où nous devions nous rendre à Kaédi par les chalands de la Mission Monod. Mais sur le désir manifesté par les Maures qui voulaient arriver rapidement à Kaédi, et après entente avec M. le Commandant de Monod, je continuai mon voyage par voie de terre, sur des chevaux fournis par le Chef de Village de Oualaldé.

Le 28 j'arrivai à Kaédi. Le Commandant du poste me fut de retourner le lendemain toucher la guinée restinée à Ould Mokhtar et à Sidi Ahmed.

Mes préparatifs terminés, nous sommes partis de Kaédi le 30 Janvier et avons passé la nuit au campement d'Ahmed Mahmoud où nous attendaient deux à trois cents guerriers Chrattit venus au devant de Sidi Ahmet.

Le 1er Février nous étions chez les Toualins Amouazir où se trouvait Mohammed Samba, frère d'Ahmed Mahmoud

Ami

إبرا المامي(17) إلي مكة على نفقة الدولة [يعني فرنسا] والهدايا الكثيرة التى تقدم كل سنة إلى الشيخ سعدبوه(18)؛ وبأن الفرنسيين هم أولياء نعمتي وحماة جنسي [عرقي]، وبخدمتي لهم بكل قواي فإنني لن أرد لهم 1٪ مما قدموه من أجلي. وقد نسي الحسين نفسه، عندما تكلم عن الدين، أن القرآن يأمر صراحة بالوفاء والإخلاص لأهل الكتاب كما للمسلمين.

وأمام موقفي، وخشية تدخل سيء العقبى من قبل اشراتيت، رأى الحسين من الحيطة أن يغير موضوع الحديث فتمنى لي مقاما سعيدا وهنأني بوصفي حاجا. وفي الأخير، وقبيل خروجه، طلب مني أن أهديه بارودا وتبغا وأقمشة [ملابس] لأتباعه. ولم يكن الأسلوب الذى عاملني به قبل قليل ليستدر كرمي نحوه فلم يحصل مني إلا على قليل من التبغ للتدخين.

وفي 3 فبراير دخلنا آفطوط(19) وهو سهل كثيرالأشجار والحصى. وبعد ثلاثة أيام من السير وصلنا مخيما من أتباع اشراتيت حيث أصابتني حمى شديدة أجبرتني على قطع رحلتي. وعندما تماثلت للشفاء في ظرف 15 يوما، حاولت استئناف السفر غير أن نوبة أخرى [من الحمى] أقعدتني عدة أيام في مخيم أهل هنون(20) (اشراتيت). وفي هذا المخيم، علمت أن سيد أحمد لم يكن ابنا لولد المختار، فغضبت كثيرا واستدعيت الراضي(21) في خيمة منعزلة وأنبته على التمالؤ مع ولد المختار لخديعتنا بشكل غير لائق، وبينت للراضي أنه هو وولد المختار قد فقدا إلى الأبد ثقة وتقدير الوالي [الفرنسي على السنغال]. أما بالنسبة لي أنا فسأواصل رحلتي مهما يكن الأمر.

لقد أبكت تلك التهمة الراضي الذى أراد أن يحتج لكنني، وتحت تأثير الغضب الذى يمكن تفهمه بسهولة، رفضت أي حديث معه طوال ثلاثة أيام. وبعد ذلك، وأمام توسلاته الملحة قررت الاستماع إليه، فقال لي:

"لقد غادرت أرض اشراتيت إلى أصقاع نائية منذ الصغر حيث انقطعت عني جميع الأخبار الواردة من أرض البيضان. وكان رجوعي إلي منطقة اشراتيت عائدا إلي ظروف خارجة عن إرادتي مما جعل اطلاعي على الأوضاع السائدة غير كاف. وقد فهم ولد المختار جيدا أهمية دوري في العلاقات التى يقيمها مع الوالي [الفرنسي على السنغال] فقدم لي هذا الشاب [سيد أحمد] على أنه ابن له كامل الصلاحيات في التعامل مع الوالي، ولم يخامرني الشك أبدا في حسن نوايا ولد المختار. وهكذا وباقتناعي التام أن هذا الشاب ابنه، قدمته للوالي على ذلك الأساس".

وقد أقسم الراضي بالقرآن أنه:

- يجهل كون سيد أحمد ليس من ابناء ولد المختار؛
- أن سيد أحمد كان في الحقيقة مبعوث ولد المختار.

وقد اقتنعت فيما بعد بأن الراضي لم يكن متمالئا مع ولد المختار، وبأن حسن نيته قد جعل المغالطة تنطلى عليه مثلما انطلت علينا.

في إدوعيش) (23). وأخوه بكار ولد ابراهيم ولد أعمر ولد امْحمد شين(24) الذى هو الآن زاوِ، سبق أن جُرح في حرب داخلية، وهو يقاتل إلى جانب الرسول ولد اعلي(25) والد الشيخ بن الرسول(26)، الذى كان حينئذ ملك [أمير] اشراتيت، ضد منافسه ولد المختار.

أما أمّ سيد أحمد فهي بنت بوسيف ولد بكار ولد اعْلى ولد امْحمد شين(27) وقد تزوجها أولا الأخ الأكبر لأمير اشراتيت عثمان ولد المختار(28) وأنجبت له أطفالا عديدين قبل أن يغتاله كنته(29).

وقد تزوج ولد المختار خالة سيد أحمد فأنجبت له ابنتين إحداهما تزوجها ولد الرسول والأخرى تزوجها شريف ذو نفوذ في الأحواض(30).

وعندما وصلت إلى مخيم ولد المختار استقبلني ابنه وانزلني في خيمة أعدت خصيصا لضيافتي ورحب بي باسم والده مؤكدا أنني أستطيع الاعتماد عليهم في كل شيء. وفي الغَد، زارني ولد المختار.

وفي المساء استدعيت إلى المسجد حيث يجتمع شيوخ ووجهاء اشراتيت. وبعد التحية ومصافحة العديد من الأيدى عبروا لي عن الفرحة التى يشعرون بها وهم يستقبلون ليس فقط مبعوثا من الوالي، بل أيضا حاجا وهي رتبة يوقرها ويغبطها كل المسلمين.

وبعد أن شكرتهم على حرارة الاستقبال وحييتهم باسم الوالي ومدير الشؤون السياسية، سلمت لولد المختار الرسالة(31) الموجهة إليه فقَرئت على الفور. وقد أومأ إليَّ الأمير ورجاني خفية ألاّ أظهر المعاهدة(32) أمام ذلك الملأ. ولم تكن توصيته ضرورية فلم أكن مصرا على أن أقدم تلك الوثيقة أمام هذا الجمع الذى لا أعرفه والذى يوجد ضمنه العديد من المحاربين والزوايا الغرباء.

وبعد ثلاثة أيام استقبلني ولد المختار بحضور ابن عمه ولد الرسول(33) وبعض الأمراء الآخرين فسلمته المعاهدة التى قرأها أحد الزوايا ممن يثق فيهم [ولد المختار]. فرأوا جميعا أن هذه الوثيقة تحتوي على بنود سيكون من الصعب عليهم تنفيذها وبالتالي ينبغي إعادة النظر فيها بعناية. وقد طلب مني ولد المختار إعطاءه مهلة ثلاثة أيام للتشاور مع مبعوثين من ولد عيدّه(34). وبعد انقضاء المهلة أخبرني أمير اشراتيت [ولد المختار] أن ابن عمه المختار بن عثمان ولد المختار(35) سيصل عما قريب وأن عليه انتظاره لنقاش وتوقيع المعاهدة. ولم يكن المختار بن عثمان هذا إلا قاتل عبدول ببكر(36) سنة 1891.

وأمام هذا التردد المحبط، ساورتني بعض الظنون بأن ولد المختار لا يرغب في توقيع المعاهدة ولكن سرعان ما تبيّن أنني مخطئ. لقد كان كل وقت هذا الأمير مستغرقا في تسوية أمور مستعجلة: مشكلة جنائية بين أهل سيد محمود(37)، خلاف مع بكار حول الضرائب التى قد يكون ولد المختار جباها من أبكاك(38).

وقد تم توقيع المعاهدة في 21 مارس وأثارت موادها رقم 5 ، 12 ، و19

" كلما احتاجت الحكومة الفرنسية جمالا لتشكيل فرقة [عسكرية] أو للقيام بعمليات نقل، فإن زعماء اشراتيت سيزودونها بتلك الجمال مقابل مكافأة مالية يومية تبلغ 2، 5 فرنك عن الجمل على أن يكون مع كل جمل جمّاله".

لقد أعلن ولد المختار أنه لا يستطيع تنفيذ هذا البند عند الحاجة متذرعا بأن البيضان لا يطيعون زعماءهم بسهولة.

المادة 12

" إن السود [الزنوج] المقيمين أو الذين سيقيمون في منطقة مقامه(40) أو في أية ناحية من جزء الضفة اليمنى الذى يشهد الفيضان السنوي، وكذا البيضان المستقرين [بالمنطقة] سيتبعون فقط لسلطة المسؤولين المعينين من قبل الوالي " [الفرنسي على السنغال].

ادّعى ولد المختار بأن مقامه تابعة له فهي بعيدة عن النهر وأنه هو الذى سمح للشيخ محمدو(41) بالإقامة بها لما يتمتع به هذاالمرابط [الزاوي] من نفوذ لدى أصهاره اشراتيت. ولم يشأ ملك [أمير] اشراتيت أن يصادق على هذا البند.

المادة 19

" تلتزم الحكومة الفرنسية بدفع خمسمائة قطعة من القماش الغيني الأزرق سنويا للمختار ولد المختار ومائتي قطعة لولد الرسول ولد اعلى بن امحمد شين وذلك مقابل التنازل عن ضريبة تصدير الصمغ ".

لقد طلب ولد المختار دون إلحاح كبير رفع ضريبته العرفية من 500 إلى 600 قطعة قماش، مثلما كان يعطى في السابق لبكار. أما ولد الرسول فيصر بإلحاح(42) على أن يُعطى على الأقل ما بين 400 و500 قطعة من القماش. وكان طلبه من الجدية بحيث بعث أخاه محمد ولد الدي(43) إلى كيهيدي لمقابلتكم [يعنى مدير الشؤون السياسية] أثناء مهمتكم في فوته.

وبإيجاز فإن الملاحظات الأكثر أهمية بالنسبة لولد المختار تتعلق بمسألة مقامه وبالنسبة لولد الرسول تتعلق بالضريبة العرفية. أما باقي المعاهدة فلم يثر أي نقاش.

وخلال مختلف لقاآتي مع ولد المختار حرصت على أن أبرز له المزايا [!] التى سيحصل عليها ببقائه وفيا للتحالف معنا [يعني الفرنسيين] وأوضحت له أن نفوذنا ينمو باطراد من البحر إلى الصحراء لدى البيضان ولدى الزنوج معا، وأن دعمنا المعنوي الذى كفى وحده لتنصيب أحمد سالم(44) أميرا على الترارزة، كفيل بأن يحقق له [للمختار بن المختار] النصر يوما ما على أعدائه [!!] أبكاك. وأكدت له أن هدفنا الوحيد هو تنمية العلاقات التجارية وأننا لا نرغب في التدخل في المسائل الداخلية للبيضان. وأخذت منه تعهدا بالمجيئ إلى النهر عندما يستطيع للتباحث مع قائد مركز كيهيدي حول مسائل مهمة(45). وقد وعد بالحضور في الموعد خلال فصل الصيف ما لم يحل مانع دون ذلك.

إن التحالف الذى عقدناه مع اشراتيت يثير غيرة وغضب أبكاك الذين كان

لتي يخوضها ضد ولد عيده. كما أن علاقات بكار مع ولد المختار متوترة جدا جراء مساندة بكار لكنته أعداء اشراتيت. وكان كنته يحاولون الاستقرار بتكانت غير أن الغزاة [!] (47) وقت مغادرتي للصحراء أصبحوا يشعرون بفتور في دعم بكار لهم فبدأوا يلجأون إلى الحوض(48) هربا من اشراتيت الذين ينهبونهم باستمرار.

أما حلفاء ولد المختار فهم أهل سيد محمود وعددهم يمثل ضعف عدد اشراتيت، غير أنهم مع الأسف منقسمون فريقين متعارضين تحاربا مؤخرا هما: أهل سيد محمود الشرقيون وزعيمهم سيد المختار(49)، وأهل سيد محمود الغربيون وزعيمهم سيد محمد(50). وهذه الطائفة الأخيرة حلفاء ولد المختار. ومع أن أهل سيد محمود الغربيين قاتلوا مع أبكاك ضد آدرار، فإنهم شديدو الكراهية لرعايا بكار ولا يغفرون لهم مساندتهم لكنته ضد ولد المختار.

ورغم تمتعه بعلاقات حسنة مع أمير اشراتيت فإن زعيم أهل سيد محمود الشرقيين الذى بقي محايدا في الحرب ضد آدرار، شديد التعاطف مع بكار الذى يشاطره كراهية أهل سيد محمود الغربيين(51).

إن ولد المختار لا يريد أكثر من أن يعيش في سلام مع آدرار شريطة أن يقطع ولد عيده صلاته بكنته قاتلي عثمان ولد المختار أخي أمير اشراتيت وصهر كل من سيد أحمد وإبراهيم ولد اعلي وابنيه والعديد من أمراء اشراتيت الآخرين.

وخلال مقامي في تكانت لاحظت نوايا ولد المختار الطيبة تجاه أمير آدرار. فعند ما قرر أبكاك القيام بحملة ضد هذا الأمير واستدعوا ولد المختار للمشاركة فيها فإنه لم يكتف بالرفض القاطع، بل أوفد زوايا ليشعروا ولد عيده وكان وقتها بمنطقة تيرس صحبة أمير الترارزة. وللأسف وصله المبعوثون بعد فوات الأوان. فقد توغل جيش بكار حتى وصل شنقيط(52) ونهب أسرتين أو ثلاثا من إدوعلى(53) وتكنه(54) (تجار من الزوايا) وكانت قيمة الغنيمة تقدر ب 500 قطعة من القماش الغيني الأزرق.

وهنالك مشروع زواج بين ولد عيده وابنة أمير اشراتيت الذى يصر على أن يقوم زعيم آدرار بطلب يد ابنته بواسطة سفارة رسمية وليس كما فعل ولد عيده عن طريق رسالة بسيطة يحملها زوايا عاديون. وهذا القران الذى لن يتأخر عقده سيشكل دليل تحالف وثيق بين البلدين [آدرار وتكانت].

لقد تمكنت، بواسطة الهدايا والحصافة، من الحصول على ثقة واحد من أبكاك ومن أقرباء بكار. ويبدو أن سلطة الأمير العجوز أصبحت مهزوزة بسبب دسائس عائلته التى باتت شبه علنية. وأهم المحرضين ضده هم: سيد أحمد لبات ولد محمد بن اسويد أحمد(55) ابن أخي أمير أبكاك، وبونه ولد المختار ولد أسويد أحمد(56) ابن عمه وهو شاب أنيق وذكي جدا عاملني معاملة جد طيبة خلال رحلتي، هذا بالإضافة إلى أمراء آخرين لا أعرف أسماءهم. إن الحرب الداخلية(57) التى تهدد أبكاك لن تسمح على مايبدو لبكار بتنفيذ مشروعه بالثأر منا عن طريق قطع الإتصالات عبر الصحراء مع المحطات التجارية النهرية.

سيعهد إليه بقطع طريق كيهيدي، وأحمد ديّه (62) الذى سيقوم بقطع طريق صالدي(63)، لكن أمير أبكاك [بكار] لم يضع في الحساب اشراتيت وحلفاءهم أهل سيد محمود الغربيين الذين لن يسمحوا له بالتأكيد بأن يقطع المبادلات التجارية حسبما يحلو له. لقد تنازل إدوعيش عن طريق باكل منذ إرسال حملة عسكرية [فرنسية] إلى گيديماغه(64).

إن إدوعيش الذين تعرضوا للتأديب القاسي أكثر من مرة من طرف السودان(65)قد استقبلوا بما يشبه الفرح نبأ انفصال هذه المستعمرة عن السنغال آملين أن يتمكنوا من الانتقام دون خشية من تدخل وُالي سان لوي في اللعبة. وقد رغبوا في أن يطلبوا من الوالي منحهم إشارة الضوء الأخضر بهذا الشأن. لكنني أفهمت ولد المختار بأن تلك مسألة مستحيلة، فبالرغم من أن السنغال والسودان يؤلفان حكومتين متمايزتين إلا أنهما يتبعان لقوة واحدة هي فرنسا وأنه بمهاجمته لأحد هذين البلدين فإنه يعلن الحرب على فرنسا وبالتالي على جميع رعاياها.

لقد كلفني ولد المختار أن أطلب من الوالي أن يهتم جديا بمسألة گيديماغه الحساسة(66) وأن يجد لها حلا سريعا. إن حل هذه المسألة التى لا جدال في استعجالها يمكننا من الحصول على كل الإمتيازات التى يحق لنا انتظارها من المعاهدة التى وقعها معنا للتوّ ولد المختار زيادة على كونه يخرجنا من وضعية غريبة وهي تتمثل في أمتين تتصارعان بيد بينما توقعان باليد الأخرى معاهدة تحالف وصداقة.

عندما علم البيضان، عن طريق قافلة من الزوايا عائدة من باكل، بنبأ احتلال تنبكتو(67) أبدوا مفاجأتهم وهم يروننا [يعني الفرنسيين] بهذه الدرجة من القوة والإقدام. وحتى مغادرتي لتگانت لم يكن أحد على علم بتحطيم حملة بونّيي(68) في غوندام(69). ذلك أن البيضان الخاضعين لنفوذنا منهمكون في مصالحهم الصغيرة وصراعاتهم الداخلية المستمرة مما يجعلهم لا يبالون كثيرا بأحداث تقع في أماكن بعيدة عنهم مثل تنبكتو.

إن البيضان، وهم مسلمون متزمتون، لا يرغبون أبدا في أن يوجد بينهم أو حتى أن يعبر أراضيهم من لا يطبق تعاليم القرآن. كما أنهم قليلا ما يحترمون ممتلكات وحياة الآخرين(70). ولذا فهم يجعلون عبور الصحراء محفوفا بالمخاطر بالنسبة للمسافرين المنعزلين، القليلي العدد أو غير المسلحين تسليحا جيدا. وإذا أضفنا إلى تلك الصعوبات، ندرة نقاط المياه خلال فصل الصيف، تكونت لدينا فكرة أولية عن الخطر الذى يتعرض له من يسافر عبر بلاد البيضان دون أخذ الاحتياطات اللازمة.

وتسيطر قبيلة تجكانت(71) تقريبا على تجارة الصمغ في تگانت. فاشراتيت نادراً ما يمارسون التجارة ومع ذلك فهم يبيعون لسكان الضفة اليسرى الخيل والضأن والدخن. كما كانوا يبيعونهم الرقيق في الماضي لكن هذا الصنف من المتاجرة أصبح خطيرا بالنسبة لهم وقد اختفى بشكل شبه تام من المناطق القريبة من محطاتنا.

ويقايض اشراتيت بضائعهم تلك بالقماش الغيني والسكر والبنادق والذخيرة.

وكما قلت آنفا فإن اشراتيت يبيعون للزنوج الدخن الذى يزرع في تكانت بكميات كبيرة خاصة في سهل باركويل(75) وجب آفطوط(76) الواقع على بعد مسيرة أربعة أو خمسة أيام من كيهيدي وكذلك في الطرطيگه(77) وفرواجه(78) وأشرم(79) وآدريريم تكانت(80). وأثناء فصل الأمطار فإن جميع الأراضي التى تغمرها مياه فيضان النهر تتم زراعتها بعد تراجع المياه. إن المراعي الكثيرة التى توجد في آفطوط وهو سهل يقع على بعد مسيرة يوم ونصف من الرگ(81) تجتلب من ناحية إلى مايو الشرفاء وهم زوايا ينتسبون إلى محمد [صلعم]. كما أن نقاط المياه عديدة وتوجد بتكانت على مدار السنة. إلا أن طريق وادي گورگول(82) مهجورة.

وتقوم قبيلة إدوعلى الزاوية بزراعة القمح والشعير في نواحي تجگجه(83)- وهي المدينة الوحيدة المشيدة في تكانت - التى يتوافد إدوعيش إلى ضواحيها أثناء موسم حصاد التمر. وهو منتوج نادر في أرض اشراتيت ومخصص لاستهلاكهم مما جعلهم يستجلبونه بكثرة من آدرار.

لقد حاولت دون جدوى الحصول على معلومات حول كديت "المشري"(84) شمال جبال پوموساس(85) بتكانت. فليس هنالك بيضاني واحد يعرف هذين المرتفعين الجبليين. وإذا كانت كلمة "كديت" تعني الجبل إلا أن الكلمة المرافقة (المشري) ربما تكون كتبت على الخرائط(86) بشكل محرف. وعلى كل حال فإن البيضان لا يعرفون تلك الكلمة كما أنهم لم يسمعوا قط الحديث عن مرتفعات پوموساس، بل إن الحرف "P" [پ] لا يوجد في اللغة العربية.

وما يزال بعض البيضان الطاعنين في السن يذكرون، بشكل غامض ودون أن يتمكنوا من تحديد التاريخ بالضبط، أن بكار رغم معارضة الوجهاء الصارمة قد استقبل حينها بتجگجه أوروبيا من المحتمل أن يكون ماج(87) (Mage).

وفي النهاية، اسمحوا لي، سيدي المدير، أن أعبر لكم عن سعادتي وامتناني للثقة التى كنت موضعا لها من قبل الوالي عندما كلفني بالمأموريتين المهمتين في آدرار سنة 1892 وفي تكانت سنة 1894. وهما المهمتان اللتان يسعدني تكللهما بالنجاح. وهذه الإنتصارات تثير الأمل في نفسي بأنني، في يوم من الأيام، إذا تطلبت الظروف ذلك، سأستطيع، بفضل معرفتي لبلاد البيضان وخاصة بوصفي حاجا وهو لقب يوحي بالثقة لدى كل مسلم، أن أساهم في توسيع نفوذنا [يعني الفرنسيين] السياسي والتجاري في البلاد الواقعة بين آدرار والمغرب والجزائر.

مع أسمى التقدير والإحترام

سيدي المدير،

خادمكم الوفي.. التوقيع بو المقداد

(النص الفرنسي الأصلي)

montagne de, mais le mot suivant "Mercheri" a dû être mal
sur les cartes les Maures ne le connaissent pas, ils n'ont jamais
ndu parler que de Mont Poumolissas. Du reste la lettre P est inv
uer en arabe.

Quelques jours plus tard, également Vendredi, sans toutes
fois préciser l'époque, Qui Bakir, malgré une défense
elle des notables, reçut autrefois à Tijigja la visite d'un voyageur
ançais, Mage probablement.

En terminant, veuillez me permettre, Monsieur le Directeur, de
dire que je suis fier et reconnaissant de la confiance que m'a
ugurée M. le Gouverneur en me changeant des missions importantes
'avais eu en 1892 et du Gadamès en 1894, missions que j'ai eu le
heur de mener à bonne fin. Ces succès me font espérer qu'en
ofitant des circonstances favorables je pourrai, grâce à ma
ituation dans le pays Maure et surtout à mon titre de "Hadj" qui
inera confiance à tout musulman, aider à l'extension de notre
uence politique et commerciale dans les pays situés entre l'Algérie,
Maroc et le Soudan.

Je suis avec un profond respect,

Monsieur le Directeur,

Votre très obéissant serviteur,

Signé : Bou El Mogdad.

1- تكانت: تعني الغابة بالبربرية وهي منطقة مرتفعة تحيط بها الجبال من مختلف الجهات. وتكانت الآن إحدى الولايات الموريتانية توجد في وسط البلاد وعاصمتها مدينة تجكجه. غير أن تكانت عند رحالي القرن التاسع عشر كانت أكثر اتساعا من امتدادها الحالي حيث كانوا يدمجون داخلها ـ كما فعل ابن المقداد ـ منطقتي العصابة وآفطوط المجاورتين لها.

2 -المختار ولد أحمد ولد المختار: هو زعيم اشراتيت وقد نافس ابن عمه الرسول بن اعلي بن امحمد شين فانتزع منه الإمارة. كان يحصل على الاتاوات من الفرنسيين إلا أنه هاجر إلى المغرب بعد احتلالهم للبلاد وتوفي في المهجر.

3- فتنة إدوعيش المنافسة للأمير اسويد أحمد ولابنه بكار من بعده. ويرجع ظهور هذه الفتنة إلى انقسام إدوعيش إثر وفاة أميرهم محمد بن امحمد شين سنة 1821 حيث تشكلت من أنصار المختار ويوسيف واعلي. وكان يدعمهم أهل سيد محمود. وستحمل هذه الفتنة في وقت لاحق اسم اشراتيت. للمزيد من المعلومات، راجع:

ـ بابه بن الشيخ سيدي، إمارتا إدوعيش: مشظوف، دراسة وتحقيق إزيد بيه بن محمد محمود، نواكشوط، 1992، 292 ص.

- Abdel Wedoud OULD CHEIKH, Nomadisme, Islam et Pouvoir politique dans la Société maure précoloniale. Essai sur quelques aspects du tribalisme, thèse pour le doctorat en sociologie, Université Paris V, 1985, 3 t., 1056 p., pp. 324 et suivantes.
-AMILHAT (Pierre), "Petite chronique des Idouaich, heritiers guerriers des Almouravides sahariens", *Revue des Etudes Islamiques*, n°1, 1937, pp. 41-130.

4- لم نتمكن من الحصول على معلومات عن حياة هذا الرجل.

5-أولاد عايد: إحدى قبائل أولاد رزك من ضمن المجموعات العربية التي وصلت إلى الصحراء الموريتانية قبل مجيئ المغافرة. ويضم أولاد عايد على الخصوص بعض العائلات من الكتيبات. وقد أسفرت معركة انتيتام سنة 1040 هـ / 1630 م عن خضوع أولاد عايد لنفوذ المغافرة.

6-هو سيد أحمد بن إبراهيم بن اعلي بن امحمد شين أحد زعماء اشراتيت.

7 - هو المختار بن أحمد بن المختار الذي سبقت الإشارة إليه في الإحالة رقم 2 . وسيكتفي ابن المقداد في جل هذا النص بتسميته ولد المختار.

8-والالدي: قرية تقع على بعد حوالي عشرين كيلومترا شرقي بوغيه على الضفة اليسرى للنهر.

التاسع عشر. تعتقد لم إنشاء دائرة قدم / صالدي سنة 1890 كان القبب الفرنسي الذي يقود تلك الدائرة مقيما في ديهيدي التي أنهى الفرنسيون بناء أول حصن لهم بها في دجنبر سنة 1891 .

10- لم تمكّنا مصادرنا بعد من معرفة شيئ عن هذه البعثة ولا عن صاحبها الذي يبدو أنه ضابط بحرية فرنسي يوجد حينئذ في منطقة حوض النهر.

11- نسيج قطني يسمى محليا "النيله" ويسميه الفرنسيون "La guinée" ، ربما لأنهم كانوا يستخدمونه منذ القرن السابع عشر وسيلة للتبادل مع الزنوج وغيرهم من سكان المنطقة.

12- احدى المجموعات القبلية بطوريا معروفة في مختلف أنحاء البلاد. راجع بهذا الخصوص: المختار بن حامد، موسوعة حياة موريتانيا (الجغرافيا)، منشورات معهد الدراسات الإفريقية بالرباط (جامعة محمد الخامس)، 1414/1994، 348 ص.، ص.40.

13- لم نتمكن من الحصول على معلومات أخرى حول حياة هذا الرجل.

14 - بكار ولد اسويد أحمد: أحد أعظم وأقوى أمراء إدوعيش، وربما البلاد الموريتانية قاطبة. تجاوز نفوذه أبكاك ليصبح في بعض الأحيان زعيما لإدوعيش قاطبة. وقد تمكن من السيطرة على محطة باكل (Bakel) النهرية والحصول منها على امتيازات كثيرة ساعدته في كسب المزيد من السمعة واكتساب المزيد من الأنصار. وكان يمارس نفوذا قويا على قسم كبير من المناطق الداخلية خوض نهر السنغال الأعلى. تصدى بكار في أخريات أيامه للتوغل الفرنسي في البلاد واستشهد سنة 1905 وهو يحارب الفرنسيين.

15- الحسين بن بكار بن اسويد أحمد، نصبه الفرنسيون على أبكاك بعد مقتل أبيه خلال فترة شغور منصب الأمير التي استمرت عدة سنوات. وبعد عودة عبد الرحمن من آدرار عينوه أميرا وتركوا للحسين سد كهميت مقابل تخليه عن الزعامة.

16- ضرائب عرفية كان الفرنسيون يمنحونها للزعماء المحليين مقابل تسهيل وتأمين المبادلات التجارية في المنطقة. وتدفع هذه الضرائب العرفية في شكل حوائج مختلفة يأتي في مقدمتها القماش الغيني الأزرق.

17- أحد الزعماء الدينيين المؤثرين في منطقة لاو (Lao) الفوتية خلال منتصف القرن التاسع عشر.

18- الشيخ سعدبوه بن الشيخ محمد فاضل بن مامين القلقمي (توفي سنة 1917)، من أعيان البلاد الموريتانية، وأحد أبرز مشايخ الطريقة القادرية. تجاوز نفوذه موريتانيا حيث يوجد له أتباع كثر في غرب إفريقيا، خاصة في السنغال.

19- منطقة سهلية تمتد من شمامه جنوبا إلى مرتفعات هضبة تكانت شمالا ومن مرتفعات العصابة شرقا إلى أكان غربا وتتخللها مرتفعات صخرية.

20- نسبة إلى هنون بن احليس (أولاد اعلي انتوفف) من أفخاذ مجموعة اشراتيت.

21- ربما يكون الراضي بن اعثيمين بن المختار وهو أحد مطربي قبيلة اشراتيت.

22- نسبة إلى محمد بن امحمد شين بن بكار بن أعمر الذي تزعم إمارة إدوعيش بين سنتي 1793 - 1821 م. وهم بيت الإمارة في إدوعيش. وقد استكمل امحمد شين استقلال الإمارة عندما وضع حدا لغرامة كان إدوعيش يدفعونها سنويا لأولاد امبارك.

إدوعيش بمنطقة تكانت. ويتكون إدوعيش من قبائل وبطون متعددة.للمزيد من التفاصيل عن إمارة إدوعيش، راجع:

- بابه بن الشيخ سيدي، إمارتا إدوعيش ،مشظوف، مرجع سابق.

- Abdel Wedoud OULD CHEIKH, Nomadisme, Islam et Pouvoir politique... op.cit.
- Pierre AMILHAT," Petite chronique des Idouaich, heritiers guerriers ...", op.cit.

24- أحد زعماء قبيلة اشراتيت.

25- هو الرسول بن اعلي بن امحمد شين، خليفة بكار بن امحمد على زعامة اشراتيت. نافسه على الزعامة ابن عمه المختار بن أحمد بن المختار بن امحمد شين وأرغمه ـ بعد معارك عديدة ـ على التنازل عن الإمارة لصالحه. والرسول هو زعيم فرع أهل اعلي بن امحمد شين.

26- هو الشيخ بن الرسول بن اعلي بن امحمد شين أحد زعماء اشراتيت.

27- أحد زعماء قبيلة اشراتيت.

28-أخو أمير اشراتيت، تزعم معارضة اشراتيت لتولى سليمان بن امحمد شين الإمارة خلفا لأخيه اسويد أحمد، قتله كنته في معركة الركيز سنة 1830 .

29- قبيلة موريتانية ترفع نسبها إلى عقبة بن نافع. وهي تنتشر في مختلف أنحاء البلاد الموريتانية وكذلك في العديد من بلدان المنطقة. وكانت قبيلة كنته في أغلب الأحيان حليفا لمجموعة أبكاك.

30- نستبعد أن يكون الأمر متعلقا ببلدة لحويطات الواقعة على بعد 18 كلم شمال غربي تجكجة بدليل عدم وجود شرفاء في تلك البلدة ونعتقد أن المسألة تعني الأحواض أي الحوضين (الشرقي والغربي) حيث توجد قبائل عديدة ترفع نسبها إلى أصول شريفة.

31- لم تحدثنا مصادرنا عن محتوى تلك الرسالة، إلا أننا نعتقد أن لها صلة بالإتفاقية التى سيوقعها اشراتيت مع الفرنسيين، والتي يحمل ابن المقداد مشروعها.

32-ربما يكون تخوف المختار بن أحمد بن المختار زعيم اشراتيت من تقديم وقراءة مشروع الإتفاقية أمام هذا الملإ المتنوع المشارب عائدا إلى أن المشروع يتضمن من بين أمور أخرى وضع اشراتيت تحت الحماية الفرنسية.

33- هو ولد الرسول بن اعلي بن امحمد شين. كان والده زعيم اشراتيت غير أن المختار بن أحمد بن المختار انتزع منه الزعامة، لكن ولد الرسول استعاد جزءا من تلك الزعامة وأصبح يشارك المختار ولد أحمد ولد المختار في تسيير أمور اشراتيت. ويبدو ذلك جليا من خلال معاملة الفرنسيين لهما أثناء مهمة ابن المقداد هذه، وكذلك في مشروع الإتفاقية التى يحملها.

34- هو أحمد بن سيد احمد بن احمد بن سيد احمد بن عيده ، أحد أمراء آدرار. تولى الإمارة سنة 1891 وحتى سنة 1898

35- أحد زعماء اشراتيت توفي في آدرار وهو عائد من الجنوب المغربي حيث كان مهاجرا مع عمه المختار ابن أحمد بن المختار.

في المنطقة. وتم اغتياله سنة 1891 من طرف اشراتيت.

37- مجموعة قبلية كبيرة تتمركز في منطقة العصابة وترجع جذور ها إلي المرابط سيد محمود (ت.1786) الذى جاء إلي المنطقة مهاجرا من وادان. وقد شكل المرابط سيد محمود مركز استقطاب جذب العديد من المجموعات البشرية المختلفة وخاصة بعض عناصر إدوعيش. وخلف المرابط سيد محمود ثلاثة أبناء هم عبد الله ومحمد الراضي ومحمد، كونوا مجموعة أهل سيد محمود الكبيرة ذات الشوكة والعلم. راجع: محمذن بن باباه، تقديم وتحقيق نصوص من التاريخ الموريتاني للشيخ محمد اليدالي، المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات، بيت الحكمة، قرطاج، تونس، 1990 ، 224 ص.، ص 131، الإحالة رقم 83 .

38- إحدى المجموعتين اللتين بدأتا التشكل إثر انقسام إدوعيش بعد وفاة الأمير محمد بن امحمد شين سنة 1821. وقد تزعم هذه الفئة التى ستدعى لاحقا بأبكاك اسويد أحمد بن محمد. واستأثرت هذه المجموعة لنفسها بالمركز الجغرافي لإمارة إدوعيش وهو هضبة تكانت وبرموز السلطة الأميرية. راجع:

Pierre AMILHAT." Petite chronique des Idouaich..." , op.cit.

39- إن التحفظات التى أبداها زعماء اشراتيت حول بعض بنود هذه المعاهدة وهجرة المختار ولد أحمد بن المختار زعيم اشراتيت إلى المغرب بعد احتلال الفرنسيين للبلاد تطرح تساؤلات بشأن هذه المعاهدة.

40- يتعلق الأمر بمنطقة مقامه الواقعة بين كيهيدي وسيلبابي وهي منطقة زراعية خصبة وكانت مجالا لنفوذ إمارة إدوعيش.

41- هو الشيخ محمدو مادو(Cheik Mahmadou) إحدى الشخصيات السنغالية ذات النفوذ في حوض النهر وربطته علاقات قرابة ومصاهرة مع أسرة ابن المقداد وقد قتله عبدول بيكر سنة 1890.

42- أمام إلحاح الشيخ ولد الرسول، وبعد عودة ابن المقداد إلى كيهيدي أضيفت الملاحظة التالية إلي نص المعاهدة الموقعة مع اشراتيت: "إن كمية القماش الغيني الأزرق المخصصة لولد الرسول ولد اعلي ولد امحمد شين سترتفع إلى ثلاثمائة قطعة، وتمكن زيادتها، تبعا لزيادة كمية الصمغ المبيعة في محطة ماتام، لتصل إلى ثلاثمائة وخمسين قطعة سنويا ".

43- لم نتمكن من الحصول على معلومات أخرى حول هذا الرجل الذى يبدو أنه أخ غير شقيق لولد الرسول.

44- هو أحمد سالم بن اعلي بن محمد الحبيب (توفي 1905) ، أحد أمراء الترارزة، تصارع مع عمه أعمر سالم بن محمد الحبيب للفوز بالإمارة. ويشير ابن المقداد هنا إلى الدعم الذى قدمه الفرنسيون لأحمد سالم ضد عمه أعمر سالم وهو الدعم الذى مكنه من انتزاع الإمارة من عمه سنة 1893.

45- لم نتمكن من معرفة تلك المسائل "المهمة" لكننا لانستبعد أن تكون لها علاقة بالسياق العام للمهمة وهو تحضير البلاد للإستعمار الفرنسي.

46- إشارة إلى الحروب التى اندلعت في هذه الفترة بين بكار بن اسويد أحمد أمير إدوعيش وأمير آدرار أحمد بن سيد أحمد الذى حاول تنفيذ وصية سلفه أحمد بن امحمد بن أحمد بن عيده بشأن الثأر من إدوعيش. ومن أهم هذه الحروب التى دارت خلال السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر: معارك الطرطيكة، واد سكليل ، حمدون وفرع الكتان.

وصداقة.

48- الحوض: منطقة سهلية تقع بالجنوب الشرقي الموريتاني، تحدها منطقة آوكار من الشمال ومنطقة أفلّه من الغرب وجمهورية مالي من الشرق والجنوب. و يضم الحوض الآن ولاية الحوض الشرقي وعاصمتها مدينة النعمة وولاية الحوض الغربي وعاصمتها مدينة العيون. وكان الحوض مجالا لسيطرة إمارة أولاد امبارك.

49- هو سيد المختار بن محمد محمود بن عبد الله بن المرابط سيد محمود زعيم أهل سيد محمود، نافسه أخوه سيد محمد على الزعامة فأدى ذلك إلى انقسام تلك القبيلة طائفتين متنازعتين.

50- هو سيد محمد بن محمد محمود بن عبد الله بن المرابط سيد محمود، تزعم أهل سيد محمود الغربيين في نطاق الخلافات مع أخيه السابق الذكر.

51- لانستبعد أن يكون موقف ابن المقداد في هذه الفقرات التى تركز على الخلافات الداخلية بين القبائل البيضانية وحتى داخل القبيلة الواحدة (أهل سيدى محمود مثلا)، صادرا عن وعي بالمبدأ الاستعماري المعروف " فرق تسد".

52- إحدى المدن التاريخية الموريتانية. ترجع الرواية الشفهية تاريخ تأسيسها إلى القرن XIIIم/(سنة 660 هـ). وهي منبثقة على ما يبدو من قرية آبير التى تقول الرواية المحلية إنها كانت موجودة خلال القرن الثامن الميلادي. وقد لعبت شنقيط أدوارا اقتصادية وعلمية بالغة الأهمية أهلتها لأن تصبح عاصمة ثقافية للبلاد قاطبة.

53- إدوعلى (العلويون) قبيلة زاوية تنتشر في مختلف أنحاء البلاد الموريتانية خاصة آدرار وتكانت والكبلة ولها وزن ثقافي مهم. ترجع نسبها إلى على بن أبي طالب. راجع: سيد عبد الله بن الحاج ابراهيم ، صحيحة النقل في علوية إدوعلى وبكرية محمد قل، مخطوط.

54- قبيلة من أهم المجموعات القبلية القاطنة في الصحراء الغربية ولها وجود في الشمال الموريتاني. كانت تتمتع بوزن اقتصادي وسياسي كبير خلال القرن XIX . وقد ربطتها إذ ذاك علاقات تجارية مع العديد من التجار الأوربيين.

55- هوسيد أحمد لبات بن امحمد بن اسويد أحمد، كان زعيما شجاعا، مثل قطب معارضة داخل جماعة أبكاك. وكان يلتحق في بعض الأحيان باشرانيت. اغتالته جماعة من السواكر: ويقال إن ذلك بتحريض من الدي بن بكار. وقد أخذ بكار بن سيد أحمد لبات ثأر أبيه فقتل جميع قتلته. وعندما تأمر عبد الرحمان بن بكار اقسم بكار بن سيد أحمد لبات على ألا يلبس السروال (رمز الإمارة) وارتحل عن أبكاك لينعزل بزعامة أهل محمد بن اسويد أحمد.

56- بونه ولد المختار ولد اسويد أحمد ابن عم سيد أحمد لبات السابق الذكر ورفيقه في فترات معارضته لزعامة أبكاك.

57- هذه الحرب الأهلية التى كان ابن المقداد يراهن عليها تقريبا لم تندلع في نهاية المطاف.

58- أحد أبناء أمير إدوعيش بكار ولد اسويد أحمد.

59- محطة تجارية على ضفة النهر في منطقة كيديماغه الحالية. أصبحت مركز التبادل الرئيسي مع إدوعيش ابتداء من 1821.

60- محطة للتبادل التجاري على النهر تقع على بعد حوالي سبعين كيلومترا جنوب شرقي كيهيدي.

62- أحد أبناء بكار ولد اسويد أحمد.

63- مركز تجاري أنشاه الجنرال فدرب سنة 1859 لشراء الصمغ من البراكنة، ويقع هذا المركز على ضفة النهر في منتصف المسافة تقريبا بين كيهيدي وماتام.

64-منطقة تقع بالوسط الجنوبي من البلاد الموريتانية بين گورگول والعصابة وآفطوط. وهي تمثل نقطة تقاطع بين الحدود الموريتانية السنغالية المالية وكانت مجالا لنفوذ إمارة إدوعيش.

65- السودان الفرنسي: هو التسمية التي كانت تطلق على دولة مالي الحالية.

66- يتعلق الأمر على مايبدو بالسيادة على منطقة گيديماغه. فإدوعيش يعتبرون تلك المنطقة داخل مجال نفوذهم السياسي. وتدعم الروايات الشفهية ذلك فترى أن تسمية باكل (Bakel) هي تحريف لاسم أمير إدوعيش بكار ولد أعمر ولد امحمد المتوفى سنة 1175 هـ / 1761 م وأن قرية ولد اعلي بابي تسمية مرتبطة باعلي بابه وهو أحد أبناء ذلك الأمير. وحسب ما يفهم من السياق الذي أورد فيه ابن المقداد مشكلة گيدماغه "الشائكة " على حد تعبيره فإنها تمثل نقطة خلاف بين الفرنسيين في السنغال وإدوعيش وأن مصير الإتفاقية التي وقعها للتوّ مع اشراتيت مرتبط بتسوية تلك المشكلة.

67- مدينة سودانية تقع في جمهورية مالي على منحنى نهر النيجر. تأسست، على ما يبدو، في القرن الخامس الهجري /الحادي عشر الميلادي، فاكتسبت بسرعة أهمية اقتصادية كبيرة بصفتها منطقا للقوافل التجارية التي تربط بين السودان والمغرب العربي. وقد مثلت هذه المدينة خلال العهود الحديثة أسطورة في خيال الأوربيين -البريطانيين والفرنسيين خاصة -الذين تسابقوا إلى الوصول إليها والاطلاع على ما تخفيه من أسرار. وفي هذا النطاق رصدت جوائز مالية كبيرة لأول أوربي يصل المدينة ويعود منها بجملة من المعلومات تهم الأوربيين وقتها. وكانت تلك الجوائز من نصيب الرحالة الفرنسي رنى كايّي الذي وصل تنبكتو يوم 20 إبريل 1828 ليلاحظ حالة الكساد الاقتصادي التي تتخبط فيها المدينة. وقد استولى الفرنسيون على تنبكتو في دجنبر 1893 وهو الإستيلاء الذي يشير إليه ابن المقداد. راجع:

René CAILLIE, Voyage à Tombouctou, Paris, La Découverte, 2T., 291 et 373 p., T.2 , pp.211 et suivantes.

68-يتعلق الأمر بالمقدم بونيي Eugène BONNIER الذي حول سنة 1893 إلى السودان الغربي ليتولى تنفيذ سياسة "التهدئة" و"إخماد الفتن" (la pacification) التي ستنتهجها فرنسا في المنطقة. وقد تمكن هذا الضابط من دخول تنبكتو في دجنبر 1893 دون صعوبات كبيرة إلا أنه غادرها في 12 يناير 1894 لإنقاذ فرقة فرنسية يقودها الضابط جوفر (JOFFRE) من كمين أعده لها الطوارق. وفي 15 يناير وقع هو نفسه (بونيي) في كمين حيث حاصره الطوارق وأبادوا جميع أفراد فرقته. وعندما وصل جوفر إلى عين المكان في فبراير لم يجد أي عنصر من أفراد تلك الفرقة على قيد الحياة .راجع:

ANONYME, Hommes et destins, dictionnaire bibliographique d'Outre-Mer, Paris, 9 T.,1975-1989, T.IV., 1981.

69- المنطقة التي تمت بها إبادة فرقة المقدم بونيي الذي أشرنا إليه في الإحالة السابقة.

المجال مقالنا : " الرحالة الفرنسيون أثناء القرن التاسع عشر ودورهم في تحريف التاريخ الموريتاني " *حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية* بجامعة نواكشوط، عدد 2 ، نواكشوط 1990.صص. 21-35.

71-إحدى قبائل الزوايا التي جمعت بين السيف والقلم. لها نفوذ إقتصادي وعلمي مهم. وهي منتشرة في مختلف أنحاء البلاد الموريتانية وخاصة منطقة العصابة. وبحكم الموقع الجغرافي فإن هذه القبيلة ربطتها علاقات وطيدة بمجموعة إدوعيش.

72- قبيلة ترجع نسبها إلى محمد بن ادريس. ولها وجود في موريتانيا والمغرب الأقصى. وقد لعبت ، اثناء القرن التاسع عشر، دورا بارزا في النشاط التجاري بالمنطقة. كما أنها ساهمت في مواجهة التدخل الفرنسي في البلاد الموريتانية.

73-إحدى المدن الموريتانية التاريخية يرجع البعض تاريخ تأسيسها إلى القرن الهجري الأول. غير أنها، على الأرجح، تأسست في القرن6 هـ/ 13م. زارها الرحالة ابن بطوطة سنة 753 هـ / 1352م وقضى فيها خمسين يوما فوصف سكانها وأنشطتهم وتقاليدهم. وقد لعبت هذه المدينة دور محطة متقدمة في التجارة عبر الصحراء على الطريق الغربي من المحور الأوسط المار بتغازه وتوات. كما كانت مركزا ثقافيا مهما لتبادل الطلاب والعلماء مع بلاد المغرب والمشرق. وابتداء من القرن 17 م ، ومع تحول مراكز الثقل والقرار إلى تنبكتو، بدأت أهمية ولاتة تتقلص بالتدريج. وكان تأسيس النعمة في مطلع القرن XIX واختيارها من طرف الإدارة الإستعمارية في مطلع القرن XX عاصمة جهوية عاملا إضافيا ساهم في تقليص أهمية ولاتة ودفع سكانها إلى النزوح عنها. راجع: ابن بطوطة (محمد اللواتي الطنجي)، رحلة ابن بطوطة المسماة : تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، دار التراث، بيروت، 1388/1968، 682 ص، ص661 وما بعدها.

74-موگادور (الصويره): ميناء مغربي على المحيط الأطلسي بناه سيدي محمد بن عبد الله سنة 1178هـ/ 1765م بالمكان الذي شيد فيه البرتغاليون مرسى الصويره القديم.

75-قرية تقع بين كيهيدي وكيفه هي منطقة ملائمة للأنشطة الزراعية والرعوية. وهي الآن عاصمة مقاطعة تابعة لولاية العصابة.

76-جب: شجر كبير ينمو في المناطق الكثيرة المياه، وجب آفطوط تسمية لواد يزرع زراعة موسمية ويقع على بعد حوالي 35 كلم غربي باركويل.

77- واد يصب في نامورت النهاج ويقع على بعد نحو 25 كلم جنوب شرقي مدينة المجرية.

78- واد يقع على بعد حوالي 30 كلم جنوب غربي مركز القدية الإداري. وهو مقر زعامة أهل امحمد بن اسويد احمد.

79- واد يزرع زراعة موسمية يقع على بعد حوالي 50 كلم جنوب شرقي المجرية. وهو غير "أشوم آفطوط " الواقع على طريق الأمل بين مدينتي مقطع لحجار وگرو.

80- واد يزرع زراعة موسمية ويقع على بعد 35 كلم جنوب شرقي تجكجة في منتصف المسافة بينها ومكسم ببكر بن عمر، ويسمى أيضا أدروم.

81- يسمى كذلك ركـ كيهيدي وهو مكان يجتمع فيه إدوعيش لتحصيل الضرائب العرفية. وقد وقعت فيه حرب بين أبكاك واشراتيت تسمى معركة الركـ خلدتها "اتهيدينت الركـ وهي شعر شعبي حساني من نوع خاص تشيد بانتصارات الأمير بكار.

82-هو أحد روافد نهر السنغال ويسميه أهل تكانت الواد الأخضر. ويعتبر موردا رئيسيا للنشاط الزراعي والرعوي للمنطقة بأسرها.

83- تجكجه: مدينه تقع على ضفه بطحاء وادي تجكجه بتكانت، اسسها إدوعلي البيض عند عودتهم من [illegible] 1070هـ/ 1659-1660م. وهذه المدينة أصبحت قاعدة إقليم تكانت مع تضاؤل إشعاع مدينة تيشيت، وهي الآن العاصمة الإدارية لولاية تكانت. راجع:

- صحيحة النقل في علوية إدوعلي وبكرية محمد قل، تاليف سيدي عبد الله ولد الحاج إبراهيم، ترجمة وتحقيق نوريس في:

NORRIS (H. T.) " The history of Shinqit according to the Idaw Ali Tradition", *Bulletin de l'IFAN*, T.XXIV, Série B, 1962, pp. 393-411.

- حوليات تجكجة، تحقيق عائشة بنت ديدي، كلية الآداب بجامعة نواكشوط، 1989-1990، 67 ص.

- أحمد بن الأمين الشنقيطي، الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، ...ص455.

84 - يتعلق الأمر على مايبدو بجبل المجربة وربما كان الخطأ متأتيا من طريقة نطق بعض الحروف المتشابهة المخارج كالشين في كلمة "المشري" والجيم في كلمة "المجربة"، ومثل هذا الخطأ دارج عند من لا يتقنون اللغة العربية كقولهم الاشتهاد محل الاجتهاد.

85-لعلّ الصواب هو جبل سوماس، وربما يكون الخطأ عائدا إلى تحريف في أحرف الكلمة. وجبل سوماس سبق أن مر به أول طريق متجه عبر تكانت إلى تجكجه أيام الإستعمار الفرنسي للبلاد.

86- نحن نشك في هذا الخطأ الذي أشار دوداسك إليه في بعض الخرائط بخصوص كديت المشري. ونكاد نجزم أن الخطأ خطأ لفظي كما أسلفنا. ويبرر شكنا هذا أننا لم نعثر خلال تعاملنا مع رحالي القرن XIX وتصفحنا للعديد من الخرائط المنجزة من طرفهم على أية إشارة إلى " كديت المشري " هذه.

87-الرحالة المشار إليه هو بالتأكيد ماج (MAGE) فهو الأوربي الوحيد - حسب علمنا - الذي زار تكانت والتقى مع الأمير بكار ولد اسويد أحمد وكان ذلك خلال شهري دجنبر 1859 ويناير 1860 . راجع رحلته:

MAGE (Eugène-Abdon), "Voyage au Tagant (Afrique centrale)", *Revue Algérienne et Coloniale*, T. III, juillet-décembre, 1860, pp. 1-29.

باسم الجمهورية الفرنسية،

بين فارس الامتياز الحربي، هانري دو لاموث (Henri de Lamothe) والي السنغال والأقاليم الملحقة،

والمختار ولد أحمد ولد المختار، وولد الرسول ولد اعْلي ولد امْحمد شين زعيميْ مجموعة اشراتيت البيضانية،

تم عقد المعاهدة التالية:

المادة 1

تعترف الحكومة الفرنسية بالمختار ولد أحمد بن المختار وبابن عمه ولد الرسول ولد اعْلي ولد امْحمد شين بصفتهما زعيميْ اشراتيت. وفي حالة الوفاة فإن مجموعة اشراتيت تختار زعيما حسب تقاليدها. غير أن الحكومة الفرنسية لن تعترف بالزعيم الجديد إذا اغتال أو سعى إلى اغتيال سلفه من أجل أن يخلفه.

المادة 2

إن زعيميْ اشراتيت المختار ولد أحمد ولد المختار وولد الرسول ولد اعْلي ولد امْحمد شين والأمراء الرئيسيين الآخرين، وهم يلتزمون باسمهم الشخصي وباسم جميع أبنائهم ويعترفون بامتيازات التحالف مع فرنسا، يطالبون بوضعهم هم وممتلكاتهم وأراضيهم وطرقهم المجوبة تحت الحماية الفرنسية.

المادة 3

تلتزم مجموعة اشراتيت، طبقا للمادة السابقة، بعدم القيام بأي غارة أو نهب ضد السكان البيضان أو الزنوج الخاضعين لفرنسا أو المتحالفين معها. وبالمقابل تتعهد فرنسا باستخدام كل نفوذها لمنع الخاضعين لها أو الواقعين تحت حمايتها من مهاجمة أو نهب مجموعة اشراتيت البيضانية. وتُرد جميع النزاعات بين اشراتيت وأي من المناطق الخاضعة للحماية الفرنسية والتابعة للسنغال وملحقاته إلى الوالي [الفرنسي] ليحلها بنفسه.

المادة 4

يمكن أن يسمح الوالي لزعماء اشراتيت، استجابة لطلبهم، بالمشاركة بفرقة من جيشهم يختارها الوالي في الحملات التى تقوم بها الفرق الفرنسية.

المادة 5

كلما احتاجت الحكومة الفرنسية جمالا لتشكيل فرقة [عسكرية] أو للقيام بعمليات نقل، فإن زعماء اشراتيت سيزودونها بتلك الجمال مقابل مكافأة مالية يومية تبلغ 2،5 فرنك عن الجمل على أن يكون مع كل جمل جمّاله.

(النص الفرنسي الأصلي)

Projet

de traité entre la France et les Maures Chraïtk.

Au nom de la République Française

Entre Henri de Lamothe, Gouverneur du Sénégal et Dépendances, Chevalier de la Légion d'Honneur,

Et M'Khaïtar Ould Ahmed Ould Mokhtar et Ould Bassiri Ould Ely Ould Mohammed Chein, Cheikh des Maures Chraïtk, a été conclu le traité suivant;

Art. 1er.

Le Gouvernement Français reconnaît comme Chef des Maures Chraïtk Cheikh Mokhtar Ould Ahmed Ould Mokhtar et son cousin Cheikh Ould Bassiri Ould Ely Ould Mohammed Chein. En cas de mort, les Chraïtk choisiront un nouveau chef d'après leurs coutumes. Toutefois, le Gouvernement français ne reconnaîtra pas le nouveau Chef s'il a assassiné ou fait assassiner son prédécesseur dans le but de le remplacer.

Art. II.

Les Chefs des Chraïtk, Mokhtar Ould Ahmed Ould Mokhtar et Ould Bassiri Ould Ely Ould Mohammed Chein et les principaux Princes s'engagent en leur propre nom et au nom de tous leurs descendants, reconnaissant les avantages de l'influence française, demandent à se placer, eux, leurs biens, leurs serviteurs et leurs routiers de parcours sous le protectorat de la France.

Art. III.

En vertu de l'article précédent, les Maures Chraïtk s'engagent à s'abstenir de toute expédition et de tout pillage contre les populations maures ou noires qui sont soumises ou alliées à la France.

المادة 6

لا يُغيِّر أي شيئ من عادات وتقاليد اشراتيت. وتلتزم الحكومة الفرنسية بأنها لن تتدخل أبدا في شؤونهم الداخلية. كما يقمع زعماء اشراتيت أي سرقة أو نهب تقوم به القبائل الخاضعة لسلطتهم ضد سكان الضفة اليسرى أو ضد أي من الخاضعين لفرنسا أو من محميِّيها. وفي حالة تكرار عمل من هذا النوع يمكن وقف كل أو بعض الهدايا [التى تقدم للزعماء] ضمانا لتعويض المتضررين.

المادة 7

يتمتع رعايا اشراتيت داخل التراب الفرنسي أو في البلاد التى هي محميات لحكومة السنغال بكل الإمتيازات القانونية التى يتمتع بها المسلمون الخاضعون لفرنسا.

المادة 8

إذا ارتكب أوربي أو أحد الخاضعين لفرنسا أو أحد محميِّيها من المسلمين أو غيرهم جريمة أو جنحة داخل أرض اشراتيت وادّعى تبعيته للقضاء الفرنسي فإنه يسلم إلى السلطات الفرنسية في السنغال ليحاكم طبقا للقوانين المعمول بها بخصوص الجريمة أو الجنحة التى ارتكبت في البلد المحميّ.

المادة 9

الجرائم والجنح التى تُرتكب داخل أرض اشراتيت من طرف اشراتيت أو بيضان آخرين غير محميِّين من طرف فرنسا ضد رعايا فرنسيين أو تحت حماية فرنسا، مسلمين أو غير مسلمين، تتم معاقبة مرتكبيها تحت رعاية زعيم اشراتيت بكل ما للقوانين من صرامة لديهم. وبإمكان الوالي، إذا دعت الظروف إلى ذلك، إرسال ممثل عنه للاطلاع على الوقائع وللإسهام في العقاب.

المادة 10

يتم التحاكم بخصوص النزاعات المدنية والتجارية إلى قانون البلد الذى جرت فيه الوقائع التى أدت إلى الخلافات. وعلى كل حال فإن كل الخصومات المتعلقة بالتجارة وحتى الخصومات التى تجري في محطات التبادل وفي روافد النهر بالضفة اليمنى يجب رفعها إلى الوالي [الفرنسي] ليتولى حلها.

المادة 11

كل من يرتكب جريمة بحق القانون العام فوق التراب الفرنسي أو في أحد البلدان الخاضعة للحماية الفرنسية ثم يلجأ إلى أرض اشراتيت يتم تسليمه للسلطات الفرنسية بعد طلب من الواليَ الفرنسي في السنغال. وبالمقابل فعندما تثبت إدانة مواطن بيضاني أو أحد السكان الأصليين غير الخاضعين لفرنسا بارتكاب جريمة خطيرة في أرض اشراتيت ويلجأ إلى التراب الفرنسي يمكن لزعماء اشراتيت المطالبة بتسليمه على أن يبت الوالي في كل حالة طبقا للشروطوالضمانات التى يقرها القانون الفرنسي.

المادة 12

إن السودان [النوح] المقيمين أو الذين سيقيمون في منطقة مقاومة أو في أية

على السنغال] .

المادة 13

يستطيع اشراتيت أن يمارسوا التجارة ويتنقلوا بحرية داخل عموم أرض السنغال.وبالمقابل فبإمكان الفرنسيين والخاضعين لهم ومحميّيهم أن يتنقلوا ويتاجروا بحرية داخل كل بلاد اشراتيت وطبقا للتحفظات المحددة في المادة رقم 17. وعلى البيضان واشراتيت والفرنسيين والخاضعين لفرنسا ومحميّيها الالتزام بالقوانين والأعراف الخاصة بالبلد الذى يتاجرون أو يتنقلون داخله. وعلى بيضان اشراتيت خاصة احترام حظر العبور إلى الضفة اليسرى وهم مسلحون مالم يحصلوا على رخصة خاصة من الوالي أو من أحد مفوضيه.

المادة 14

باستثناء القوافل التى تأتي للمتاجرة في أراضى الضفة اليسرى التابعة للسنغال وملحقاته فإن السماح بالإقامة في تلك المناطق بصفة مؤقتة أو دائمة سيقتصر فقط على اشراتيت الحاصلين على إذن بالمرور من قبل زعمائهم. ويهدف هذا الإجراء إلى منع تحايل أولئك الذين يريدون التهرب من الضرائب المستحقة عليهم لصالح الزعماء. لكن هذا الإجراء لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يلغي حق الضيافة المؤقتة أو الدائمة الذى يحتفظ الوالي لنفسه دوما بحق ممارسته عند الاقتضاء.

ويحق للخاضعين لفرنسا أو المحميّين من قبلها الإقامة على أرض اشرايت بمجرد ترخيص من الزعماء تطلبه إدارة الشؤوون السياسية [بمستعمرة السنغال].

المادة 15

يلتزم زعماء اشراتيت بمعاقبة وإبعاد المسلمين أو الأجانب الذين يدبرون مؤامرات أو يحيكون دسائس ضد الحكومة الفرنسية. ولا يحق لأي إنسان غير مسلم خاضع أو محميٍّ لأية قوة أوربية غير فرنسا أن يتاجر أو يتنقل أو يقطن في بلاد اشراتيت دون إذن، قابل للمراجعة دائما، من الوالي الفرنسي في السنغال. ويخضع الأشخاص الذين يحصلون على هذا الإذن للواجبات نفسها ويتمتعون بالحقوق ذاتها التى يتمتع بها الفرنسيون أو الخاضعون لفرنسا غير المسلمين. وإذا أقدم أحد من الفرنسيين أو من المحميّين من طرف فرنسا مسلما أو غير مسلم فوق أرض اشراتيت على تصرفات لا يعتبرها القانون الفرنسي جريمة أو جنحة لكنها يمكن أن تسبب القلاقل فإن على زعماء اشراتيت أن يحيلوه إلى والي السنغال.

المادة 16

لا يمكن لأي أوربي أو مشبه به أو خاضع لفرنسا أو محميٍّ من طرفها أن يحصل على امتياز بخصوص المعادن أو الصناعة أو السكك الحديدية في بلاد اشراتيت دون ترخيص من والي السنغال. ولن يمارس الزعماء [زعماء اشرايت] أي احتكار لتجارة أي منتوج كان.

المادة 17

الفرنسية إلى بلاد اشراتيت بعد الإتفاق مع زعمائهم. أما إذا رغب خصوصيون في تنظيم بعثة تجارية أو علمية تبتعد عن النهر أكثر من مسافة يومين من السير فعليهم إشعار زعماء اشراتيت والاتفاق معهم بشأن المبلغ الذى سيدفع لأفراد الحراسة الأمنية التى ستوضع تحت تصرفهم. ولا يمكن أن يعتبر زعماء اشراتيت مسؤولين عن الخسائر أو الحوادث التى قد يتعرض لها الأشخاص الذين أهملوا الالتزام بهذه التعليمات.

المادة 18

يلتزم زعماء اشراتيت بضمان حرية التجارة وحماية محطات التبادل التجاري وتأمين طرق القوافل على كافة امتداد دولتهم [إمارتهم] .

المادة 19

تلتزم الحكومة الفرنسية بدفع خمسمائة قطعة من القماش الغيني الأزرق سنويا للمختار ولد المختار ومائتي قطعة لولد الرسول ولد امحمد شين وذلك مقابل التنازل عن ضريبة تصدير الصمغ. وسيتم هذا الدفع فصليا وبعد حلول الأجل في كيهيدي بالنسبة لولد المختار وفي ماتام بالنسبة لولد الرسول.

المادة 20

إذا ارتأت الحكومة الفرنسية أن من المناسب الرجوع إلى نظام محطات التبادل فستحدد إتفاقية خاصة، تبرم بين حكومة السنغال وزعماء اشراتيت وتقدم لمصادقة الحكومة الفرنسية، نسبة ضريبة تصدير الصمغ التى ستدفع لزعماء اشراتيت.

المادة 21

في حالة حدوث نزاع حول محتوى الإتفاقيات فإن النص الفرنسي وحده هوالمرجع. وتلغى هذه الإتفاقية جميع الإتفاقيات السابقة وتنظم، من الآن فصاعادا، العلاقات بين فرنسا وبيضان اشراتيت.

المادة 22

يسرى العمل بهذه المعاهدة فور التوقيع عليها. لكنها لا تعتبر نهائية إلا بعد مصادقة رئيس الجمهورية الفرنسية عليها.

حرر في ثلاث نسخ بمودي بتاريخ 21 مارس 1894

التوقيع مرلين (Merlin)

ملاحظة:

تم رفع كمية القماش الغينيي الأزرق التى يجب دفعها إلى ولد الرسول ولد اعلي ولد امحمد شين إلى ثلاثمائة قطعة. ويمكن رفعها إلى ثلاثمائة وخمسين قطعة تمشيا مع زيادة تجارة الصمغ في محطة ماتام.

كيهيدي بتاريخ 24 إبريل 1894

التوقيع مرلين

صورة الصفحة الاخيرة من مشروع المعاهدة (النص الفرنسي الأصلي)

conclue entre le Gouverneur du Sénégal et les Chefs des Chaâmbe et soumise à l'approbation du Gouvernement de la République Française déterminera le taux du droit de sortie à payer pour les gommes aux chefs des Chaâmbe.

Artc. XXI.

En cas de contestation sur les termes des traités, le texte français seul fera foi. Ce traité annule tous les précédents et réglera désormais les relations entre les Maures Chaâmbe et le Gouvernement Français.

Artc. XXII.

Le présent traité entrera en vigueur à la date de sa signature. Toutefois, il ne sera réputé définitif qu'à dater de sa ratification par le Président de la République française.

Fait en triple expédition à Nondeye le 21 Mars 1891

Signé : Merlin

Ont signé :

N.B. La quantité de gomme à payer à Ould Ringuel ould Eli Ould Mohammed Chein est portée à trois cents pièces et pourra être portée, suivant l'augmentation du Commerce des gommes dans l'Escale de Mbiam, au chiffre de trois cent cinquante pièces.

Kaédi, 14 avril 1891,

Signé : Merlin.

أولا: المصادر والمراجع بالعربية:

أ-أهم المصادر بالعربية:

- ابن بطوطة (محمد اللواتي الطنجي)،

رحلة ابن بطوطة المسماة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، دار التراث، بيروت، 1968/1388، 682 ص.

-ابن الحاج ابراهيم (سيدي عبد الله)،

صحيحة النقل في علوية إدوعلي وبكرية محمد قل، مخطوط.

- ابن الشيخ سيديّ (بابه)،

إمارتا إدوعيش ومشظوف، دراسة وتحقيق إزيد بيه بن محمد محمود، نواكشوط، 1992، 292 ص.

حوليات تحكحة، تحقيق عائشة بنت ديدي، كلية الآداب بجامعة نواكشوط، 1989-1990، 67 ص.

-البدالي (الشيخ محمّد بن المختار بن سعيد)،

نصوص من التاريخ الموريتاني، تقديم وتحقيق محمذن بن باباه، المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات-بيت الحكمة، قرطاج، تونس، 1990، 224 ص.

ب- أهم المراجع بالعربية:

- ابن حامد(المختار)،

موسوعة حياة موريتانيا (الجغرافيا)، منشورات معهد الدراسات الإفريقية بالرباط (جامعة محمد الخامس)،1414/1994، 348 ص.

-ابن محمذن (محمدو)،

"الرحالة الفرنسيون في القرن التاسع عشر ودورهم في تحريف التاريخ الموريتاني"، *حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة نواكشوط*، عدد 2، نواكشوط 1990، صص. 21-35.

-ابن الندى (محمد المصطفى)،

"من وحي التاريخ: ولاة ان في ولاء"، جريدة *البصائر*، السنة الأولى، العدد: 5، اغسطس/ آب 1992،

- الشنقيطي (أحمد بن الأمين)، الوسط في تراجم أدباء شنقيط، القاهرة، الطبعة الثانية، 1958 .

- النحوي (الخليل بن محمد)،

بلاد شنقيط، المنارة... والرباط. عرض للحياة العلمية والاشعاع الثقافي والجهاد الديني من خلال الجامعات الدورية المتنقلة (المحاضر)، تونس، 1987، 647 ص.

ثانيا: المصادر والمراجع بالفرنسية

أ- أهم المصادر بالفرنسية:

1- مصادر ارشيفية:

I-الأرشيف الوطني السنغالي:

+Série G: Politique et administration générale (1782-1920):
*Sous-sére 1G1: Etudes générales: missions, notices et monographies (1818-1921):1G243: mission BOU EL MOGDAD dans l'Adrar, 1899, 1 pièce, 5 p.
*Sous-série 9G: Affaires politiques et administrations musulmanes:
- 9 G-9: Projet de traité avec les Maures Chrattit, 7 pages.
- 9 G-14: mission du Tagant , rapport de BOU EL MOGDAD (Doudou Seck),15 juin 1894, 12 p .

II-الأرشيف الفرنسي (مركز أرشيف ما وراء البحار)

+ Série: Missions:
Carton 2:
Rapport de voyage d'exploration en Adrar (1879-1880),154 p., dossier Paul SOLEILLET.
Carton 3:

pages.
Carton 4:
- Projet de traité entre la France et l'Adrar .
- Rapport de mission, 10 juin 1892, dossier Léon FABERT, 18 pages.
- Exploration au Sahara occidental (Adrar 1891), dossier Léon FABERT .

+ Séries: Affaires Politiques:
Carton 2711 : Mission Paul BLANCHET dans l'Adrar, dossier 4 : rapport de mission .

+ Série géografique: Afrique.
* sous-série : Sénégal et Dépendances-III : Explorations et Missions
- Sénégal et Dépendances- III-8 : Voyage de BOU EL MOGDAD (Mohemeden), à travers le Sahara, 1861, dossier BOU EL MOGDAD.
- Sénégal et Dépendances-III-13 , dossier Léon FABERT .
* Sous-série: Afrique Occidentale Française-III: Explorations, missions et voyages.
- A.O.F. III-4 à 9 : Mission Paul BLANCHET en Adrar.
- A.O.F. III-4a : Rapport de Mission, 25 p. dossier Paul BLANCHET.

2-مصادر اخرى:

- BOU EL MOUGDAD (Mohemeden).
"Voyage par terre entre le Sénégal et le Maroc", *Revue Maritime et Coloniale*, 1er semestre, mai 1861, pp.477- 494 .

- BOU EL MOGDAD (Doudou Seck).
Notes autobiographiques de Doudou Seck (BOU EL MOGDAD), 35 p., dossier BOU EL MOGDAD.

- CAILLIE (René) .
Voyage à Tombouctou, Paris, Editions La Découverte , 2 T., 291 et 373 p.

-MAGE (Eugène-Abdon),
"Voyage au Tagant (Afrique centrale)", *Revue Algérienne et Coloniale*, T. III, juillet-décembre, 1860, pp. 1-29.

-NORRIS (H. T.)
" The history of Shinqit according to the Idaw Ali Tradition", *Bulletin de l'IFAN*, T.XXIV, Série B, 1962, pp. 393-411.

-VINCENT (Henri, Capitaine d'état-major),
"Voyages d'exploration dans l'Adrar", *Revue Algérienne et Coloniale*, 3ème série, n° 4, octobre 1860, pp. 445-494.

- AMILHAT (Pierre) . "Petite chronique des Idoυaich, heritiers guerriers des Almouravides sahariens", *Revue des Etudes Islamiques*, n°1, 1937, pp.41-130.

- ANCELLE (J., capitaine de génie.), Les explorations au Sénégal et dans les contrées voisines, depuis l'antiquité jusqu'à nos jours, Paris, Maisoneuve frères et Ch., Leclerc, 1886, XL+ 445p.

- Anonyme, Hommes et destins. Dictionnaire Bibliographique d'Outre-Mer, Paris, 9T.,1975-1989, T.IV., 1981.

- BROC (Numa), Dictionnaire illistré des explorateurs français au XIXème siècle, I, Afrique, Paris, Editions du Comité des Travaux Historiques et Scientifiques, 1983, 316 p.

- CHAILLEY (Marcel), Les grandes missions françaises en Afrique Occidentale, Dakar, , Initiations Africaines, I.F.A.N., 1953, 145 p.

- DESCHAMPS (Hubert), L' Europe découvre l'Afrique. Afrique Occidentale (1794-1900), Edition Berger-Levrault, Paris, 1967, 282 p.

- DUBOC (Le Général), La Mauritanie, Paris, Fournier, 1935, 318 p

-EYDOUX (Henri-Paul), L'exploration du Sahara, Paris, Gallimard,1938, 242 p.

- GILLIER (Commandant breveté), La pénétration en Mauritanie, Paris, Librairie orientaliste Paul Geuthner, 1926, 359 p.

- GOURAUD (Le Colonel), La pacification de la Mauritanie, journal des marches et opérations de la colonne de l'Adrar, Paris, Emile Larose, sans date, 287 p.

- OULD CHEIKH (Abdel Wedoud), Nomadisme, Islam et Pouvoir politique dans la société maure précoloniale. Essai sur quelques aspects du tribalisme, thèse pour le doctorat en sociologie, Université Paris V, 1985, 3 t, 1056 p.

- OULD MOHAMEDEN (Mohamedou) , "Les tentatives de pénétration française dans le Pays Maure à travers le rapport de mission de Bou El Mogdad en 1894 au Tagant ", Maçadir, *Cahier des sources de l'histoire de la Mauritanie* , Cahier n°1, I.R.E.M.A.M. et L.E.R.H.I. , Aix-en Provence et Nouakchott, 1994, pp. 79-99 .

- VALETTE (Jacques), "Pénétration française au Sahara et exploration: le cas de Paul SOLEILLET ", *Revue française d'histoire d'Outre-Mer*, T. XVII, n° 248-249, 3ème et 4ème trimestres, 1980, pp. 253-267.

بقلم إسلم بن السبتي
المدرسة العليا للتعليم

يعتبر المكون الإيقاعي من أهم مكونات الخطاب الشعري التي تكسبه جمالا، وتميزه عن باقي الأجناس الأدبية إذ أن تلك المكونات يمكن أن تتحقق في باقي الأعمال غير الشعرية دونما اكتساب لصفة الشاعرية. وعلى هذا الأساس يظهر جليا كيف أن الدراسات التي لا تتناول هذا المكون أو تقصر فى تناوله، تبدو ناقصة وغير متكاملة.

وأهمية هذا العنصر تبدو أكثر في شعرنا القديم، الذي يعتمد عنصر الإنشاد إذ : «كان ينظم ليلقى فى جمع، ومن هنا غلب عليه نوع من الخطابة يستلزم لونا من التنغيم السحري»(2) «فيهز قلوب السامعين هزا، ويطرب القوم لموسيقى الإنشاد»(3).

وهذا خلاف للشعر الحديث الذي يقوم على القراءة الصامتة بعد أن توفرت له الكتابة والتدوين، ولذلك فإن الشعر القديم يتميز بأنه شعر ناطق. وليس شعرا صامتا «وشتان ما بين شعر ناطق وشعر صامت»(4).

ولا شك بأن خاصية النطق البارزة في شعرنا القديم هي التى أسهمت إلى حد بعيد فى استمراره وبقائه في فترة كان عماده الرواية الشفهية وحسب. واعتمادا على ما تقدم فإن مفهوم الإيقاع يبدو أوسع من الصورة التي يقدمه عليها العروض القديم فهو يشمل إلى جانب الوزن، عنصرى النغم والإنشاد. فإذا كان عنصر النغم يحتل درجة بارزة في القصيدة الحديثة، وذلك بشهادة نزار قباني حينما قال : «إني أفكر بالنغم قبل أن أفكر بمعناه وأركض وراء رنين الكلمات قبل الكلمات»(5). فإن عنصر الإنشاد في القصيدة القديمة، مازال يطرح عدة مشاكل، إذ لم يرو لنا كيف كان القدماء ينشدون أشعارهم؟ ولا كيف كانوا يتلفظون بأصوات اللغة.

وإذا كان علم العروض لا يزال قاصرا في ضبط المكون الإيقاعي في مستواه الإنشادي، فإننا لا نتوفر حتى الآن لبديل عنه، ولا زالت الجهود مبذولة من طرف النقاد والمهتمين، لإيجاد ذلك البديل الضائع.(6)

ومهما يكن من أمر فإن البنية الإيقاعية من خلال تفاعلاتها على مستوى الوزن أو النغم أو الإنشاد تبقى عنصرا إيجابيا في تناول الخطاب الشعري ومحاولة دراسته دراسة موضوعية متأنية.

ولاتقتصر البنية الإيقاعية على الوزن والنغم والإنشاد، بل تتجاوزهما إلى عناصر أخرى لها

والجملة والقافية، ثم إنها تضبط حركة النفس في الصعود والانخفاض»(7).

وبناء على ما تقدم فإننا سنحصر دراستنا للبنية الإيقاعية في شعر عوف بن عطية من خلال عنصرين أساسيين هما - بنية الوزن، وبنية القافية على اعتبار أنهما يفوقان كل العناصر السابقة فى الأهمية.

- بنية الوزن :

يعتبر الوزن ركنا من أهم أركان الشعر، ونسقا إيقاعيا نظريا، يقدم للشاعر عدة إمكانيات في إغناء طبيعته الإيقاعية.

والوزن في الخطاب الشعري يمتلك طبيعته وخصوصيته التي تتلاءم مع جميع حالات الشاعر الشعورية، وليس بإمكاننا فرض تلك الطبيعة على حالة شعورية واحدة أو غرض واحد من أغراض الشاعر.

وقد حاول القدماء أن يوفقوا بين الوزن والغرض تأسيا بنظرية الشعر اليونانية، إذ «كانت شعراء اليونانيين تلتزم لكل غرض وزنا يليق به ولا تتعداه إلى غيره»(8).

ومن أبرز أولئك القدماء حازم القرطاجني، إذ أنه دافع عن تلك النظرية حتى عد من أكبر أنصارها. ويتجلى ذلك من خلال نصه المشهور الذي يقول فيه : «ولما كانت أغراض الشعر شتى، وكان منها ما يقصد به الهزل والرشاقة، ومنها ما يقصد به البهاء والتفخيم، وما يقصد به الصغار والتحقير، وجب أن تحاكي تلك المقاصد بما يناسب من أوزان ويخيلها للنفرس... فإذا قصد الشاعر الفخر حاكى غرضه بالأوزان الفخمة الباهية الرصينة وإذا قصد في موضع قصدا هزليا، أو استخفافيا، وقصد تحقير شيء أو العبث به حاكى ذلك بما يناسبه من الأوزان الطائشة القليلة البهاء وكذلك في كل مقصد.. .»(9).

غير أن مقولة الربط بين الوزن والغرض مقولة لم تعد صالحة، وهي باطلة كل البطلان إذ أن الوزن يصلح لجميع التجارب الشعرية، والشاعر حر في اختيار الوزن الذي يراه يتفق والحالة الشعورية التي يعيشها.

يقول عبد الله الطيب وهو يتحدث عن هذه الإشكالية «... أتعني أن أغراض الشعر المختلفة تتطلب بحورا بأعينها؟ وتنفر عن بحور بأعينها؟ هذا عين الباطل! : ألسنا نجد مراثي في الطويل وآخر في البسيط، وآخر في المنسرح وهلم جرا؟ ألا يدل هذا على أن أي بحر من البحور يصلح أن ينظم فيه أي غرض من الأغراض الشعرية؟ وجوابي عن مثل هذا السؤال: بلى، كما يبدو ويظهر... ولكن، كلا وألف كلا، لو تأمل الناقد ودقق وتعمق، فاختلاف أوزان البحور نفسه معناه أن أغراضا مختلفة دعت إلى ذلك وإلا فقد كان أغنى بحر واحد ووزن واحد»(10).

وهناك جماعة من النقاد المحدثين ترى بأن الشعراء يتخيرون لعواطفهم بحورا خاصة تناسبها وتتفق معها. فجرجي زيدان يرى أن كل بحر له غرض يلائمه فالطويل يوافق الحمـــاسة، والوافر يوافق الفخر(11).

العاطفة المعتدلة الممتزجة بقدر من التفكير والتملى، سواء كانت حزنا هادئا لا صراخ فيه أم كانت سرورا هادئا لا صخب فيه... في حين ينسجم بحر الكامل مع العاطفة القوية النشاط والحركة سواء أكانت فرحة قوية الاهتزاز أم كانت حزنا شديد الجلجلة، فإذا زادت حدة العاطفة واهتزازها لاءمها بحر الوافر. فإذا بلغت درجة الإضطراب العنيف والتراوح بين شد وإرخاء وسرعة وإبطاء انسجم معها بحر المنسرح انسجاما عجيبا، مهما يكن نوعها من مرح أو غضب أو تهكم أو شماتة أو دهشة كبيرة»(12).

وقد رد على هؤلاء النقاد جماعة مثلهم واعتبروا أن الشاعر لايتخير الوزن من عنده، وإنما يأتي مولودا مع التجربة الشعورية، يقول الدكتور أحمد الطريسي : «والقصيدة تأتي تجربة مكتملة بوزنها وقافيتها، وكل أركانها بعد أن يكتمل نموها في نفس مبدعها بحيث لا تحتاج إلى البحث عن تعمد وقصد إلى الوزن أو إلى أي ركن من أركانها الأخرى»(13).

ويقول عز الدين إسماعيل : «فعن طريق خلق حالة بين الحركة التي تموج بها النفس والحركة التي تموج بها الأشياء في العالم الخارجي يأتي الوزن بشكل عفوي تلقائي»(14).

وقد نظم عوف بن عطية أشعاره في غرضين إثنين هما : الفخر والهجاء(15). وقد قمت بعملية إحصائية للبحور التي نظم فيها فوجدت أنه في غرض الفخر نظم فى : الطويل والمتقارب والوافر. وكان حظ الطويل أوفر، حيث نظم فيه قصيدة ومقطوعة. والمتقارب قصيدة. والوافر كل واحد منهما مقطوعة.

أما في غرض الهجاء فإنه استعمل بحرين وحسب هما: الطويل والكامل. ويحتل الطويل الدرجة الأولى، حيث نظم فيه قصيدة ومقطوعة. أما الكامل فحظه ثلاث مقطوعات. ويتضح من خلال استعراض ماسبق أن الفخر يأتي في الدرجة الأولى حيث نظم الشاعر في بحرين زائدين على الهجاء وهما : المتقارب والوافر. كما يظهر أن معظم شعره كان موضوع الفخر وسنحاول هنا أن نستخلص خصائص كل بحر على حدة رجاء تبين العلاقة التي قد تكون بين الوزن والغرض. وحتى نطمئن أكثر إلى مدى صحتها أو بطلانها. فالطويل الذى رأينا أنه يحتل الدرجة الأولى من حيث نظم الشعر فيه سواء في موضوع الفخر أو الهجاء. هو من البحور الطويلة ذات النفس الطويل والإيقاع البطيء الرتيب، فهو يتناسب مع الأغراض الجليلة الشأن كمواقف المفاخرة والمهاجاة والرثاء لكثرة مقاطعه ويرى محمد النويهي : «أنه بإيقاعه البطيء الهادئ يلائم العاطفة المعتدلة الممتزجة بقدر من التفكير والتأمل سواء أكانت حزنا هادئا لا صراخ فيه أم سرورا هادئا لا صخب فيه»(16).

ويقول عنه إبراهيم أنيس : «إن البحر الطويل قد نظم منه مايقرب من ثلث الشعر العربي وإنه الوزن الذي كان القدماء يؤثرونه على غيره ويتخذونه ميزانا لأشعارهم ولاسيما في الأغراض الجديدة الجليلة الشأن وهو لكثرة مقاطعه يتناسب وجلال مواقف المفاخرة والمهاجاة والمناظرة،

لست أدري كيف تكون عاطفة عوف هادئة، وهو يجادل بني عبد مناة في إبل بني الأعشى التي أخذوها؟ بل كانت عاطفة متأججة غاضبة بسبب ما نزل بجيرانه بني الأعشى، وقد أنشد يهجو بني عبد مناة قصيدة من بحر الطويل يقول في مطلعها:

هما إبلان فيهما ما علمتم فأدوهما إن شئتم أن نسالما(18)

أما الكامل فيأتي في الدرجة الثانية بعد الطويل، إذ نجد أن عوفا قد نظم فيه ثلاث مقطوعات من غرض الهجاء ومقطوعة واحدة من غرض الفخر.

ويتسم بحر الكامل بغلبة طابع الجد والابتعاد عن الهدوء والتأمل وموسيقاه تمتاز بالصخب، وهي صفة تتفق وروح المعارك والحروب، : «ومجال الشاعر في الكامل أفسح منه في غيره»(19).

ويقول عبد الله الطيب : هو أكثر بحور الشعر جلجلة وحركات... وهو بحر كأنما خلق للتغنى المحض سواء أريد به جد أم هزل، ودندنة تفعيلاته من النوع الجيد الواضح الذي يهجم على السامع مع المعنى والعواطف والصور حتى لا يمكن فصله بحال من الأحوال»(20).

ويقول عنه النويهي : «إنه ينسجم مع العاطفة القوية النشاط والحركة سواء أكانت فرحة قوية الاهتزاز أم كانت حزنا شديد الجلجلة»(21).

أما المتقارب، فقد نظم فيه شاعرنا قصيدته الرائية الطويلة، وهي قصيدة فخرية خلد الشاعر فيها مآثر قومه وأشاد بفعالهم وشجاعتهم وبطولاتهم وذكر الوقائع التي خاضوها. وهذا البحر يرى عفيف عبد الرحمٰن أن : «فيه دندنة وقدرة على سرد الأحداث فهو ملائم لسرد المعارك ووصفها بعد الفراغ منها»(22).

يقول عوف ممهدا لوصف المعركة :

فأبلغ رياحا على نأيها وأبلـــغ بنى دارم والجمارا
وأبلغ قبائل لم يشهدوا طـحا بهم الأمر ثم استدارا
غزونا العـــدو بأبياتنا وراعى حنيفة يرعى الصفارا (23).

وتجدر الملاحظة هنا أن عوفا استخدم فى القصيدة الوحيدة التى وجدناها مكتملة من حيث مقدمتها وموضوعها الرئيسي. فهل كان هذا البحر محببا عند الشاعر، يلتزمه فى موضوعات فخره؟ أم أنه جاء عفوا دونما تطلب وتخير. فولدت قصيدته متكاملة سليمة كما يولد المولود الصحيح المعافى؟ وراجح عندى أن الشاعر لم يكن يرغب فى المتقارب أو غيره من البحور ينظم فيها غرضا معينا، وإنما كانت تلك تولد مع القصيدة كيفما كان موضوعها أو عاطفتها.

أما البحر الوافر، فهو يتميز بتدفق ورنة قوية ملائمة لروح الحماسة وتصوير الغضب، والتعبير بقوة عن معانى الفخر والهجاء(24). وقد وظفه عوف بن عطية فى مقطوعة واحدة فى

موضوع الفخر، ويظهر فيها أنه غاضب، يقسم بالأيمان العظام على أنه قادر على أن يحمى حماه وهو رجل شجاع وقوي، وليس بالرجل الضعيف الغمر، يقول :

لعمرك إننى لأخو حفاظ وفى يوم الكريهة غير غمر (25).

فهل ياترى بعد هذه الجولة فى البحور التى وظفها عوف فى شعره يمكن أن نقول مع إبراهيم أنيس إننا: «نستطيع ونحن مطمئنون أن نقرر أن الشاعر فى حالة اليأس والجزع يتخير عادة وزنا طويلا، كثير المقاطع، يصب فيه من أشجانه ما ينفس عنه من حزنه وجزعه فإذا قيل وقت المصيبة والهلع تأثر الإنفعال النفسي وتطلب بحرا قصيرا يتلاءم وسرعة التنفس وازدياد النضبات القبلية»(26).

ما من شك أننا أثبتنا بطلان ذلك من خلال استعراض الأوزان التي استعملها عوف. فقد نظم في موضوع الفخر موظفا بحر الطويل والوافر والمتقارب، وكلها بحور يختلف بعضها عن الآخر من حيث طول المقاطع وقصرها. وتنوع التفعيلات مما يضفى على بعضها نوعا من الهدوء ونوعا آخر من السرعة كالذي في التقارب مثلا.

ونقول بكلمة واحدة إن الشاعر حر في عالمه الشعري يصول فيه ويجول وليس علينا أن نفرض عليه أي عنصر من عناصر عمله الشعري فيه كلها تؤدي وظيفتها في الحرص على حياة ذلك المولود الجديد وإبقائه ما شاء له البقاء.

- بنية القافية :

والقافية هي الأخرى لها أهمية كبرى كالتي رأيناها للوزن. وقد اختلف العلماء القدماء في مفهومها. ففي لسان العرب قال ابن منظور : «وقافية كل شيء : آخره ومنه قافية بيت الشعر»(27). ويقول في مكان آخر : «وقال الخليل : القافية من آخر حرف في البيت إلى أول ساكن يليه مع الحركة التى قبل الساكن». ويقال مع المتحرك الذي قبل الساكن كأن القافية على قول من قول لبيد : عفت الديار محلها فمقامها، من فتحة القاف إلى آخر البيت وعلى الحكاية الثانية من القاف نفسها إلى آخر البيت»(28). ويخالف الأخفش هذا المنظور فيقول بأن القافية : «هي آخر كلمة في البيت أجمع»(29).

ويتضح من هذين التعريفين أنها قد تكون كلمة أو كلمتين غير أن الصور المحببة عند بعض الدارسين المحدثين هي أنه : من الواجب ألا تحدد القافية في أطول صورها، إنما الواجب أن يشار إلى أقصر تلك الصور، وإلى أقل عدد من الأصوات يمكن أن تتكون منه(30). وسواء طالت القافية أم قصرت فإنها : «تعبر عن الوقفة الشاعرية التى يقفها الشاعر في استراحة تطول أو تقصر لالتقاط الأنفاس وللتخلص من التدفق العاطفي. ثم إنها فرصة ضرورية لمعاودة النظر إلى الأشياء في ذلك العالم الغريب المدهش - عالم الرؤيا»(31).

على الشاعر وإنما هي جزء من التجربة الشعورية، ولا يمكن فصلها بحال من الأحوال، فالبيت يستدعى قافيته، فمعناه مبني عليها ولا يمكنه أن يستغني عنها ولذلك فإنها تنضم إلى باقي العناصر التي تكون الخطاب الشعري وتميزه أكثر من باقي الأجناس الأدبية الأخرى.

ويعترضنا في موضوع دراسة القافية ما اعترضنا في دراسة الوزن، ونعني بذلك علاقة القافية وربطها بموضوعات الشعر، وإن كانت القافية هنا أقل حدة منها في قضية الوزن، إذ أن النقاد القدماء لم يعيروها أهمية. كما رأينا عند حازم القرطاجني وتحمسه إلى قضية الربط بين الوزن والعاطفة.

وما وجدناه ينحصر فيما أشار إليه ابن طباطبا من تناسب بين القوافي وأفكار الشاعر وأوزانه، حينما كان يتحدث عما يسميه بصناعة الشعر، فقال : «فإذا أراد الشاعر بناء قصيدة محض المعنى الذي يريد بناء الشعر عليه في فكرة نثرا وأعد له ما يلبسه إياه من الألفاظ التي تطابقه، والقوافي التي توافقه، والوزن الذي يسلس له القول عليه... »(32).

أما المعاصرون فأول من فطن بالأمر وأولاه أهمية كبرى، ولاحظ في ذلك ملاحظة في شأن الربط بين البحر والعاطفة، هو سليمان البستاني. ولعله فيما ذهب إليه إنما ينظر إلى مقولة ابن طباطبا السابقة، فهو يرى أن العرب حينما نظموا جميع المعاني على جميع البحور، كان شأنهم في القافية كذلك، ولكنه يعود فيقول : ولكنه يجوز للباحث أن يلقي نظرة على منظومات الشعراء ويمحصها بالنقد والمقابلة، فإذا فعلنا ذلك بدا لنا مثلا : أن القاف تجود في الشدة والحرب. والدال في الفخر والحماسة. والميم واللام في الوصف والخبر. والياء والراء في الغزل والنسيب. وإنما هو قول إجمالي إذا صح من باب التغليب فلا يصـــح من باب الإطلاق(33).

أما غنيمي هلال فيرى أنه ليست هناك قاعدة تربط بين حروف القوافي بموضوع الشعر، والأمر في ذلك شبه علاقة البحور بموضوعات القصائد(34).

أما الدكتور محمد النويهي، فالمسألة عنده ظلت مهملة من طرف القدماء وهي مدار اهتمام عند بعض المعاصرين إلا أنها في رأيه مازالت تحتاج إلى مزيد من الدراسة. وحسب ما يظهر في المقولة التالية أنه يؤيد الربط بين القافية والغرض، فهو يقول : «فالقارئ المطلع على الشعر القديم يلاحظ مثلا كثرة ورود حرف العين رويا لقصائد الرثاء الأمر الذي يلفتنا إلى ما في حرف العين من مرارة وتعبير عن الوجع والجزع والهلع... كما يلاحظ ورود حرف السين رويا لقصائد كثيرة عاطفتها الأساسية الأسى والحسرة(35)...

هذه الآراء التي رأيناها قديما وحديثا. وسنحاول هنا أن ننظر على ضوئهما إلى شعر عوف بن عطية. فقد نظم كما مر بنا في مطلع هذا المقال في موضوعين أساسيين هما الفخر والهجاء. وسنحاول تبين قوافي كل غرض على حدة.

ففي الفخر استعمل الشاعر قافية الراء ثلاث مرات(36) والدال مرة واحدة(37) والميم مرة واحدة كذلك. فيبدو أن الراء مختارة عند شاعرنا، إذ أنشد فيها أكثر من نصف ما أنشده في غرض الفخر. بينما جاءت الدال والميم في مرتبة بنسبة الثلث من غرض الفخر. وهذا يخالف ما يراه سليمان البستاني في أن الراء تصلح للغزل والنسيب. والشاعر عوف استعملها في الفخر وفي موضوع الحرب. وكذلك يظهر تباين ما يقوله عن الميم التي يراها أصلح للوصف والخبر، وشاعرنا هذا وظفها في موضوع الفخر.

أما في غرض الهجاء فتراه يستعمل قافية الميم ثلاث مرات(38) والراء مرة واحدة (39). ولا شك أن عاطفته وهو يهجو أعدائه - هنا غاضبة فكيف به يستعمل قافية الميم التي لا تصلح إلا للوصف كما يرى البستاني؟

غير أن هذا كله إنما يؤكد مقولة عدم الربط بين الغرض والقافية وأن القافية إنما هي جزء من التجربة الشعورية تولد معها كما يولد معها الوزن وهي تزيد من موسيقى الشعر وتضفي عليه عالما من النغم والتقاسيم الإيقاعية فتكسبه بذلك مزيدا من المتعة والجمال، وتزيد من شد القارئ إليه وحبه له والعناية به.

الهوامش

(1) هو عوف بن عطية بن الخرع، سيد وفارس وشاعر فحل ساد تيم الرباب، توفي في النصف الثاني من القرن السادس الميلادي.

انظر بسطا لحياة هذا الشاعر في الفصل الأول من الباب الأول ضمن عملنا الموسوم ب = الفروسية والسيادة في شعر عوف بن عطية وبشر بن أبي خازم : رسالة سلك ثالث من جامعة محمد الخامس مرقونة.

(2) - موسيقى الشعر العربي لشكري عياد، ص. 22.

(3) - موسيقى الشعر لإبراهيم أنيس، ص. 179.

(4) - المصدر السابق، ص. 182.

(5) - قصتي مع الشعر - نزار قباني، ص. 61.

(6) - في البنية الإيقاعية، لكمال أبي ديب وموسيقى الشعر العربي لشكري عياد.

(7) - الرؤية والفن، ص. 67.

(8) - منهج البلغاء، ص. 266.

(9) - المصدر السابق.

(10) - المرشد إلى فهم أشعار العرب : 29/1.

(11) - تاريخ آداب اللغة العربية، زيدان، ص. 66.

(12) - الشعر الجاهلي، منهج في دراسته وتقويمه، ص. 61.

(13) - مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية - الرباط - العدد التاسع، ص. 118، مقالة، د. أحمد الطريسي.

(14) - الأسس الجمالية في النقد العربي، ص. 376.

(15) - انظر الفصل الأول من الباب الثاني من عملنا المشار إليه سابقا.

(16) - الشعر الجاهلي، منهج في دراسته وتقويمه، ص. 61.

(17) - موسيقى الشعر، لإبراهيم أنيس، ص. 210.

(18) - أنظر شعر الشاعر، النص رقم : 21، وهو ملحق بعملنا المشار إليه سابقا.

(19) - منهاج البلغاء، ص. 268.

(20) - المرشد إلى فهم أشعار العرب : 246/1.

(21) - الشعر الجاهلي منهج في دراسته وتقويمه، ص. 61.

(22) - الشعر وأيام العرب في العصر الجاهلي، ص. 359.

(23) - شعره، النص رقم : 13.

(24) - الشعر وأيام العرب في العصر الجاهلي، ص. 357.

(25) - شعره، النص رقم : 9.

(26) - موسيقى الشعر إبراهيم أنيس، ص. 177.

(27) - لسان العرب (قفو).

(28) - المصدر السابق.

(29) - كتاب الكافي في العروض والقوافي، ص. 179.

(30) - موسيقى الشعر - إبراهيم أنيس، ص. 247.

(31) - الرؤية والفن، ص. 75.

(32) - عيار الشعر، ص. 5.

(33) - نقلا عن اتجاهات الغزل العربي، ص. 374.

(34) - النقد الأدبي الحديث، ص. 477.

(35) - الشعر الجاهلي، منهج... ، ص. 63.

(36) - شعره، النصوص، 9، 10، 13.

(37) - شعره، النص رقم 7.

- المصادر والمراجع :

عيار الشعر لمحد بن طباطبا العلوي، (ت. 322 هـ).
تحقيق : طه الحاجري ومحمد زغلول سلام
شركة فن الطباعة بالقاهرة، 1956.

- الكافي في العروض والقوافي، للخطيب التبريزي، (ت. 502 هـ).
تحقيق الحساني حسن عبد الله
الناشر الخانجي وحمدان - بيروت - لبنان

- لسان العرب لابن منظور : أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، (ت. 711 هـ) الدار المصرية للتأليف والترجمة مصورة عن طبعة بولاق.

- منهاج البلغاء وسراج الأدباء : حازم القرطاجني، تحقيق : محمد الحبيب بن الخوجة ج 1، 2، طبعة 1955.

- موسيقى الشعر العربي، لإبراهيم أنيس
مكتبة الانجلو المصرية. ط. 1972/4.

موسيقى الشعر العربي، لشكري محمد عياد
(مشروع دراسة علمية)
طبعة دار المعرفة 1978.

- النقد الأدبي الحديث، محمد غنيمي هلال
مكتبة النهضة العربية 1969.

- الفروسية والسيادة في شعر عوف بن عطية بن الخرع وبشر بن أبي خازم : إسلم بن السبتي دراسة تحليلية موثقة ومقارنة
رسالة مرقونة بكلية الآداب. الرباط
السنة الجامعية 1992/91.

مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية - الرباط العدد 9.
دار الغرب الإسلامي - بيروت 1981.

- الأسس الجمالية في النقد العربي، لعز الدين إسماعيل
طبعة دار الفكر، ط. 1968/1.

- تاريخ آداب اللغة العربية - لجرجي زيدان
طبعة دار الهلال، إشراف : د. شوقي ضيف.

- اتجاهات الغزل في القرن الثاني الهجري : يوسف حسين بكار
دار المعارف - مصر - بلا تاريخ

-الرؤية والفن في الشعر العربي الحديث بالمغرب د. أحمد الطريسي
المؤسسة الحديثة للنشر والتوزيع، ط. 1987/1 الدار البيضاء.

- الشعر الجاهلي، منهج في دراسته وتقويمه، محمد النويهي الدار القومية 1969

- الشعر وأيام العرب في العصر الجاهلي، تأليف د. عفيف عبد الرحمن
ط. دار الأندلس 1984.

- في البنية الإيقاعية للشعر العربي، لكمال أبي ديب
دار العلم - للملايين - بيروت، ط. 1981/2.

- المرشد في فهم أشعار العرب، لعبد الله الطيب - المجذوب

إعداد: سيد محمد ولد حدمين
أستاذ: بجامعة انواكشوط
قسم اللغة العربية وآدابها

«وأبجد إلى قرشت وكلمن رئيسهم، ملوك مدين وضعوا الكتابة العربية على عدد حروف أسمائهم. هلكوا يوم الظلة.

فقالت ابنة كلمن:

كلمن هدم ركني هلكه وسط المحله
سيد القوم أتاه الـــــــــحتف نارا وسط ظله
جعلت نارا عليهم دارهم كالمضمحله

«ثم وجدوا بعدهم ثخذ ضظغ فسموها الروادف» (القاموس المحيط)

توضيح الموضوع منطوقا وماهية ومنهجا

1- منطوق الموضوع: الألفباء: تعليمية خاصة:
1.1- الألفباء
1.1.1- الحرف
2.1.1- وظيفة الألفباء
3.1.1- قيمة الألفباء
2.1- التعليمية الخاصة
1.2.1- التعليمية
2.2.1- الخاصة
2- ماهية الموضوع :
1.2- عرض الظاهرة موضوع الفحص
2.2- هدف الدراسة
3- المنهج :
1.3- عرض المدونة
1.1.3- الوحدة الأولى
2.1.3- الوحدة الثانية
3.1.3- الوحدة الثالثة
4.1.3- الوحدة الرابعة
4- قراءة في المدونة :
1.4- أفق القراءة

1- منطوق الموضوع: الألفباء: تعليمية خاصة.

1.1- الألفباء: لفظ مركب تركيبا مزجيا من إسمي أول (ألف) وثاني (باء) حرو من حروف الكتابة(1)، دال دلالة الجزء على الكل، على مجموع هذه الحروف منتظ ضمن سلسلة محفوظة. وهذا اللفظ عربي حديث قد يكون تعريبا للفظ الاغري Alphabeta أو لصورة من صوره في اللغات الأوروبية الحديثة. ولعل مقابله العربية العتيقة هو "حروف الهجاء" أو "حروف التهجي والتهجية"(2) وعلى نحو "الأبجدية" (3).

1.1.1- الحرف: هو صورة خطية للصوت اللغوي يتواضع عليها أهل كل لغة، ومن فهو الوحدة الدنيا للكتابة إلا أنه بمفرده إشارة غير دالة غالبا، إلا مع غيرها حين تدخل تكوين مركب من مستوى أعلى هو الكلمة التي هي وحدها الدليل الذي يعول عليه المتـ (الكاتب) في التعبير عن مقاصده.

2.1.1- وظيفة الألفباء: لنظام الألفباء أو "الأبجدية" (بالاعتبار المبين بالهاء رقم 3) استخدامات مختلفة: بعضها متصل بالخط والكتابة (هذه اللغة الثانية) و أبرزها، وبعضها متصل بالحساب كالترقيم الترتيبي، وحفظ جداول الضرب، وضبط توا جلائل الاحداث ووفيات الأعيان، وحتى التأويل الباطني للنصوص المقدسة.

وإذا كانت التوظيفات الأخيرة من مشمولات ما يعرف «بحساب الجُمَّل» الذي هو من الحساب بالحروف، يعطي كل حرف قيمة عددية، وهو مرتبط أصلا بالنظام الأبج ذي الترتيب المختلف عن الترتيب الألفبائي فإن أهم وأشهر استخدام لنظام الألفباء هو ذ الذي يوظفه في بناء الصورة الخطية للغة (الكتابة) إذ يمكنها من تجاوز مواطن قصورها يوفره لها من امكانية قهر الزمن بإتاحة ذاكرة لا تكاد تضل أو تخون، وامكانية ق المسافة بإتاحة الاتصال عن بعد فصارت «الأقلام راحة للأقدام وتغني عن المشاف بالكلام».

3.1.1- قيمة الألفباء: مثل هذا الطور اللغوي المتميز أو هذه اللغة الخاصة ا تمارسها اليد والعين بدل اللسان والأذن، فتحا عظيم الخطر في تاريخ البشرية حيث اء ظهور الكتابة القطيعة المعرفية المؤشرة لبداية التاريخ: أي مستوى من التطور الثق والحضاري لاعهد للبشرية بمثله.

وتجد هذه الأهمية ترجمتها الواضحة في الممارسة البيداغوجية الأوسع انتشارا، القاضية بأن يبدأ كل متعلم وكل معلم بدرس الألفباء، باعتباره الدرس التدشيني لمس طلب العلم وتحصيل المعرفة، والأساس المتين بما يكفي ليبنى عليه التكوين، ومفتاح م الثقافة الرسمية.

وفي الجملة يمثل نظام الالفباء - على نحو من الأنحاء- الرحم التي تتضمن با الامكانات غير المحدودة لا نتاج الخطاب (المكتوب) على اختلاف أنماطه.

1.2.1- التعليمية: مصدر صناعي، يراد به طريقه التعليم أي إعطاء العلم وما يتصل به من خلق وسلوك مقبولين إن لم يكونا مطلوبين من قبل المؤسسة الاجتماعية. فالتعليمية وسيلة تنشئة وتكوين الفرد وهو في طور الفتاء ليتأهل لما ينتظره من وظيفة عند ما يبلغ طور الرشد والمسؤولية.

ولفظ "التعليمية" مستعمل تعريبا لمصطلح Didactique (من اللفظ اليوناني Didarticos المأخوذ من Didaskein أي علَّمَ ودرَّسَ)، بمعنى نظرية ومنهج لتدريس، وهو قريب من مصطلح بيداغوجيا Pedagogie الذي يعني علم تربية تهذيب الاطفال، وخاصة منهجا في العليم.

2.2.1- الخاصة: تعني في سياق بعينه. وهو ما يعني هنا التعليم عن طريق نظام لألفباء وسيلة وقناة اتصال على نحو مفارق للعرف السائد.

2- ماهية الموضوع:

1.2- عرض الظاهرة موضوع الفحص:

تتمثل الظاهرة، موضوع الفهم، في عثورنا (مصادفة أحيانا) -خلال اهتمامنا ببعض **شكال القول** في الحسانية(4) كالأمثال والأحاجي والحكايات الشعبية ...- بمرويات تداولة في ثقافة البيظان (الحسانية والفصحى) هي عبارة عن أربعة مجاميع من الأقوال خضع لنظام الألفباء عددا وترتيب عناصر، بحيث يتكون كل مجموع من ثمانية وعشرين ولا (عدد حروف الهجاء في العربية الفصحى) بشكل محدد تماما ومغلق نهائيا، لا خلف ترتيب عناصره إلا في حالات اختلاف رواية نسق الالفباء نفسه بين جهة وأخرى.

ولعل من دواعي الاستغراب والاستشكال أن التداول الشفهي لاشهر تجليات هذه لظاهرة يشكل خروجا علي القاعدة، وتحولا "استعاريا" للنظام الألفبائي من سياقه صلي (الثقافة المكتوبة) الى سياق استثنائي هو الثقافة الشعبية (الشفهية)!

2.2- هدف الدراسة:

تسعى هذه المحاولة إلى استجلاء واستكناه هذه الظاهرة اللافتة للانتباه بشدة تباين صرها رغم انضباطها وفق التسلسل الألفبائي، وذلك بفحص تجلياتها المتوفرة والمقترحة للدرس، والاجتهاد في قراءها وفهمها.

3- المنهج:

1.3- عرض المدونة: يقتضي إيراد وحداتها الكبرى (مجاميع الأقوال)، دون ترتيب. ن، وتقديمها بأسمائها المأثورة أو المستخلصة من دلالتها العامة، وبيان مصادرها، لاتها الاجمالية، ولغاتها (حسانية، فصحى، "شبه فصحى") وأنماط الخطاب المهيمنة ا، وجنس أقوال كل وحدة، ثم معالجة الوحدات بكتابتها ضمن جدول يُرَقِّمُ عناصرها وال المكونة لها)، ويورد حروف الألفباء المعنونة لكل قول، فالأقوال نفسها بنصها ل حسب الرواية المشهرة، فالراوية الأخرى إن كانت، وأخيرا تعليقا يحايث كل قول

المصدر: شائع، متداول شفاها في مقاطعة الاك، ومدون ومدروس جزئيا من قبل الأستاذ محمد المصطفى ابن الندى ضمن مقال عام (5). سأشير إلى روايته الخاصة ب(ن).

الدلالة العامة: نصائح وحكم.

اللغة: الحسانية.

نمط الخطاب: تعليمي.

جنس الأقوال: الحكمة.

رقم	الحرف	القول	رواية أخرى	التعليق
1	الهمزة	أحسن تُقارب	.... تكَارب	الأمربفعل لما يترتب عليه من فائدة.
2	الباء	بات افهم لبيقيك		الامر بفعل على سبيل الوقاء.
3	التاء	توب من ذنب امض	.... افعلت (ن)	الامر بالتوبة والإستقامة الدينية.
4	التاء	ثالث السر اندام	ثالث سر ... (ن)	تقرير حقيقة: إفشاء السر وخيم العاقبة
5	الجيم	جوقت السفيه اعطيب		تقرير حقيقة: خطورة تهور القاصر
6	الحاء	حَوْش من يستقدر	.... يستقذر	الأمر بفعل لفائدته: الإبتعاد عن ذي البأس
				(خشية بطشه) أوعن ذي القذر المادي والمعنوي
7	الخاء	خسم كبل اكلامك	... ف الل نابيك(ن)	الامر بفعل لنفعه الضمني: توخي الحزم
8	الدال	دين خير اتراه		الأمر بفعل مطلوب في الحال رجاء مرغوب
				في المآل: العمل للمستقبل.
9	الذال	الذاهب يذهب ابلحسان	اذهب ابعار[ذاك] شين	تقرير حقيقة أخلاقية والدعوة (الضمنية)
			الذاهب بلخير ما اذهب (ن)	إلى سلوك يجسدها.
10	الراء	رايب مافات القطع امض	ارهب ...	الأمر بالتروي في الأمور قبل القطع
			ارهب مافات العمر امض (ن)	الأمر بالإرعواء (خوف الله) قبل الموت.
11	الزاي	زك لفظك بزك	زك لفظك بزك	الأمر بصيانة اللسان عما لا ينبغي قوله
				زور الل ينزار الأمر بملاءمة الفعل للموضوع
12	الطاء	طوف الل ينطافْ		الأمر بملاءمة الفعل للموضوع
13	الظاء	الظريفْ أوْلْ بَلْجَارْ		تقرير أحقية (فائدة) الأكياس في الجوار
14	الكاف	كلم من يفهم لكلام	... يفهم (ن)	الأمر بفعل ما يجدي (تجنبا للعبث، وصيانة
				للمستوى الثقافي والإجتماعي...) ومراعاة
				لمقام الكلام (المخاطب).
15	اللام	لب امنادم هو حسب	... ساس	تقرير قيمة العقل دعامة للشخصية.
16	الميم	مسل تعطب تحرم		تقرير علة تشريعية/ إثبات حكمة الشارع
				الذي يتخذ الضر معيار تحريم: الإستقامة
				الدينية مجلبة لما ينفع أمرا، وتجنيب

17	النون			
				بترك الأفعال المشرفة.
18	الصاد	صون الهيب تنصان	... تنهاب	الأمر بفعل يحقق حفظ مكسب اعتباري:
				صون المكانة بعدم التعرض لمواقف الإهانة.
19	الضاد	ضوف الحسْنَ للظن	ضيف الحُسْنْ الظن (ن)	الأمر بحسن الظن، التفاؤل، توقع الخير
				(من الآخرين).
20	العين	عليك بما لا يدنيك		الأمر بطلب معالي الأمور والتزامها وتجنب
				ما يحط المرء ويزري بمروءته.
21	الغين	غمد فمك تسلم	... تسلك	الأمر بالإمتناع عن الكلام لحصول السلامة
				اسعارة التغميد الذي هو للسلاح الناري
				والسيف، جعلهما في الغمد، حالة السلم، و
				سلهما حالة البأس.، للفم الذي هو أيضا سلاح
				وإذا ترك من غير تغميد (سد محكم) فقد
				يجر إلى صاحبه أعظم الجرائر.
22	الفاء	فائدة العقل يحكم صاحب		تقرير وظيفة "العقل" التي تطابق هنا دلالة
				اللفظ الحسية: الإعاقة، الحد من الحركة،
				التقييد، الإلزام بنظام، بقانون...
23	القاف	قولك إلى اكثر إكورك	قمد فمك تسلك (ع21)	تقرير ضرر كثرة الكلام: الضياع، الوقوع
				في المكروه.
24	السين	سال عن حكم اجهلت	سول... (ن)	الأمر بالإستعلام دواء لجهل مالا يقبل جهله:
				أحكام الدين المنظمة للسلوك.
25	الشين	شفر مافت اهويت	شيد ...(ن)	الأمر بالتروي في الأمر قبل الإقدام عليه:
				الدعوة إلى التريث (التردد) قبل إيقاع ماقد
				يندم عليه ساعة لا ينفع الندم.
26	الهاء	هاب اللى ينهاب	هم إذمك لا اتْشَوفْ (ن)	الأمر بملاحة الفعل (هنا الهيبة، الإحترام)
				مع الموضوع (ماهو عرفا موضع احترام)/
				النهي عن مجرد رؤية مايجلب الذم من
				الأفعال (قارن بالعنصر 17 من هذه الوحدة)
27	الواو	ورع بحرام ذاك شين	ورع بحرام ذاك اجهل	إثبات العيب (شين، اجهل) في جمع
				النقيضين (الورع، وتعاطي الحرام).
28	الياء	يوما لنا ويوما علينا	... لك .../ يوم لنا ...	تقرير عدم اسقرار الحال الذي هو من المحال،
				والدعوة (الضمنية) إلى تجنب البطر يوم
				فوز المرء بمرغوبه، وحسن احتمال اليوم
				الذي عليه أي الوقوف موقف الحكيم العارف
				بسنةالتبدل وتداول الأيام بين الناس،

المصدر: شائع في مقاطعة ألاك.

الدلالة العامة: تنديد بشخص وتبكيت عليه

اللغة: الحسانية.

نمط الخطاب: اللوم

جنس الأقوال: الهجاء.

ر.ع	الحرف	القول	رواية أخرى	لتعليق
1	الليف	الفَرْبُرْتَ	البَرْ ...	الأثرم خسر.
2	الباي	بيهْ احْنَ هاذْ		نحن من فعل به ذلك.
3	التاي	توتْ كَرْطَنْ	تَوْكَارَطَنْ	؟
4	الثاي	ثَبْتَتْ لْ بَطْ		من الثابت أننا ضربناه.
5	اجْمْ	جاهَلْهَ مَنْ		ما كان يتوقّعُ ذلك منا.
6	أحا	حَكْرُ مْلانَ		أخزاه الله/ احتقره مالكنا
7	أخا	خابتْ كَرطْتْ		لم تنجح وشايته.
8	إدَلْ	دبّرْ فاهلاكْ	... هَلاكْ	تسبب في هلاك نفسه.
9	إذَلْ	ذَللْ رَبْنالْ		هذا ماله عندنا/ حظه هكذا.
10	أريْ	رادْ اخْلَ راصْ		لقد قضى على نفسه.
11	إزيْ	زَكَلفْتْ دَعْوَ		هو ضحية دعاء عليه.
12	أطا	طبّتْ كصرْتْ		ذَلّ واستكان.
13	أظا	ظهّرنَ عارْ		كشفنا لؤمه/ فضحناه.
14	أكَفْ	كرْهودْ الطلب	كسانْ خرْبْ	أبغضه الزوايا/ ؟
15	اللّمْ	ليلْ ما نَفْعْ	... زازْ	ماله لم ينفعه/... يعده.
16	امّمْ	ما يسْلمْ مَنْ		لن يسلم منا.
17	انّنْ	نكرودْ إجين		نجازيه إن جاءنا/ نتحداه..
18	اصّطْ	صابَنّ اعْليهْ		نحن على حق في ماناله منا.
19	ادّط	الضّيفْ تَرْمَدْ	ضَيفْ ...	أساء معاملة الضيف/... ضيفه.
20	أعَنْ	عدّلْ خيَانَ		ارتكب خيانة/ لقد خان.
21	أغَنْ	غيّرْ لسْلام		ابتدع في الدين (الإسلام)
22	أفّيْ	فارَقْ شبابْ	فارقْ ...	فارق شبابه/ انقضى شبابه.
23	أقَفْ	قلبودْ الطلب		هزمه الزوايا.
24	اسّنْ	سيد ماكانْ		لم يسافر إلى الشرق/ الشمال.
25	اشّنْ	شتّفْ فرايْ		ندم على رأيه.
26	الهايْ	هانْ مْلانَ		كتب الله عليه العناء.
27	الوا	وَيْلْ منْ		تهدده ونتوعده.
28	اليا	ياطْ ... غَنْ	... يَرْ	ندعو أن يخلصنا الله منه فجأة.

المصدر: ورقة حرة مخطوطة، مجهولة الكاتب، مودعة في كتاب بمكتبة بيتية؛ وبها، غير هذا، فوائد أخرى (أشعار، أحكام...)
الدلالة العامة: حكم وإرشادات.
اللغة: العربية الفصحى.
نمط الخطاب: تعليمي.
جنس الأقوال: الحديث غالبا.

ر.ع	الحرف	القول	رواية أخرى	التعليق
1	الألف	التقوى رأس كل حكمة		
2	الباء	بروا آباءكم تبركم أبناؤكم إلى يوم القيامة		
3	التاء	تحت كل شعرة جنابة	... فاغسلوا الشعر	في أبي داوود
4	الثاء	ثمن الكلب والخنزير حرام	ثمن الكلب خبيث	" مسلم
			لايحل ثمن الكلب	" أبي داوود
			نهى (ص) عن ثمن الكلب	" البخاري
5	الجيم	جعلت لنا الأرض مسجدا وطهورا	... لي ...	" "
6	الحاء	حساب أمتي كركعتي الفجر		
7	الخاء	خيركم خيركم لأهله وأناخيركم لأهلي ولافخر		
8	الدال	داووا مرضاكم بالصدقة		
9	الذال	ذا الوجهين لايكون وجيها عند الله		الصواب: ذو..
10	الراء	رحم الله عبدا تكلم بالخير أو صمت		
11	الزاي	زر غبا تزدد حبا		
12	السين	سيد لأيام يوم الجمعة	خير يوم طلعت عليه	
			الشمس يوم الجمعة	في مسلم
13	الشين	شرطعامكم الوليمة تأكلها الأغنياء	شرالطعام طعام الوليمة	
		وتشتهيها الفقراء	يدعى لها ...	
14	الصاد	صلوا أرحامكم ولو بالسلام		في البخاري
15				

16	الطاء	طلب العلم فرض على كل مؤمن ومؤمنة	طلب العلم فريضة على كل مسلم	في ابن ماجه
17	الظاء	ظللت الملائكة بأجنحتها المؤمنون يوم القيامة	كذا و (الصواب:)... المومنين...	
18	العين	عليك بالتمر فإنه ينور البصر وينبت الشعر	إن خير أكحالكم الإثمد يجلو	
			البصر وينبت الشعر	في أبي داوود
19	الغين	أغلقوا بيوتكم فإن بيتا مغلوقا لا يدخله	أمرنا رسول الله (ص)	
		الشيطان	أن نغلق الأبواب فإن الشيطان لا	أحمد بن حنبل
			يدخل بابا مغلوقا	في البخاري
20	الفاء	فاز رجل ختم بحج		
21	القاف	قل الحق ولو على نفسك		
22	الكاف	كل مسكر حرام	كل مسكر خمر وكل مسكر حرام	في مسلم
23	اللام	لعن الله اليهود والنصارى جعلوا قبور	لعن الله اليهود [ثلاثا]حرمت	
		أنبيائهم مساجدهم	عليهم شحومها/ الشحوم	" البخاري
24	الميم	من غشنا فليس منا	من غش.../ ليس منا من	
			غش/ ليس منا من غشنا	
25	النون	نية المومن أبلغ من عمله	الرجل على قدر نيته	
26	الهاء	هدية المومن ماوجده		
27	الواو	وضوء علي وضوء ونور على نور		
28	الياء	يوجر المومن على رغم أنفه	المسلم يؤجر في كل شيء ينفقه	

المصدر: مخبرة كانت مقيمة لعقود في المجتمع الحساني بمالي (منطقة مَنِكا)
الدلالة العامة: غير واضحة.
اللغة: "شبه الفصحى" (منها الفصيح المستقيم ومنها غير ذلك).
نمط الخطاب: سردي و/ أو غنائي.
جنس الأقوال: غزل وقصة غرامية.

الحرف	القول	التعليق
الهمزة	أصابني برد الهوى ولم نجد له دوى	كذا
الباء	باب لها حسن الجمال	عنوان لايربطه شيء بما بعده
التاء	تبارك الله تعالى	
الثاء	ثمر لها ثمر رقيب	عنوان مضمن فيم للقول بعده.
الجيم	جعفر وخالد والنبي	
الحاء	حتما نموتُ والممات	
الخاء	خفت يخالطني في بالْ	
الدال	دبِّرْ وشاورْ واستحلْ	عالج الأمرَ بالحيلة.
الذال	ذب كما ذاب الرّصاص	
الراء	ربما لاقيتَ ياقلا[م؟]	أظن الأصل غلام (فتى)
		فصحفت ورُخّمت إلى "قلا".
الزاي	زرت الحبيب في الخفا	
الطاء	طلت عيوني يالطيف	
الظاء	ظنوا وماهم بالظنون	
الكاف	كلمتها بين الحيوط	
اللام	لما وقفت معها	
الميم	مثلتها عند الصفات	
النون	نفي لها نفي رقيب	
الصاد	صدر لها صدر النعم	
الضاد	ضد لها ضد الرخم	
العين	عين لها عين الكبر	
الغين	غشوتها ضوء القمر	
الفاء	فم لها ختم الذهب	
القاف	قلت ربي هو الخلاق	
السين	سَلَفْ لها مُفَتّلا	
الشين	شربت من ماء مطر	
الهاء	هدوا عليّ بالحديد	
الواو	وكلت أموري إله	

نس الأدبي واللغة؛ رغم اتحادها في استخدام نظام الألفباء، وفي عدد الاقوال، وفي نة الطابع الشعبي.

وإذا ما اعتمدنا اللغة معيار تصنيف، أمكن تقسيم المدونة قسمين: قسم حساني، يضم حدتين الأولى والثانية؛ وقسم فصيح، يضم الوحدتين الثالثة والرابعة. وباعتماد النمط طابي معيارا، تجتمع الوحدتان الأولى والثالثة في الخطاب التعليمي؛ بينما تستقل حدة الثانية باللوم؛ والوحدة الرابعة بالخطاب السردي و/أو الغنائي. وأما باعتماد نس "الأدبي" معيار تصنيف فإن الوحدات الأربع تنتمي إلى أربعة أجناس، هي على رتيب: الحكمة، الهجاء، الحديث (النبوي غالبا)، والغزل و/أو القصة الغرامية.

وما دام الشيوع والتداول الواسع لا يتصف بهما إلا الوحدتان الأوليان الحسانيتا اللغة، ن هذا القسم،، باعتبار التصنيف اللغوي، ربما كان أصل الممارسة موضوع الدرس؛ أما نسم الفصيح الأقل ذيوعا فمستحدث وهامشي، وهذا قلب للقاعدة العرفية القاضية، عتبار الفصيح (العالم، الرسمي) في أعلى سلّم التقويم، والحساني (لغة الخطاب اليومي، شعبي) في الدركات السفلى من سلم القيم . على أن القسمين يتماثلان من حيث تتوزع وحدتان المكونتان لكل قسم بين الجدّ (I ، III) والهزل (IV،II)؛ ففي حين تقوم وحدان الأولى والثالثة (القسم الأول) على التعليم (الحكمة والأمثال)، والحديث النبوي؛ نوم مكونتا القسم الثاني (الثانية والرابعة) علي اللوم، والسرد فتنبنيان على الهجاء، الغزل أو القصة الغرامية.

وهكذا تترتب مكونتا كل قسم سلميا عاكستين واقع البلد الثقافي بمكوناته المختلفة لخاضعة لهرمية تضع في القمة النص الديني والحكمي وما يعلمانه من سلوك قويم منضبط فق الحقيقة المطلقة؛ وفي أسفل الهرم "النص" الشعبي، العامي، المبتذل الموصوف بالخواء لمعرفي، والعطول الجمالي، والذي لا يلقى التقدير الموضوعي والإحترام إلا عند مثقف هامشي، هرطيق أو حتى "مخرب للإيقونات". وإلا فأي معنى لما يتسلى به الأطفال أو يلعب به بعض البالغين إذا ما أرادوا التعمية والتلبيس على من يتطفل على شؤونهم من الأغيار، حين يتعلق الأمر بخطاب مسنن أو "مُشَفَّر" غايته حفظ الرسالة لغاية فكها ممن لديه مفتاح السنن (الشِّفْرَة)، فيترجم مضمونها إلى لغة كل يوم؟ وإذا كان مضمون كل رسالة " مشفرة" متغيرا حسب مقتضيات التواصل، فإن نسق "الشفرة" نفسه ثابت مما يرشحه لأن يكون الحامل الفعلي للمعنى. يصدق ذلك على الوحدات التي تستعمل كثيرا في التواصل "المشفر" (I ، IV).

أما بالنظر إلى اختلاف الأجناس "الأدبية"، فتتوزع وحدات المدونة الأربعَ أربعةُ أجناس هي علي الترتيب: الحكمة، الهجاء، الحديث، والغزل أو القصة الغرامية. وهذا التنوع والتعدد يعنيان الثراء الثقافي والإنفتاح.

ومما يؤيد هذه القراءة، ويغنيها بالمزيد من عناصر الإثبات كون التقسيم باعتبار الجد (I ، III) والهزل (II ، IV) يقدّم تراتبية تستقطب المشروع الإصلاحي (كلّه) الذي هو هم المجتمع الأول المتمثل في حفظ توازن مُطَمْئن، وترسيخ قيم أصيلة، فمن جهة: يعمل

أوجه الإختلال في المؤسسة الإجتماعية (IV).

1.4- أفق القراءة:

وهكذا تلتقي القمة والقاعدة، والرسمي والشعبي، والفصيح والعامي، والجد و"السخيف"، في نفس المسعى، لبلوغ نفس الغاية. فهل يعني هذا زيف التمييز التراتبي من أصله، وكونه مجرد مظهر من مظاهر الصراع الثقافي، إحدى جبهات الصراع الإجتماعي الذي يرى فيه البعض محرك التاريخ الفعلي وجوهره؟

هوامش

1) نعني حروف المباني، في مقابل حروف المعاني (الدالة على معنى في غيرها).

2) هجا يهجو هجوا وهجاء، الحروف: عددها بأسمائها، وهجا يهجو هجاء: قرأ وهجّى الصبيّ الكتاب تهجية: علمه إيّاه وتهجّى الحروف تهجيا: عددها بأسمائها، والهجاء: تقطيع اللفظة وتحديد حروفها مع حركاتها.

و«حروف الهجاء»: هي الألف واليا، وما بينهما، وتسمى حروف التّهجي والتهجية أيضا.

3) من «أبجد» أول الألفاظ التي جمعت فيها حروف الهجاء في اللغة العربية وهي: أبجد، هوز، حطي، كلمن، سعفص، قرشت، ثخذ، ضظغ» وإنما جمعت هكذا مراعاة لحساب الجمل المستعمل في التواريخ الشعرية خاصة، وترتيبها ترتيب الأعداد من الأحاد فالعشرات فالمئات ثم الألف.

4) يمتد مجال اللغة/ الثقافة الحسانية من جنوب المغرب والجزائر (منطقة تيندوف) شمالا، إلى نهري السينغال والنيجر جنوبا؛ ومن أزواد شرقا حتى المحيط الأطلسي غربا. وهذه الحدود تضم معظم سكان موريتانيا وكل سكان الصحراء الغربية، وبعض سكان المغرب والجزائر ومالي.

5) الأمثال الحسانية، متى وكيف؟: مقال منشور بالوسيط (نشره المعهد الموريتاني للبحث العلمي) عدد2، 1988م/ 1409هـ، (من ص 44-59). ذكر فيه 15 عنصرا من عناصر هذه الوحدة وعرف كلام «قدور» بأنه شفرة للأقدمين كلها أمثل وحكم، مشيرا إلى أنه سبق له نشره في يومية الشعب الصادرة بنواكشوط، بتاريخ 24 نفمبر 1985م.

مشكل السببية بين الأشعرية والرشدية

إعداد: بلال حمزه
المدرسة العليا للتعليم
رئيس قسم الآداب

إن مشكلة السببية نشأت في الفكر الإسلامي عن رغبة المتكلمين(1) في دحض ورد الدهرية والملحدين الذين قالوا بتسلسل الأسباب إلى مالا نهاية له وتأثير بعضها ببعض ناسفين بذلك أي قاعدة عقلية(2) يمكن للمعجزة أن تستقيم عليها.

ولما كان المتكلمون لايسلمون بتسلسل الموجودات إلى مالانهاية له ويقطعون بوجود هو الله، وجب أن يكون هو السبب الوحيد لكل ما يحدث في جميع المحدثات. وهذه جة تلتقي مع القاعدة الشرعية الدينية التي تنص علي أنه «لافاعل إلا الله». فأراد مون نقد القائلين بالسببية وضرورة وجود الطبائع في الموجودات خشية مشاركتها ل الأول في فعله الذي ينفرد به.

وإذا كان مشكل السببية مطروحا في الحقيقة على مستويين اثنين هما المستوى ي والطبيعي والمستوى الفكري والانطولوجي، فإننا نلاحظ بادئ ذي بدء أن اختلاف مين والفلاسفة(3) لا يقع إلا على المستوى الحسي والطبيعي لا على المستوى لوجي، ذلك أن الفلاسفة، كما يرى أبن رشد لاتنكر أن «الفاعل الأول» هو الفاعل قي غير أنها ترى أن «الفاعلية» بالنسبة للفاعلات الأخرى «مقولة عليها باشتراك »(4).

ويقول ابن رشد مؤكدا هذا المعنى إن المتكلمين (هربوا من القول بالاسباب لئلا يدخل م القول بأن ههنا أسبابا فاعلة غير الله، وهيهات لافاعل ههنا إلا الله إذ كان مخترع ب)(5).

ويضيف فيلسوف قرطبة رادا على الدهرية (لاينبغي أن يشك أن هذه الموجودات قد بعضها بعضا ومن بعض وأنها ليست مكتفية بأنفسها في هذا الفعل بل بفاعل من فعله شرطي في فعلها بل في وجودها فضلا عن فعلها)(6).

هكذا ينصح لنا أن الموجودا لا تكون فاعلة عند الفلاسفة بأطلاق بل يترتب فعلها شرطين لابد من اعتبارهما معا: فاعل لها من خارجها «وهو مبدعها ومخترعها» ة تخصها من الداخل (وهي صفاها الذاتية الملازمة لها)(7).

وإذا امعنا النظر في موقف المتكلمين والفلاسفة من هذه المسألة بالذات بدا لنا أنه لاف حقيقة بين الفريقين فيما يخص السببية الإلهية أي رد الفعل الأول إلي الفاعل لكن يبقى الاختلاف والتباين قائمين بين الفريقين فيما يتعلق بالسببية الحسية ية، وهي التي سينصب عليها اهتمامنا في ما يلي.

لقد ذهبت الاشعرية إلي القول أن ما نشاهده من ارتباط بين المؤثرات والمتأثرات ارتباط مزعوم ولا شيء يضمن لنا ضروريته، بل في الحقيقة ليس هنالك سوى أننا

وتترجم هذا الموقف، الفقرة الشهيرة التي اقتبسها [illegible] من كتابه "تهافت الفلاسفة"(9). فقال (الاقتران بين ما يعتقد في العادة سببا وبين يعتقد مسببا، ليس ضروريا عندنا، بل كل ششيئين ليس هذا ذاك ولا ذاك هذا، ولا اثب احدهما متضمنا لإثبات الآخر ولا نفيه متضمنا لنفي الآخر، مثل الري والشرب، والس والأكل، والاحتراق ولقاء النار، والنور وطلوع الشمس، والموت وجز الرقبة، والشفاء وش الدواء، واسهال البطن واستعمال المسهل، وهلم جرا إلي كل المشاهدات من المقترنات الطب والنجوم والصناعة والحرف، فأن اقترانها لما سبق من تقدير الله سبحانه بخلقها ـ التساوق، لا لكونه ضروريا في نفسه، غير قابل للفوت، بل في المقدور خلق الشبع الأكل، وخلق الموت دون جز الرقبة وخلق الحياة مع جز الرقبة، وهلم جرا إلي جم المقترنات)(10).

لكن على ماذا ينبني موقف الغزالي هذا؟ أي ما هي أسس القول بالعادة وبأنها المعتمدة في تفسير "التساوق" الذي نلاحظه بين الموجودات؟

إن الإجابة عن هذا السؤال ستمكننا من الوقوف علي الأسس الأشعرية التي ار عليها الغزالي ثم انطلق منها ليبرهن علي مدى مشروعية "العادة" وقدرة واجرائية المفهوم على "تفسير" الاطراد والضرورة.

إن القول بالعادة وانكار الضرورة والطبع والسببية ينبني ابستمولوجيا على ال بمبدإ "التجويز". لكن الحقيقة هي أن الغزالي ليس هو أول من قال به(11) بل كل مش الأشعرية يقرون أنه لا يوجد شيء من الموجودات على هيئة ضرورية بل كل ماهو موجود وجد عن الاتفاق والصدفة، وليس في الكون طبيعة ولا طبائع، بل يجوز كل شيء على وجه اتفق، ولو لا ذلك لما كانت الموجودا وجدت عن مختار مريد، بل المريد هو الذي يخ أحد المثلين دون تدخل أي ضرورة داخلية كانت أم خارجية.

ولربما يكون الأشاعرة قد وقعوا في كمين الظواهر والظنون التي تخطر ببال الإن عندما يلقى أول نظرة على الوجود، كما عبر عن ذلك ابن رشد في قوله: (ولما كان ي في بادئ الرأي أن اسم الإرادة إنما يطلق على من يقدر على أن يفعل الشيء وضده [التساوي]، رأوا أنهم [أي الأشعرية] إن لم يضعوا أن الموجودات جائزة، لم يقدروا أن يا بوجود فاعل مريد، كأنهم لم يروا الترتيب الذي في الأمور الصناعية ضروريا)(12).

ويضيف ابن رشد في مقام آخر (إن الاشعرية من المتكلمين وضعوا في يج الموجودات أفعالا جائزة، ولم يروا أن فيها ترتيبا ولا نظاما ولا حكمة اقتضتها طب الموجودات، بل اعتقدوا أن كل موجود يمكن أن يكون علي خلاف ماهو عليه)(13).

هكذا إذن وبما أن الموجودات جائزة كلها في نظر الغزالي والاشعرية ك لايمكننا أن نقول بضرورة تساوق الموجودات، بل كلما شاهدنا الاقتدان وتكرر ذلك ع اصبحنا متعودين عليه كما تكرر، وبالتالي تكون العادة إذن هي التي بمقتضاها نحكم الاطراد التساوق.

وللعادة دور آخر في ذهن الغزالي، ليس بأقل أهمية وهو كونها تستطيع أن تم [illegible] علاقة الاسباب بالمسببات عبر مجرد التتكرار فقط، بل تسمح لنا

القمر... [و] من جعل مجاري العادات لازمة لزوما ضروريا أحال جميع ذلك)(14).

إذن لابد أن تكون قدرة الله مطلقة وغير مقيدة بالضرورة حتى يتم فعله أني شاء وكيف شاء، فيخرق الطبيعة فتتحقق المعجزة وتفهم على حقيقتها. هذا ولم يغفل الغزالي عما يمكن احتماله من ردود الفلاسفة، فاستطرد قائلا: (أن يدعي الخصم أن فاعل الاحتراق [مثلا] هو النار فقط، وهو فاعل بالطبع لا بالاختيار، فلا يمكنه الكف عما هو طبعه بعد ملاقاته لمحل قابل له وهذا ما ننكره - بل نقول: فاعل الاحتراق... هو الله تعالي... فأما النار فهي جماد فلا فعل لها(15).

هكذا يرى الغزال أن الجماد لايفعل - بل لا ينسب الفعل إلا "لذي نفس" وإرادة وقدرة، وما ذهب إليه "الفلاسفة" من أن النار هي الفاعل للإحتتراق قول مجاني لا برهان لهم عليه سوى "المشاهدة" وتلك لا تدل إلا على الحصول عنده ولا تدل على الحصول به (فقد تبين أن الوجود عند الشيء لايدل على أنه موجود به)(16) ولما ادعت "الفلافسفة" (على لسان الغزالي) أن الاقتران تلازم بالضرورة وأن إيجاد المسبب ملازم لوجود المسبب مثلما أن النار تحرق القطن لا محالة، إذ ليس في الامكان أن تكف عن فعل الاحراق من تلقاء ذاتها، ولس هذا فقط بل إن إنكار السببية الحسية يفضي إلى محالات شنيعة منها مثلا: إمكانية تحويل كتاب تركناه في البيت إلى غلام!

أما رد الغزالي على هذا الاعتراض فهو أن النار ليست هي الفاعل، بل في المقدور (الالهي) الأكل دون الشبع، والشرب دون الري، ولقاء النار دون الاحتراق، والعكس صحيح، أن أنه يمكن الشبع دون الأكل، والري دون الشرب والاحتراق دون لقاء النار، وعلى هذا النمط يمكن إدراج دائرة المعجزات.

وهذا لا يؤدي إلي محالات شنيعة وفقدان كل نظام بل: (نقول إن ثبت أن الممكن كونه لا يجوز أن يخلق للإنسان علم يعدم كونه لزم هذه المحالات، ونحن لا نشك في هذه الصورة التي أودعتموها، فأن الله تعالى خلق لنا علما بأن هذه الممكنات لم يفعلها و[نحن الاشعرية] لم ندع أن هذه الأمور واجبة بل هي ممكنة يجوز أن تقع ويجوز أن لا تقع، واستمرار العادة بها، مرة بعد أخرى، يرسخ في أذهاننا جريانها علي وفق العادة الماضية ترسيخا لا تنفك عنه)(17).

هذا هو الحل الذي يقترحه الغزالي وتحقيقه أن إمكان الشيء وكونه في المقدور الإلهي فعله ليس من أشأنه أن يجعلنا نشك فيه، بل طالما لم ينفذ الله مقدوراته نثبت نحن علي عادتنا، لكن هذا الثبات قابل للتغيير، وتلك القابلية تسمح بالقول إنه لايستحيل علي الله تغييره إذا شاء، إلا أنه من دواعي الإطمئنان، أن الله علمنا أنه لن يغير تلك العادات.

ويجمل بنا هنا، أن نرسم تنقل الغزالي من مفهوم "العادة" إلي مفهوم "التجويز" ومنه إلى مفهوم "الامكان" والقدرة الالهية المطلقة.

فهذا التنقل من مفهوم إلي آخر داخل سياق واحد ينجم عنه خلط خطير بين مستويات الخطاب الديني والفلسفي. وهذا الخلط هو الذي شكل القاعدة الاساسية التي قد

وسنترك الكلمة لأبن رشد حتى يبين لنا أن هذا التنقل والخلط «فعل سفسطائي» لا يمت إلى الحكمو بأي صلة.

يبدأ ابن رشد الرد على الغزالي انطلاقا من الربط الذي قام به هذا الأخير بين السببية والمعجزة فيقول: (أما القول في المعجزة فليس فيه للقدماء من الفلاسفة قول، لأن هذه كانت عندهم من الأشياء التي لا يجب أن يتعرض للفحص عنها، وتجعل مسائل، فإنها مبادئ الشرع، والفاحص عنها والمششكك فيها يحتاج إلي عقوبة عندهم)(18).

فالفلاسفة حسب ابن رد لم يتعرضوا للخوض فيما يعتبر مبدءا من مبادئ الشرع، فالباحث في ميدان الأسس والمبادئ التي يقوم عليها الشرع يحتسبونه مخطئا تجب عقوبته، إن مبادئ الشرع كسائر مبادئ العلوم. فلابد من التسليم بها والاقرار بها مبدئيا وإلا فكيف يمكن الخوض فيما سواها مما تستلزمه؟

يقول فيلسوف قرطبة: (أما ما حكاه [الغزالي] في اسباب ذلك عن الفلاسفة فهو قول لا أعلم احدا قال به إلا ابن سينا)(19). يعني أن الحديث عن اسباب المعجزة لم يتعرض له أحد من الفلاسفة سوى ابن سينا.

بعد هذا يتعرض ابن رشد لمسألة الأسباب والمسببات الحسية فيقول: (إما انكار وجود الاسباب الفاعلة التي تشاهد في المحسوسات، فقول سفسطائي والمتكلم بذلك إما جاحد بلسانه لما في جنانه، وإما منقاد لشبهة سفسطائية عرضت له في ذلك... ومن ينكر ذلك فليس يقدر أن يعترف أن كل فعل لابد له من فاعل)(20).

هكذا يرى ابن رشد أن انكار السببية إذا كان عن قصد فهو قول "سفسطائي" وإذا كان عن غير قصد فهو ناجم عن شبهة ولبس، ذلك أن (العقل ليس هو شيء أكثر من إدراك الموجودات بأسبابها... ومن رفع الأسباب فقد رفع العقل)(21).

وحتي معرفة علم المنطق «التي تحتج الاشعرية بضرورة تعلمها قبل كل المعارف» فإنها تفرض الاعتراف بالاسباب والمسببات، لأنه مما لاشك فيه عند ابن رشد أن (من يضع أنه لا علم ضروري يلزمه أن لايكون قوله هذا ضروريا)(22).أما بخصوص الأفعال الصادرة عن الموجودات فمن الضروري حسب فيلسوف قرطبة أن تقع تلك الأفعال فيما يمكن أن يقبل الانفعال. ولذلك لا بد من معرفة ماهو الفعل، وماهو الانفعال: (لأن الفعل والانفعال الواحد بين كل شيئين من الموجودات إنما يقع بأضافة ما من الإضافات التي لا تتناهى)(23). فالنار مثلا إذا دنت من جسم فلا بد أن تحرقه إلا إذا عاقها عائق، لكن العائق لا يسلب من النار صفة الاحراق مادامت تحمل هذا الاسم وتتميز بتلك الطبيعة «أي طبيعة الاحراق».

وبالجملة يرى ابو الوليد «على غرار ارسطو» أن كل الموجودات المحدثة لها اربعة أسباب ضرورية في وجودها. وهي: الفاعلة والمادية والصورية والغائية.

ويقول ابن رشد إن المتكلمين «ويعني الاشعرية» (لو علموا أن الطبيعة مصنوعة لله وأنه لاشيء أدل على الصانع من وجود موجود بهذه الصفة في الاحكام، لعلموا أن القائل بنفي الطبيعة [والطبائع] قد أسقط جزءا عظيما من موجبات الاستدلال على وجود صانع

أما فيما يخص "العادة التي بنى عليها الاشعرية دليلهم فيتسائل ابن رشد عما ذا يريدون باسم العادة؟ أهي عادة الفاعل أم الموجودات أم عادتنا نحن عند الحكم علي هذه الموجودات؟ ثم يجيب: (ومحال أن يكون لله تعالى عادة فأن العادة ملكة يكتسبها الفاعل وتوجب تكرر الفعل منه علي الاكثر، والله عز وجل يقول: {ولن تجد لسنة الله تبديلا}، وإن أرادوا أنها عادة الموجودات فالعادة لا تكون إلا لذي نفس... فهي في الحقيقة طبيعة. وإما أن تكون عادة لنا في الحكم علي الموجودات فأن هذه العادة ليست شيئا أكثر من فعل العقل الذي يقتضيه طبعه، وبه صار العقل عقلا)(26).

بالنسبة لأبي الوليد فمفهوم العادة إذا مفهوم مموه، إذا حقق لم يكن تحته معني ولا مضمونا في هذا السياق، أما "التجويز" و"الاتفاق" (فلو كان مثلا ليس شكل يد الإنسان ولا عدد أصابعها ولا مقدارها ضروريا... لكان لافرق بن أن يخص الإنسان باليد أو بالحافر أو بغير ذلك مما يخص حيوانا من الشكل الموافق لفعله)(27).

وبالجملة - يقول ابن رشد: (فكما أنه من أنكر وجود المسببات مترتبة علي الأسباب في الامور الصناعية أو لم يدركها فهمه، فليس عنده علم بالصناعة ولا بالصانع الحكيم تعال عن ذلك علوا كبيرا)(28).

كان هذا باختصار شديد(29) هو نقد ابن رشد للسببية عند الاشعرية- ومن الملاحظ أنه لم يركز إلا علي السببية الحسية والطبيعية، أما السببية الالهية فهي أمر مسلم به عند الفلاسفة والمتكلمين كما مر بنا، إلا أن ابن رشد اثناء إثباته للسببية الحسية قد حرص علي أن يبين للأشعرية أن انكارها لتلك السببية ينتج عنه لا محالة خطران فادحان: الأول هو انكار العقل والبرهان ومن ثم انكار المعلومات والعلم ككل. والثاني، وليس بأقل خطورة من الأول فهو انكار الصانع وحكمته تعالي وجل عن ذلك.

أما عن المفاهيم التي وظفها الغزالي والاشعرية في استدلالاتهم فكان موقف ابن رشد منها غنيا عن التوضيح، حيث لم يعد مفهوم "العادة" سوى لفظا مموها ولم يعد "التجويز" و"الاتفاق" إلا جهلا أو تجاهلا لطبيعة الموجودات،

وكذلك أصبح مفهوم "الامكان" والممكن" يترتب على الفاعل والاستعداد والقابلية ولم يعد يعني "المقدور الالهي" فقط كما كان عند الاشعرية، وظل "الفاعل" يضم الفاعل الحقيقي والفاعل بالمجاز كما أمست "الإرادة" مقولة "باشتراك الاسم" على المريد الذي ينقصه كمال والمريد الذي لا نقصان فيه.

وليس هذا الضبط للمفاهيم الفلسفية وإفراغها من مضامنها الكلامية سوى مظهر من المظاهر الاساسية وسمة بارزة من السمات المبدئية التي تتسم بها المنهجية الرشدية والتي في الحقيقة تستوجب منا وقفة تأمل من اجل إعادة النظر إلي الفلسفة الإسلامية ككل ولم لا من أجل بناء ابستمولوجيا إسلامية جديدة!

من كتاب "بنية العقل العربي" لمحمد عابد الجابري. الطبعة الأولى، المركز الثقافي العربي، الدرار البيضاء، 1986، غير أننا هنا سوف نركز فقط على الأعرية وخصوصا على ممثلها الكبير. ابي حامد الغزالي ولو كان ينكر ذلك أحيانا. (أنظر "كتابه" تهافت الفلاسفة).

2) نعني تتماشى والمنطق البشري.

3) نعني كل الفلاسفة ماعدى الدهرية.

4) راجع كتاب "الكشف عن مناهج الأدلة" لأبن رشد ضمن "فلسفة ابن رشد" دار الآفاق الجديدة، الطبعة الأولى بيروت 1982. ص: 105.

5) راجع نفس المصدر. ونفس الصفحة الآنفي الذكر.

6) الشكف عن مناهج الأدلة: م.س. ص:105.

7) تهافت التهافت لأبن رشد، تحقيق سيمان دنيا. دار المعارف،، الطبعة الثالثة، القاهرة، 1981، ج|، ص:99.

8) يتفق موقف الاشعرية هذا والموقف الذي تبناه فيما بعد الفيلسوف الانكليزي دافيد هيوم.

9) "تهافت الفلاسفة" للغزالي. تحقيق سيمان دنيا. دار المعارف، السبعر السادسة، القاهرة 1980.

10) تهافت الفلاسفة، نفس المصدر،، ص: 239.

11) راجع "بنية العقل العربي" م.س. ص:205 حيث يؤكد الاستاذ الجابري على أن المعتزلة كانوا في الأصل سباقين إلي القول بالتجويز.

12) الكشف عن مناهج الأدلة، م.س. ص:106.

13) تهافت التهافت: م.س، ص

14) انظر "تهافت الفلاسفة"، ن.م، ص:237.

15) "تهافت الفلاسفة" ن.م، ص: 240.

16) تهافت الفلاسفة، ن.م. ص: 241.

17) تهافت الفلاسفة: م.س، ص:245.

18) تهافت التهافت، م.س، ص:245.

19) ن.م ، ص: 774.

20) ن.م، ص:781.

21) ن.م ، ص:785.

22) تهافت التهافت، م.س، ص:785.

23) ن.م ، ص: 783.

24) الكشف عن مناهج الأدلة: ن.م، ص: 105.

25) ن.م ، ص: 105.

26) تهافت التهافت م.س. ص:787.

27) الكشف عن مناهج الأدلة: ن.م، ص:103

28) ن.م، ص: 102.

الحسن بن اعمربلول
جامعة نواكشوط
كلية الآداب ...
قسم الفلسفة

«علينا أن نفهم، ونحقق اكتمال الفينومينولوجيا لا في حقيقتها أو ماهي عليها ولكن في إمكانيتها».

Heidgger: Quetions IV, P 82

«بقراءتنا لهيدغر لاندري كيف كان الفكر الهيدغري ممكنا، كيف وبعد نسيان طويل امتزج بتاريخ الميتافيزيقا، أصبح من الممكن التأكيد على الاختلاف بين الكائن والكينونة».

Saralî Kofman et R.Laporte: Introduction a'la philosophie de Derrida, Vrin, 1982, P58

لن نتحدث في هذه العجالة، كما يوحي بذلك العنوان، عن الفينومينولوجيا عند هوسرل والانطولوجيا عند هيدغر من أجل المقارنة بين نسقيهما، وبالتالي الركون إلى منهج تطوري، يجعل من اللاحق تواصلا للسابق، ومن الخلف تجاوزا للسلف!

وبعيدا عن هذا كله، سنقوم بمقاربة للحظة من تاريخ الفلسفة تمتد عبر فضاء تاريخي تعايشت فيه مجموعة من المفاهيم أدت إعادة إنتاجها إلي بلورة نسق فلسفي عام يمكن القول بأنه لا يزال حاضرا في الفكر الغربي المعاصر.

والمنهج الذي سنعتمد عليه في هذه المقاربة منهج يمدنا به الفضاء التاريخي عينه، الذي نقرأه. وكل قراءة للتراث الفلسفي، كما يرى هيدغر بحق، هي قراءة تستعمل أدوات أنتجها هذا التراث نفسه؛ ولاسبيل للخروج من مأزق كهذا إلا بانضاج الآليات التفكيكية التي تجعل التراث خارج الوعي وتفصله عن ذات القارئ. وهذا التفكير بالتراث ومعه هو ما نحاول الاقتراب منه في هذه الدراسة*، مركزين على خلق حوارضمني بين هيدغر وهوسرل لإجلاء نقاط الالتقاء بين الفينومينولوجيا والانطولوجيا، وتبيان الطريق الذي شقته الأنطولوجيا الهيدغرية وهي تفتح عصرا جديدا في التفلسف من خلال النقلة النوعية التي أحدثتها في تاريخ الفلسفة.

---

*) للتوسع يمكن الرجوع إلى رسالة للباحث، حول «إشكالية الحداثة في فكر هيدغر»، نوقشت في جامعة محمد الخامس 1994، وذلك لنيل دكتوراه سلك الثالث في الفلسفة (تحت الطبع لدى المركز الثقافي العربي بالدار البيضاء).

تحيل إليه هذه النصوص لنستخرج بعض الملامح المنهجية والطرق التي أدته إلى سؤاله الأنطولوجي، فسنتعرض هنا للمنهج الفينومينولوجي كمشروع لتأسيس هذه الأنطولوجيا متسائلين في آخر المطاف عما إذا كان هذا المشرع سيتحقق وإلى أي حد، وبأي معنى سنفهم هذه الفينومينولوجيا ؟.

ينبهنا كاتب (الكينونة والزمن) في مستهل فقرته الأولى إلى أن "سؤال الكينونة اليوم أصبح في طي النسيان في الوقت الذي يتقدم فيه عصرنا في اتجاه قبول جديد للميتافيزيقا"(أ). معنى ذلك أن مايلوح في أفق الإشكال هو إذن إعادة الاعتبار إلى مسألة الكينونة محل النسيان، أي السؤال عن معناها وحقيقتها.

إن الفلسفة الغربية السابقة علي هيدغر- برأيه- مافتئت تندرج جوهريا ضمن مفهوم واحد للتدليل على ماهيتها القائمة على نسيان الكينونة، ومن ثم أصبحت مسألة الكينونة رافدا غنيا يزوده بأهم المفاهيم لوصف هذه الفلسفة كحدث فريد لهذا النسيان أي أرتقاء التدريجي وسيرورته.

ولئن كان مؤلف 1927 يضم بين دفتيه تفاصيل القول في هذه المسألة ويكثر الحديث عن أصالة إشكاليته وطرافة السؤال الذي طرحه بأنه لا ينتمي إلى الميتافيريقا ولا إلى ما دأب الغرب على تسميته ب(الفلسفة)، فذلك لم يمنع من التساؤل عن مصدر هذا السؤال ذاته، ولم يحل دون الحديث عما إذا كان هيدغر مسبوقا، في تاريخ الفلسفة، في إثارة القضايا التي يقول إنه مجدد ومبدع فيها.

أو لم يكن هذا الكتاب- العمدة هو المشروع المضاد الذي راح هيدغر يقارع به فلسفة هوسرل؟ كيف، ونحن نعلم أن هذا الكتاب بعينه أهدى إلى هوسرل؟

الواقع أن ماهو مثير للدهشة هو ذلك الخلط الغريب في هذا الكتاب بين إهدائه إلي هوسرل والرغبة التي تحدو صاحبه في تجاوز الفينومينولوجيا الترانسانتالية التي أسسها معلمه.

هنا يمكن اللجوء إلى المصادر الذاتية التي أعلن فيها هيدغر، وبأسلوب لاغبار عليه، عن الينابيع الفكرية الأولى التي شكلت انطلاقة بحوثه واهتماماته الفكرية، ومنها على وجه الخصوص ما ينص على علاقته بهوسرل، أي ب(طريقته في التفكير والفينومينولوجيا).

- فمنذ اطلاع هيدغر سنة 1907 على مقال برانتانو (Btentano): الدلالات المتعددة للكائن عند أرسطو، بدأ اهتمامه بالفلسفة يتزايد وهو يلجها من باب الأسئلة التي أثارها لديه هذا المقال: إذا كان الكائن قيل بدلالات معددة فما هي إذن الدلالة الرئيسية والأساسية؟ وماهي الكينونة؟(2).

وتأتي أهمية تأملات برانتانو لافقط من أنها اقتربت من "التذكير" بالسؤال المنسي، سؤال الفكر الأوحد، بل مما خلفته على مولفات هوسرل الأولى(3) ولهذا فهم هيدغر أن "الأبحاث المنطقية" لهوسرل ناجمة أساسا عن "الأسئلة الصادرة عن تأملات برانتانو العميقة"(4).

هوسرل، في الأسئلة التي راودته هو نفسه بعد كلف طويل في قراءة وتدريس "الأبحاث المنطقية": كيف يسير الفكر الذي يدعى الفينومينولوجيا إلى أن يصل اكتماله؟ ماذا يعني الوصف الفينومينولوجي لموضوعات الوعي؟ أين تكمن الفينومينولوجيا؟(5).

الظاهر أن الدخول مع الفينومينولوجيا في الحوار لا يعني الوقوف عند الأصول التي نهلت منها واقتناص المبادئ الأولى التي تؤول إليها، كما لايستهدف إلغاءها بالمرة والوقوف خارجها، بل هو محاولة جادة ترمي إلى إيصال الفينومينولوجيا- كما هي عند هوسرل- إلى اكتمالها، أي أن تستنفد طاقتها بالكامل وتقف عند الحد الأقصى. ذلك أنه يجب علينا أن "نفهم ونحقق اكتمال الفينومينولوجيا لا في حقيقتها أو ما هي عليه ولكن في إمكانيتها"(6) ولا يتعلق الأمر كذلك بتوظيف واستغلال إمكانيات الفينومينولوجيا لصالح الفكر الجديد الذي يبشر به مؤلف 27، ولكن بالأحرى مجاوزة هوسرل إلى إمكانية أكثر تأسيسا وأبعد مما رمى إليه هذا الذي استخدمم هذا الإسم (= الفينومينولوجيا) كعنوان على مشروع جديد وبرنامج إصلاحي يهدف إلى تقويم "أزمة العلوم الأوروبية"(7)...

ومع ذلك لم يدخل هيدغر مع هوسرل في جدالات عقيمة بل كانت موضوعات التحاور تنحصر في قضايا مثل "الفلسفة كعلم دقيق، والفينومينولوجيا، والدروس المتعلقة بمسألة الوعي بالزمن(8). إلا أن هذه الموضوعات على هذا الشكل لن تبرز لنا الأماكن الوعرة التي تتنزل فيها إشكالية هذا التحاور الجذري وأبعاده، ومظان النقد التي يقصدها هيدغر، فلنرجع إلي سؤال طرحه هيدغر، ذكرناه أعلاه، ماذا يعني الوصف الفينومينولوجيا لموضوعات الوعي؟

محاولتنا البحث عن جواب عن هذا السؤال وما قد يستجره تجوز لنا أن نتخلى عن كتاب "الأبحاث المنطقية"(9) كما لاحظ هيدغر نفسه، وأن ننظر في كتب لاحقة، جراء التطور النسبي الذي طرأ على فكر هوسرل سيما بعد صدور كتابه "أفكار" (Ideen):

التعريف الأول الذي يعطي للفينومينولوجيا هو أنها علم للظواهر Phénoménes من هنا انطلاقة هوسرل في الجزء الأول من مؤلفه (أفكار موجهة directrices من أجل فينومينولوجيا)(10). وبما أن كل علم يختص بظاهرة معينة، فما يميز الفينومينولوجيا عن غيرها هو الأهتمام "بظاهرة المعاش" Vécu واتساع حقلها الذي يشمل كل ظواهر العلوم(11)، فهي علم ينصب على "الماهيات" (12) Eidos والمثاليات.

ذلك أن هذه الظاهرة ليست واقعة متحركة كما يحلو للبعض في الخلط بينها وبين واقع العلوم الحقة إن "الظاهرة عند هوسرل وحدة ثابتة غير متغيرة وليست قادرة أساسا على التحول من حين لآخر، لأن وجودها مثالي، لايعرف الميلاد ولا الفناء، ولا تلاشي الماهيات" (13)، وربما كان هذا هو الاسم المفضل عند هوسرل دفعا لكل لبس قد يقع بين "علمه الجديد" والفلسفات السابقة عليه. ولهذا عرف سارترSartre الفينومينولوجيا" أنها وصف لبنيات الوعي الاستعلائي المؤسس على حدس ماهيات هذه

الشيء ذاته"(15). هذا الشيء ذاته رفضه كانط، وهوسرل يرى بأنه أعطي لنا في أصله "بلحمه وعظمه" والعقل يشتغل فيه لإعادة تشييده بالاعتماد أكثر علي المشاكل الصادرة عن قلب التجرْبة. وما هو صادر عن التجربة المباشرة هو ما أسماه هوسرل بالمعاش أي ما يظهر للوعي. و"يتعلق الأمر بتناول هذا المعطى "الشيء ذاته" الذي يدركه المرء ويفكر فيه ويتكلم عنه مع تجنب إنشاء افتراضات حول العلاقة التي تربط الظاهرة بوجود هذا الذي تشكل هي ظاهرته، أو عن العلاقة التي تربطها "بأنا" هي تظهر أمامه"(16).

هذا المعاش، أي ما نتلقاه عن طريق الإدراك والتفكير والكلام والتخيل... هو مايعنيه ديكارت بعبارة الكوجيتو، أي كل ما ينسب إلى الذات: وعندئذ يبدو السؤال واردا حول ما إذا كانت "الظواهر" كلها تعود إلى حالات نفسية مصاحبة لكل عملية إدراك أو وعي أو شك... إلا أن مجهود هوسرل كله ظل محصورا في الدفاع ضد النزعة السيكولوجية وفي "اكشاف علم للمعاش لا يكون مثل علم النفس، وإن كان هذا الأخير يمكن أن يفترضه كأساس لا مرئي"(17).

وليس هذا وحسب، إذ أن مايرمز إليه هوسرل بعبارة "الفلسفة كعلم دقيق" هو الخروج من مأزق ثنائية الذات والموضوع المتولدة عن الكوجيتو الديكارتي، وبالتالي الدخول في أعماق الوعي من أجل الحصول على العموميات الخالصة عن طريق الرؤية الحدسية للماهيات.

هنا نصل "الموضوعة الرئيسية في الفينومينولوجيا" التي عن طريقها حاول هوسرل الابتعاد عن فلسفة الذاتية والفصل بينها وبين الفينومينولوجيا الترانساندانتالية، والتمييز بين الذات كفاعل في المعرفة والذات كشعور نفسي، إذن بين الوعي والشعور، هذه الموضوعة ليست شيئا آخر سوى القصدية intentionalité التي هي "الخاصية التي تتمتع بها (الأشياء) المعاشة في أن "تكون وعيا لشيء ما"(18). وهذا لايعني أن تكون الأشياء محتواة من قبل الوعي مثل قولنا بأن الموجودات كلها قائمة في الزمن بل إن "هذه الخاصية الماهوية eïdetique تصبغ دائرة المعاش بصورة عامة، باعتبار أن كل ما هو معاش يشارك بطريقة ما في القصدية"(19). ف"القصدية هي ما يميز الوعي بالمعنى القوي، وما يسمح في ذات الوقت بتناول بنية المعاش كبنية للوعي"(20).

يتضح لنا هذا من خلال المنهج الفينومينولوجي(21) القاضي بالفصل بين مستويات ثلاثة: أفعال الوعي noème موضوعات الوعي noèse، ثم الموضوع المتميز الذي يقابل غرض ذلك الوعي في الواقع المعاش. لكن بناء العالم أو تفسيره لايستكمل إلا بعد التخلي عن ذلك الواقع الآخر المستقل، أي وضعه بين قوسين أو تعليقه، وذلك للحصول على "الأشياء ذاتها"، والتحرر من كل الافتراضات والسوابق التي تصاحب الذات عند أية عملية "إدراك". وبما أن الوعي قصدي تسنى "إقامة الاختزال réduction بدون فقدان ما طبقت عليه عملية الاختزال. والاختزال في العمق هو تحويل كل معطى إلى ظاهرة مباشرة والكشف عن الخصائص الأساسية للأنا الذي هو الأساس الجذري، ومصدر كل الدلالات المؤسسة وهو مايربط بين القصدية والموضوع"(22). هل نقول مرة أخرى بأننا هنا

الموضوع لا ينتمي إلى حقائق خارجية مستقلة عنه بقدرما هو ظاهرة تحيل إلى الوعي. هذا معطى أولي، والثاني هو أن كل "وعي هو وعي ب..." أي بهذه الظاهرة: "وكل حقيقة تعطي للوعي وكل وعي هو وعي بموضوع" إذا استعرنا تعبير هيجل المشهور. ولكن بحذر شديد، ذلك أن فلسفة هوسرل لم تبتعد كثيرا عن أرضيه الكوجيو، والمفارقة أن "التعالي" الذي كان وسيلتها "للخروج" من هذه الأرضية كان بالضبط هو ما جعلها تتوغل فيها. إذ لما كان الوعي قصديا فأن هوسرل أصر على بناء "التعالي في المحاثة"، التعالي الذي أقامه كانط خارج الأنا الديكارتي، وهو عند هوسرل يجب أن يعود إليه. وعلى هذا نفهم عبارة سارتر: "إن التعالي هو البنية التكوينية للوعي أي أن الوعي ولد مسندا على وعي ليس هو (...) وهو يفترض في وجوده وجودا عبر ظاهريا Transphénoménal(23). وهكذا يتميز معنى العالم كمعنى أعطيه أنا للعالم، غير أن هذا المعنى معاش لأنني أكتشفه وبدون ذلك لا يكون المعنى الذي للعالم بالنسبة إلي.

فعملية الاختزال -إذن- هي التحليل القصدي الذي يسمح بكل مهارة باكتشاف العلاقة القائمة بين الذات والموضوع، إنه تحليل يغتني من الموضوع المؤسس كمعنى ويكشف هذا التأسيس أو البناء. إن القصدية توجه، وخروج، وتجاوز، ولكنها أيضا إعطاء معنى. ولئن كان هذا المعنى ظل في كنف الكوجيتو الديكارتي برأي هيدغر، فلا أحد ينكر، وحتى هيدغر نفسه، ذلك الإسهام الكبير للفينومينولوجيا في تجاوز الأنا المنغلقة على نفسها. هذا الإسهام الذي نجد أحسن تعبير عنه لدى ساتر حين يصيح "إنني غارق في عالم الموضوعات، فهي التي تشكل وحدة وعيي المتكاثر، والذي يظهر من خلال قيم وكيفيات دافعة وطاردة، ولكنني أنا اختفيت، إنني انعدمت، ليس لي أنا مكان على هذا المستوى. ولم يأت ذلك من الصدفة أو من سوء انتباه مؤقت، ولكن من بنية الوعي بالذات"(24).

صحيح أن من الاكتشافات الرائدة في الفلسفة اكتشاف ديكارت لـ"قارة الذاتية"، حيث شد الاهتمام إلى ضرورة الوعي كأساس لكل معطى وكل حقيقة، إلا أن ذلك يقول سارتر نفسه لم تتولد عنه إلا "فلسفة غذائية" تسكنها شهوة ابتلاع الأشياء من قبل الوعي؛ وتأتي أهمية هوسرل في أنه أراد أن يقوّم هذه الإنطلاقة فينقذها، بتصفية الوعي وتطهيره من حالات الشعور النفسية ومن علل الطبيعة. «فضد الفلسفة "الهاضمة" لدى التجريبية النقدية والكانطية الجديدة وضد كل "نزعة نفسانية" psychologisme لم يزل هوسرل يؤكد بأننا لا يمكن أن نذيب الأشياء في الوعي. إنكم مثلا ترون هذه الشجرة. ولكن ترونها في نفس المكان الذي توجد فيه: على حافة الطريق، وسط الغبار(...)، فلن تدخل وعيكم لأنها ليست من طبيعه»(25). وما يريد هوسرل أن يؤكده، حسب سارتر، هو القول بأن الوعي والعالم قد أعطيا دفعة واحدة، إن العالم في الأصل خارج عن الوعي ولكنه بماهيته منسوب إليه. وأقصى ما تصل إليه الفكرة هو ألا تصير تمثلا وحسب وإنما شيئا بدوره يجب أن يُتَمثَل. هذه هي القصدية التي يسميها سارتر بـ"تعالي الأنا"(26). «أعني هذا الهروب المطلق، "هذه السلسلة من الانفجارات المرتبطة

الأشياء»(27). وهذا التعالي هو ما يحدد الوعي كوعي ويحفظه من أن يصر جوهرا، الوعي لا "داخل" له، ليس فيه إلا ما هو خارج، إن هذه الضرورة لدى الوعي في أن يكون وعيا بشيء آخر ليس هو، هي ما أسماه هوسرل ب"القصدية"(28).

أهنا نلقي هيدغر؟ هل نضع فعلا أيدينا على الفكرة الناظمة لكل مشروعه: البحث عن "طرق لا تؤدي إلى أي مكان" من أرض الكوجيتو؟

هل مفهوم "الأنا المتعالي" عند هوسرل يقابل مفهوم "الدازاين" Dasein عند هيدغر؟ هل القصدية كانت كافية لتخرج الذات من ذاتها وتحقق اتصالا واقعيا بالعالم الموضوعي؟ أو لم يكن الوعي المتعالي عند هوسرل هو اليقين الممتلىء عند ديكارت والأنا السابق وجودها على كل وجود موضوعي؟

لاشك أن الفينومولوجيا شاركت إلي حد بعيد في القضاء على النزاعات التافهة بين المادية والمثالية في تاريخ الفلسفة، عندما أكدت أن الأشياء تعطي لنا في استقلال كامل عن الوعي حتى في حالة التمثل ذاته؛ إنها "ساهمت -كما يذهب- ليفناس في إنقاذ الانسان والجهاز النفسي من وضعية العلل الطبيعية"(29).

بيد أن هيدغر لم يبق سجين العلاقة القصدية بين الوعي وموضوعاته، ولم يكتف كذلك بالقول بأن الأشياء مستقلة في وجودها عن الوعي، بل تساءل عن الحقل الدلالي والفضاء اللذان تتشكل فيهما هذه العلاقة. فهنالك منظومة اللغة والترسبات المجازية، باختصار وقع اللغة ومكانتها داخل هذه العلاقة. ذلك أن اللغة لم تحظ بمكانتها عند هوسرل، ولم ينظر إليها إلا كوسيلة تعبير، بل كغلاف للتفكير. في حين أنه من أجل إعادة الاعتبار إلى اللغة التي هي "سكن الكينونة"، كما سيعبر هيدغر فيما بعد، ومن أجل بلورة نظرية واقعية عن التعالي للوقوف على أساس القصدية يجب التخلي عن القول بأن الوعي في كل أشكاله بما في ذلك شكله الواقعي يخضع لقانون القصدية. إن هذا "التعالي" الذي يطبع علاقة الأنا مع العالم ليس هو فكرة الوجود-في- العالم عند هيدغر(30). ذلك أن فكرة الوجود' - في- العالم ترتبط عند هيدغر بمفهوم الكينونة الذي هو مفهوم انطولوجي، ولا يمكن فهمه خارج مفهوم الزمان. ففي كل حضور أو "عصر" من عصور العالم تتحدد علاقة الإنسان بالعالم؛ وهكذا يصبح معنى العالم خارج الذات، أي خارج الوعي. ولن تتبلور هذه الأفكار إلا في مرحلة متأخرة من فكر هيدغر. ولكن المنطلق، والمرتكز الفكري الذي تؤول إليه هو تلك التحليلات الأنطولوجية التي أودعها كتاب الكينونة والزمن. ومجرد القول بأن الوعي متعال أو أنه "وجود خارجي" ليس كافيا لمجاوزة الكوجيتو الديكارتي.

والواقع أن نقد الكوجيتو بصورة عامة لن يوصل إلى مجاوزة الكوجيتو والخروج من أرضه، لأن فلسفة الذاتية "مافتئت تتعرض للنقد وهي ليست فلسفة واحدة بالمعنى الحصري" (31) بل "سلسلة من الأساليب التأملية الذاتية المأخوذة من عملية إعادة التعريف الموضوعة من قبل الرفض ذاته"(32). فلو كان كل نقد للذاتية إيذانا بالإنفلات من قبضة الكوجيتو لكان النقد الكانطي سباقا إلى ذلك. ذلك أن الفلسفة النقدية لم تذعن

امتداد، فذلك ما حاول كانط أن يضع له حدودا بالنقد الذي مارسه بإلحاح على تجربة الكوجيتو نفسه. فاقتصرت وظيفة الأنا بعد ذلك على التأطير القبلي لموضوعات المعرفة أو مقولات الفاهمة Entendement السابقة على التجربة، بينما الأنا عند ديكارت لا تشكل وجودا منغلقا، ولكنها إحالة إلى جوهر Substance، إلي أنا، إلى روح، وهي باختصار الطريقة "الميتافيزقية" التي اكتشف بها ديكارتت الإنسان(33) والعالم... فهي دليل على وجوده هو بما أنه ذات مفكرة، وعلى وجود الإله كفكرة فطرية وعلى وجود العالم المضمون من قبل الله. إن "الكوجيتو الديكارتي وجود وهو ليس سوى استعادة لحركات الفكر السابقة(...) وبالضبط وجود الانسان كوعي ممتلىء"(34).

بيد أنه في الوقت الذي يوحد ديكارت بين المنهج والوجود، يتحول المنهج عند كانط إلى مجرد سلوك لمعرفة الطريق. معنى ذلك أن كانط ينتقد دكارت في نقطة انطلاقته: في الشك، مستبدلا إياه بالنقد، في اليقين الجاهز والبداهة ليطعن في أداة المعرفة ذاتها أي العقل. لقد أصبحت الأنا مع كانط فارغة، لا تضمن أي وجود آخر بما في ذلك وجودها هي، لأن كل معرفة، حسب المنهج الترانساندانتالي، لا بد لها أن تكون تركيبا بين مقولات الفاهمة entendement السابقة على التجربة، والحدوسات المأخوذة من التجربة مباشرة. ولما كان الكوجيتو عند ديكارت يقينا أوليا وضامنا ليقينيات تترتب على فرضياته التشكيكية، كان الكوجيتو عند كانط متضمنا في ما أسماه "بوحدة الشعور"(35) بمعنى أن الفاهمة عندما تقوم بالربط بن معطيات التجربة فهي بحاجة إلى أنا تصاحب هذه العملية وتتكفل بالجمع بين شتات التجربة وتوحده، هذه الأنا هي وحدة الشعور، وهي لا تملك إلا تصورات قبلية تسمح لنا بالتفكير في الأشياء. وعلى الرغم من هذا كله فأن "هذا التنقيص من شأن الذات النظرية (عند كانط) سيقابله إعلاء للذات الاخلاقية يكون بمثابة تعويض عنه، والذي ستقام عليه فيما بعد الفلسفات الاخلاقية المعروفة"(36).

وهكذا فما يظهر للفينومينولوجيين(37)، كما حدث مع كانط، على أنه مجاوزة للكوجيتو بواسطة فكرة "التعالي" ليس بالنسبة لهيدغر إلا تضيما له وزيادة لحمولته. لأن أساسها الكوجيتو. فبعد أن أقامت هذه الفلسفات الذات كأساس طفقت تبحث عن مخرج منها، إنها مفارقة كبيرة حددت مصير هذه الفلسفات عموما ولا سيما فينومينولوجيا هوسرل المتعالية التي آلت في النهاية إلى "تأملات ديكارتية"(38)!

إن القياس الذي نعرف بواسطته ما إذا كانت فلسفة ما قد استطاعت أن تغادر بالفعل أرض الكوجيتو -كما هو معلوم عند هيدغر- سؤال الكينونة. أما ديكارت فتحددت الكنونة عنده في الموجود، والموجود هو ما هو حاضر أمام ذات تتمثله وأن "يصير العالم صورة مدركة والانسان ذاتا"(39) فتلك هي السمة المميزة للعصور الحديثة التي كرسها أبو الفلسفة الحديثة.

وطالما أن الصورة العامة التي رست عليها الفينومينولوجيا وفقا لبعض أفكاره القبلية، أي المقيس والمعايير القائمة مسبقا في الذات ف"لايمكن لهذه الفينومينولوجيا أن

الوعي، وغاب سؤال الكينونة عن فكره(41)؛ ولم يكن عنده "عمق السؤال هو الكينونة كوجود منفتح Ek-Esitenz ولكن الأنا كأنا أفكر، وينتج عن ذلك تحويل الإشكالية المتعلقة بتحديد اللقاء الأولى بالكائن.

وبالنسبة لهوسرل هذا اللقاء لا يقع إلا على أرضية "الإدراك المحسوس المؤسس، من منظور ديكارتي، للحد الأقصى الذي يمكن للكائن أن يحمل إله فكريا، والذي لا تتشكل "طبيعته" من شيء غير التفكير"(42)، وهكذا يرجع هيدغر إلى ما وضعه هوسرل "خارج المحيط"، أعني علاقة الإنسان بالكائن، لا انطلاقا من ذاتية مفترضة، تتخذ كمبدإ وبعدها يبدأ الحديث عن التجاوز إلى العالم أو الآخر، وإنما اعتمادا على الكينونة كأساس لهذه العلاقة. إن الكينونة هي التي تجعل الكائن حاضرا بالنسبة إلى الإنسان وتعطي معنى لوجود -الإنسان-في- العالم وانفتاحه على الكائن.. غير أن هذا الحضور الذي يتكلم عنه هيدغر هنا ليس من نمط الحضور أمام الذات القائم على التمثل واليقين الديكارتين، وليس كذلك حضور الوعي لذاته، إنه يقوم على المعنى الزماني للكينونة. وهذا الزمان ليس زمان الآن والوعي المباشر والتجربة الحسية بل هو زمان اللحظة المتصدعة التي تدع الوعي يفلت منها ولا يخيم على الحضور.

وهيدغر يطلق على الحضور أسماء متنوعة مستعملة أساسا في الحقل الدلالي اليوناني كالآليتيا (الإنكشاف) والفيزيس (النمو والانفتاح) و"الأون" (ONالوجود)؛ وبتوضيحه إياها بتقريب بعضها ببعض يسعى إلى تبيان ما أسماه بالمبدإ الفينومينولوجي: مشروعية السؤال Droit à la question(43). ويقوم هذا المبدأ على "الكشف" عن الغياب الذي يصاحب الحضور ويتخفى وراءه. فهناك مستوى يكون فيه ما هو معطى لنا ومنفتح علينا يتجاوز ما يقصده الإنسان ويعنيه، وهذا المستوى الذي ينتمي إلى الحضور لا إلى الحاضر هو مايشير به هيدغر إلى مفهوم الكينونة ETRE. ويرتبط هذا المفهوم عنده بمفهوم الزمن. ونستطيع أن نؤكد من الآن بأن كل انتقادات هيدغر لهوسرل ولكل الفلسفات الحديثة يبنيها على مفهوم الزمن أعني غيابه عند من ينتقدهم. إذ أن معاني الكينونة، والكائن، والعالم والوعي... والذات تتوقف عند هيدغر على مدلول الزمن. وبما أن "القصدية" غير قادرة على إخراجنا من فلسفات الوعي والذاتية فهي لن تبلور مفهوما غير تقليدي عن الزمن. من هنا كان مفهومم "الدازاين" بديلا عند هيدغر عن مفهوم القصدية. ذلك أن الدازاين لا يعني الإنسان العادي ولا يعني الذات المفكرة بل هو يدخل في إطار الأنطولوجيا الهيدغيرية؛ والدلالة الحرفية للدازاين هي الكينونة- هنا أو الكينونة المنفتحة.

وهذا "الهنا" أو الإنفتاح "يشير في العمق إلى تجاوز الذات ومعانقة الآخر والتواصل معه(44). إن كل وجود -في- العالم هو وجود -مع- ووجود في. والوجود -في- العالم "وجود سابق على كل محاولة ترمي إلى موضوع هو يحتويه؛ لأن كل موضوع هو في النهاية عالمي"(45).

إن الانتقال من القصدية إلى الدازين هو -إذن- المعنى الضمني القادر علي إبراز

وهذا الانتقال كأساس لمسألة الكينونة لا يشير إلى التجاوز او القفز، وإنما هو مشروع يرمي إلى تحويل أما كن السؤال وإنارة الطريق أمام أسئلة جديدة تتولد عن السؤال الأول. وطريق الذي سلكه هيدغر لهذه الغاية لايشكل موضوع المنهج كما هو عند الفلاسفة الراغبين في تحويل الفلسفة إلى "علم دقيق".

نقرأ له "في الفلسفة ليست هناك إلا طرق، في العلوم على العكس توجد مناهج، أي كيفيات للتعامل. ونحن نفهم الفينومينولوجيا علي أنها طريق يؤدي إلى هناك ويسمح بأظهار ما يمتنع عن الظهور. هذه الفينومينولوجيا هي فينومينولوجيا اللاظاهر والتستر"(46).

إنها ليست منهجا لأن كل منهج عنف وتحكم، في حين أن ما تنقب عنه فينومينولوجيا اللاظاهر هو هذا الذي لا يظهر أصلا إلا ليتستر ويمتنع بالتالي عن كل قبضة وسيطرة. إن "سؤال هيدغر-إن كان يمكن أن نتكلم هكذا- يتوجه إلى "كينونة الكينونة" أوعلى الأصح حقيقة الكينونة، أو ينبغي فهم هذه الحقيقة انطلاقا من أنها مأمن يحفظ الكينونة ككينونة"(47).

من هنا يتولد السؤال الكبير، هذا الذي بالنسبة لهيدغر -يستحق عن جدارة لقب "السؤال الفينومينولوجي"(48). وهو ما به تتحدد "مهمة الفكر" وتوقف الفلسفة عند حدودها القصوى أي نهايتها، وتصل الفينومينولوجيا إلى إمكانيتها.

لا يأخذ هيدغر على هوسرل أنه كان "فينومينولوجيا" وإنما لأنه لم يكن أبدا كذلك أي بالمعنى الأصيل الذي يقصده هيدغر. إن الفينومينولوجيا مع هوسرل، كان بأمكانها أن تبتعد عن الفلسفة الديكارتية عندما أنقذت الوعي وجعلته صافيا لا يشوبه شيء وردت إلي الموضوع اعتباره، لكنها -وهذه هي "غلطتها" الكبرى- في فعلها ذاك رمت الموضوع في أحضان محايثة الوعي. فهي إذن لم تقطع إلا نصف الطريق.

إذ أننا " لايمكن أن نتكلم عن تقويض ما دمنا نتكلم عن " الأنا أفكر" ذلك أن الأنا أفكر (مثل "المونـاد" عند ليبنيز) ليس فيها نافذة ولا منفذ يترك أحدا يدخل أو يخرج، إنها صندوق مغلق وفكرة الخروج منها متناقضة مع ذاتها" (49). ما دامت الكينونة في فيتومينولوجيا هوسرل معطاة فى الأصل للوعى فإنه لا يمكن تأسيس أية أنطولوجيا إلا على الميتافيزيقا، وبالاحرى غرس مفهوم الاختلاف الانطولوجي إلا على أرضية قوامها الفينومينولوجا أي في النهاية شكل من أشكال الميافيزيقا. لأن الفينومينولوجيا لا تنتقد المتتافزيقا في فعلها إلا لكي تستعيدها" (50) بل إن "كل المفاهيم التي أقام عليها هوسرل الفينومينولوجيا (كمفهوم الشكل أو الصورة والمهاية والبداهة...) لا تزال تستظل بالميتافيزيقا، بل هي من صلب الميتافيزيقا، إنها مفاهيم "متداولة في الميتافيزيقا" Intermetaphysique ولا يكفي أن نستبدل مفهوما بمفهوم أو شكلا بشكل، فنحن نعلم ماذا تعني الصورة في الميتافيريقا، إنها في نفس معنى الماهية والمركز والبداهة..."(51)، وربما احتاج الأمر إلى تعديل مفهوم الفينومينولوجيا حتى تخرج من دائرة الميتافيزيقا. وهو ما ينجم عنه قلب أولوية العلاقة بين الذات والموضوع الشاوية

عندما يتكلم هيدغر عن المشروع الذي يعد به (تقويض التراث الميتافيزيقا..) يبدو للقارئ وكأنه يتحاشى الحديث عن منهج يحقق به مقاصده النظرية. وربما يرجع ذلك إلى الالتحام العميق الذي نجده عند هذا الفيلسوف بين الموضوع والمنهج؛ ولكن أيضا إلى التغييرات الجذرية التي أدخلها على المفاهيم التقليدية التي كانت متداولة في الفلسفة بحيث لا تصبح هذه المفاهيم وسائل لتحديد المنهج بقدر ما تساهم إسهاما كبيرا في بناء الأنطولوجيا وترسيخ دعائم "فكر الكينونة"، درءا لكل رؤية ترى في المنهج تحكما أو إرساء لمذهب يحل مكان آخر. من هنا رفضه أن يكون له "مقال في المنهج" وإنما طريقة للدخول في حوار مع التقليد بطرح السؤال الأساسي، سؤال الكينونة، و"التذكير" به.

ولئن اختار هيدغر في البداية الطريقة الفينومينولوجية فلم يكن ذلك ولعا في المذهب الفينومينولوجي ودخولا في الإشكاليات المعاصرة له، وإنما لأن "الفينومينولوجيا هي أولا وقبل كل شيء مبدأ، إنها لا تعين الخاصية الحقيقية للموضوعات بل الكيفية التي تكون عليها الأشياء"(52). والدرس الذي علمتنا إياه الفينومينولوجيا كامن في "حكمتها" التي تحث على "العودة إلى الأشياء ذاتها". وهذه "العودة إلى الأشياء ذاتها تتلخص في مبدإ أساسي يعبر عن معارضته لكل البناءات، والترسبات والقوالب الجاهزة والأوهام التي يسقط في مغبتها البشر متخذين منها مشاكل ... والأهم من هذا أنه يحذرنا من كل اسعمال "للمفاهيم المستخرجة من الظاهر العابر"(53). فهو إذن يعيدنا إلى الأصول:

وبناء عليه، فأن هيدغر على عادته، يرجع بكلمة "فينومينولوجيا" إلى حقلها الدلالي الأصيل في اللغة اليونانية: "فالفينومين" هو "ما يظهر بنفسه" وما هو كذلك هو ما أطلق عليه اليونان كلمة "الكائن" (أو الموجود)، والكائن يظهر في أشكال متعددة كما سبق القول مع أرسطو. والمعنى الأصيل للظهور هو التجلي والانكشاف واللاتحجب، أما اللوغوس فهو يترجم خطأ إلى "العقل" أو "المفهوم" في حين أن معناه الأصيل هو "الخطاب" وبالضبط" جعل ما في الخطاب يتجلى في الخطاب (54). ويحذرنا هيدغر من خطر الوقوع في ترجمة "للخطاب" إلى العبارة أو المنطوق لأن ذلك من شأنه أن يوقعنا في فهم شائع عن "الحقيقة" أنها تطابق بين العبارة والشيء، لأن اللوغوس هو ما يجعل الشيء يظهر بنفسه ويتجلى. وهنا نلاحظ القرابة الموجودة بين لفظي "اللوغوس" و"الفينومين" اللذين تتألف منهما كلمة "فينومينولوجيا Phénoménologie، وكأننا يمكن أن نعرف هذه الكلمة حرفيا بأنها: "الظهور لهذا الذي يجعل الشيء يظهر بنفسه ويتجلى".

وإذا كان "الشيء" يظهر بنفسه ويتجلى فذلك يعني أن "العقل" لا يتابعه وهو في حالة انكشافه وبروزه، بل إن ظهور هذا "الشيء" سابق لوجود "الفكر" ذاته. وإذا كانت وظيفة "الفينومينولوجيا" إنما تقوم على الإظهار والكشف فأنها لا تختص عندئذ بأدراك المحتوى "الجوهري والباطني" للأشياء ولا بتعيين موضوع خصوصي فهي مجرد وصف و"تفسير". غير أن هذا الوصف لا ينصب دائما على ما يظهر لأول وهلة. صحيح أن الكائنات كلها مرئية ومعطاة من خلال بنية المعاش كما بين هوسرل، لكن مالم يظهر هو [illegible] Temporalité.

لا يظهر إلا عن طريقها، فإن هوسرل نفسه كان بإمكانه أن يحقق ذلك، غير أن هذا المعنى عمومي ومألوف وهو التطبيق الشكلي لمفهوم "الفينومين" عند كانط أي ما يتلقاه الحدس التجربي(56). أما إذا كانت الفينومينولوجيا تقوم على إظهار هذا الذي يمتنع بذاته عن الظهور، ألا يكون هيدغر أدخل نفسه في التناقض والإحراج؟

الواقع أن هذا هو ما يرمي إليه هيدغر، أن ننتقل من المفهوم العادي للفينومينولوجيا إلى مفهوم آخر أكثر أصالة لو أننا فهمناه نكون قد عشنا معه إشكالية الكينونة. ذلك أن ما يدوم في الإختفاء أو يسقط في حالة التكتم والتستر، أو الذي لا يظهر إلا بطريقة منحرفة ليس أبدا هو هذا الكائن أو ذاك ، بل هو كينونة الكائن(57). فهناك ما يختفي "وراء" ظواهر الفنومينولوجيا، وهو الذي يستحق أن يكون ظاهرة لهذه الأخيرة! وبما أن الظواهر غير معطاة كان لابد من الفينومينولوجيا. من هنا نكون أمام أطروحتين:

1- الأنطولوجيا ليست ممكنة إلا كفينومولوجيا (الفقرة 70، ص:53) أو بتعبير آخر إن "الفينومولوجيا هي نمط التوجه إلي ما يجب أن يصير موضوعا للأنطولوجيا (نفس المعطيات). إن الأنطولوجيا لايمكن أن تتناول كينونة الكائن إلا بمنهج الكشف والوصف وإلا سقطت في "الجهوييات" و"الحدسيات" أي ارتبطت بماهو موجود مباشرة Ontique(58).

2- "إن الفينومينولوجيا مأخوذة علي حقيقتها هي علم كينونة الكائن - الأنطولوجيا" (الفقرة 7/ص 55). وبتعبير آخر إن الفينومينولوجيا هي تأويل الكائن في اتجاه البحث عن كينونته. فالكشف الفينومينولوجي يقوم على إبراز الكينونة اللاظاهرة على تخوم ماهو كائن، إنه يطلبها حثيثا وهي تتوارى خلف ما هو كائن. لكن الانتقال من الكائن إلى الكينونة أساسه "تحليلية الوجود الإنساني"، أعني الدازاين الذي هو الكائن المتميز في وجوده والمندهش بكينونة الكائن وبحضور الآخرين. هذا الوجود يتصف بأنه انفتاح وتخارج قوامهما الكشف عن الاختلاف الذي ينخر وحدة الكائن والكينونة؛ وليس هذا الاختلاف مجرد توسط يفضي إلى الوحدة كما يظهر مع ا لجدل الهيجلي بل هو الاختلاف الأنطولوجي الذي أصبح موضوع الفينومينولوجيا في وجهها الجديد. فلا عجب إذن أن يحمل أهم كتاب جاء بعد كتاب الكينونة والزمن عنوانا لا يخلو من دلالة: "المشكلات الأساسية للفينو مينولوجيا" مع أنه لم يعالج أساسا قضايا الفينومينولوجيا التقليدية بل ذهب مباشرة إلى طرق المفاهيم المحورية في كتاب "الكينونة والزمن" (الاختلاف، الزمن، التاريخ ...)

وبتعبير آخر إن "المشكلات" الخصوصة هنا هي ما كان يجب على الفينومينولوجيا كفينومينولوجيا حقا أن تعالجها.

وهذا الوضوح الذي تميز به هذا الكتاب المذكور جعل بعض النقاد يؤكدون على أنه هو زبدة فكر هيدغر وخلاصة ما تاق إليه منذ 1927 . ويمكن القول بعدها بأن الفينومينولوجيا استحالت إلى أنطولوجيا "أن الأنطولوجيا ليست ممكنة إلا كفينومينولوجيا. وهذه الأخير ليست جذرية الا كأنطولوجيا"(59).

هذا التعريف متخذا الأنطولوجيا كبحث فينومينولوجي ينتقل من الكائن إلى الكينونة على خط الدازاين، أي يربط فهم الكينونة بتحليلية الدازاين (الكائن الوحيد الذي يعود إليه التساؤل عن حقيقتها بماله من خصائص وجودية متميزة).

إلا أن تحويرا سيطرأ على هذا الثنائي DASEIN/ETRE عندما تتحول الإشكالية من تركيز البحث عن معنى الكينونة على تحليل الوجود الإنساني إلى محورته على الكينونة ذاتها وبالتالي الكشف عن العلاقة الوثيقة بين الكينونة والزمن ويحتل بعد الزمن مكان الدازاين ليصبح الزمن محددا ورئيسيا لغرس الاختلاف الأنطولوجي بين الكائن والكينونة. من هنا يأتي السؤال حول المنزلة التي يحتلها الدازاين بعد إدخال البعد الثالث DASEIN/ETRE/TEMPS، وتتجلى الصعوبات المنهجية التي يصطدم بها قارئ هيدغر في مؤلفاته الأخيرة. وعند هيدغر، تتبدد هذه الصعوبات عند ما نفرق بين زمانية الدازاين ككائن ملقى به في عالم تشغله أشياؤه وبين زمانية الكينونة ذاتها بما هي ظهور واختفاء. وقد فسر هذا الانتقال بأنه تحول في الإشكالية أو في الموقف ووصف بالانعطاف، وهو موضوع آخر لن نتحدث عنه هنا. ونكتفي بناء على ماسبق، برسم المعالم الكبرى لمنهجية هيدغر وفقا للخطوات الثلاث الآتية:

1 - ربط هيدغر الفلسفة الترانساندانتالية باللأنطولوجيا ليجعل تحليلية الدازاين بديلا عن مفهوم القصدية بما أن هذا المفهوم لايزال حبيس الكوجيتو الديكارت أو فلسفة من فلسفات الذاتية.

2- حول هيدغر الفينومينولوجيا إلى منهج توضيحي، تفسيري Hermentique يستعين به للتمييز بين البنيات الاساسية لمكونات الدازاين Existantiaux والخصائص التجريبية لدى الكائنات الأخرى Categories،

3- والخطوة الثالثة تكمن في تطهير هذه الأنطولوجيا بعدما استحالت هيرمونوطيقا من كل الألفاظ الوجودية والأخلاقية التي رزحت تحت وطأتها الفلسفة الترانساندانتالية عند هوسرل، لتسهيل مهمة تحليل الكينونة في أفق الزمن. إنها مهمة تقويضية، والتقويض Destruction هو تحويل آراء الفلاسفة إلى حوار محرج يجعل "التفلسف" يتملك التتراث ليقلبه وينبش أصوله الميتافيزيقية، بدوام عرضه على محك السؤال الرئيسي: ما هي الكينونة؟ أو ماهو الزمن؟ وهما سؤال واحد ما دام المطلوب من التقويض زعزعة المفهوم العادي للزمن للتوصل إلى زمانية الكينونة الأصلية (60). وليس التقويض هو الإلغاء والتدمير بل هو الإستماع إلي ما يقوله التراث في ظل ماسكت عنه وتركه في طي النسيان . وعليه، فأن هذا التراث الذي تمثل عبر الميتافيزيقا، سيتعامل معه هيدغر استراتيجيا كينبوع وحاجز في نفس الوقت؛ وإذا كانت الميتافيزيقا الثاوية في جسم هذا التراث تمثل نسيانا للكينونة فأن الفكر الذي حمل على عاتقه مهمة تقويض التراث سيكون استذكارا Remomeration لسؤال الكينونة وعودة إليه.

وتلك هي أهمية العودة إلى الفكر اليوناني الذي طرح فيه سؤال الكينونة. لكن الاستذكار . مثل النسيان لايتعلقان بذات مفكرة بل بالكينونة ذاتها. "وإذا كان

ليس إذ استجابة لما تفرضه الكينونة وتدعو إليه"(61). فما يقوله المفكرون هو حقيقة الكينونة أو ما تستنطقهم إياه، وما فاه به مفكر في فترة ما يعكس حقيقة الكنونة في عصره؛ "إن هذا الاستذكار الذي ينظر إلى الميتافيزيقا من حيث هي فترة ضرورية من تاريخ الكينونة هو الذي يمكّننا من التفكير في الكيفية التي تتحدد بها حقيقة الكائن"(62).

ولئن كانت هذه الخطوة الأخيرة لم تأت إلا بعد سنين من نشر كتاب الكينونة والزمن، فلا مانع من القول بأن بوادر هذا النقد ومستنداته كانت توجد بشكل جنيني في هذا الكتاب الذي كان زاد هيدغر إلى أرض "خارج" الميتافيزيقا، ولذا أشاد بعض مؤسسي الفلسفة الهرمونوطيقية بما أسماه "بالعمل اللغوي الذي بذله هيدغر في هذا الكتاب للقضاء على الفينوميلوجيا وأطرها المرجعية"(63).

فهل احتفظ هذا المفهوم بعد هذا كله بدلالته التي أعطاها إياه هوسرل؟

صحيح أن هيدغر عند ما أحال نسيان الكينونة إلى الميتافيزيقا وأصبح الاستذكار منهجا للانفلات من قبضة فلسفات الذاتية كانت "الفينومينولوجيا" قبل ذلك مرشحة لهذه المهمة الأوكد. بيد أن هذه "الفينولوجيا" لم يعد موضوعها الظاهر إلا أن يكون دليلا على اللاظاهر ومفعوله، وفي ذلك "تكمن قوة هيدغر المنهجية عندما أحال الفينومينولوجيا إلى البحث عن اللاظاهر(...) وإنما في فعله هذا استبق الجميع مع أنه ليس موقنا بأنه سيدخلنا إلى ما توجه إليه وقصده"(64).

ولعلنا فهمنا الآن لماذا لم يعد الفكر مع هيدغر قادرا على أن يفكر فيما كان يفكر فيه هوسرل، لا لأن الفينو مينيولوجيا مع هوسرل تحددت بموقف فلسفي تقوت دعائمه منذ ديكارت، يتوقف الفكر عنده في ضوء ذاتية الوعي واليقين الثابت، بل لأن هذه الفينومينولوجيا لم تمتحن نفسها بالسؤال، ولم تأخذ علي عاتقها بمبدإ مشروعية السؤال والعودة للأشياء ذاتها، ولم تستجب حقيقة لما ينبغي التفكير فيه، إذ العودة للأشياء ذاتها تعني عند هيدغر لا العودة إلي الذاتية وإنما استيعاب العلل والأسباب التي يقوم عليها نسيان الكينونة، والانخداع بالظاهر وسحره. لأن كل مفهوم يستر وكل قول يجحد. إن الميتافيزيقا تقوم على طمس حقيقة الكينونة، إنها نسيان للاختلاف الأنطولوجي، لكن شرف السؤال، بل محنته، أنه يستذكر هذا النسيان(65).

وبممارسة هذا السؤال الانطولوجي سيتمكن فيلسوف هيدلبرح من نحت مجموعة من المفاهيم تشكل فيما بعد جهازا خاصا لقراءة سيرورة الحداثة الغربية ليس من زاوية منجزاتها الفعلية وحسب، ولكن أيضا من زاوية الميول التي توجد فيها. ومن ثم تمكّن من إخضاء الحداثة للنقد الفلسفي الذي تتعرض له في الفكر المعاصر. وهذا موضوع لحديث آخر.

1) M.Heidegger: L'être et le temps. Trad.Bohem et A.D waelhens, Paris, Gallimard 1974, P. 18

2) Heidegger: "Mon chemin de pensée et la phéno" in Questioons IV, trad. Beaufret et autres, Paris. Gallimart 1976. P. 163

3) ما أكده الباحثون في هذا الصدد أن تأثير برانتانو على هوسرل لم يكن من خلال هذا المقال الوحيد الذي ذكره هيدغر، بل تجاوز إلى مؤلفات لاحقة تمس علم النفس ونظرية المعرفة. والاهم عندنا أن المفهوم المركزي في فلسفة هوسرل intentionnlité (القصدية) كان قد أخذه عن برانتانو. انظر تعقيب المترجم الفرنسي في الصفحة 174، نفس المعطيات.

4) Ibid 164.

5) Ibidem

6) Heideggr: L'être et le temps, op. cit. P 54.

7) لم يكن هوسرل أول من نحت اسم الفينومينولوجا في تاريخ الفلسفة إذ نجد نفس العبارة في نصوص كانط وهيجل وحتى أرسطو قبلهما، إلا أن هذه الكلمة تتخذ عند هوسرل دلالة خصوصية مرتبطة بفلسفته. أما كانط فقد استخدم هذه العبارة ليشير إلى عوامل الطبيعة الذاتية كصورتي الزمان والمكان، وهما من المقولات السابقة على التجربة، في حين أن "الظاهرة" عند هوسرل موجودة أصلا ولا تتحدد بالزمان ولا بالمكان. ولعله يرمي إلى بناء التعالي في ماهو "بعدي عند كانط". أما هيجل فلا تهتم الفينومينولوجيا عنده إلا بالفكر متنقلة من تجليه عبر الجدل، بدءا من الإحساس الفردي وصولا إلى المعرفة المطلقة مرورا بالتعيينات المختلفة التي يغترب فيها الفكر أو الروح. يقول هيدغر: "إن الفينومينولوجيا (عند هيجل) لا علاقة لها لا في موضوعها ولا في نمط تناولها للأشياء ولا كذلك وظيفتها الأساسية وما ترمي إليه، بفينومينولوجيا الوعي بالمعنى الحالي، أي بمعنى هوسرل، كما لايجوز الاعتقاد في أن فينومينولوجيا الوعي الاستعلائية تأخذ عاتقها تبرير علمية العلوم المكتة عالميا وشموليا وتأسيس الثقافة البشرية على معنى إطلاقي حاضر في الوعي.

"Phénomomènologie de l' ésprit" de Hegel Trad E-Martineau- P. 64. nrf- Gallimardd 1984.

8) J.L. Marioon: "Phénomènologiques" in Revue Magazine Littraire P.47 no 225. Paris, 1984.

9) E.Husserl: Recherches logiques: Trad. Hubert Elie, Arion L.kelkel et Rene Scherer. PUF 1972. col,Epimethe- Pris.

ويأتي الكتاب في أجزاء ثلاثة، يدافع الأول منها عن رفض إدخال النزعة النفسية في عملية المعرفة. أما الجزء الثاني فهو يحتوي على وصف لأفعال الوعي الأساسية في بناء المعرفة: المبحث السادس من الجزء الثالث ينتهي من المنطق على الفينومنولوجيا. لكن الطريق الذي شقته الفينومينولوجيا بين المنطق وعلم النفس، وهو طريق الشعور أو الوعي، لم يظهر إلا في الجزء الأول من "الأفكار" سنة 1913.

10) Idees directices · pour une phénoménologie. Trad. P. Ricoeur Gaillimard. nrf 1950.

ويختصر الكتاب عادة في عبارة ألمانية Ideen ترجمت إلى العربية بأفكار. والإشارات الموجودة هنا كلها مقتصرة

11) Ibid P. 14.

12) إن الماهية بالمعنى الهوسرلي للكلمة هي تحديد تتضح فيه قبليا امكانيات الموضوع التي ينطبق عليها الفكر. إنها ناجمة إذن عن التوضيح والشرح منها عن تأسيس معرفة تجريبية بالذات. انظر: J. Desanti: Introduction à la phénomenologie P. 139. PUF 1975.

13) Elber (zw): Etude sur la phénoménologie P.70 thèse présentée à l'Universitè de Nancy, Faculté de Lettres 1930

14) J.P. Sartre: L'imaginaire. ch..IV: Husserl, PUF, 1936 P. 140

15) E. Husserl: Ideen I. Op cit. P. 139.

16) F. Lyotard: la phénoménologie, PUF, 1964 P.6.

17) JJ. Beaufret: introduction aux philosophies de l'existance, Denoel/ Gontier, 1971, P.184.

18) Husserl: Ideen I- Op cit. P 283.

19) Ibidem.

20) Ibid P. 284.

21) خطوات المنهج الفينومينولوجي ثلاث: تعليق الحكم والبناء، إلا أن الخطوة الحاسمة هي الخطوة الأولي على خلاف ما يظهر لكثير من دراسي الفينومينولوجيا ،فحولها يقع النقاش في مسألة الزمن والترانسانداننتال؛ وهو ما يقابل عند هيدغر مفهوم Extase (الوجود المنفتح - المقام المنفتح...)

22) Lyotard: la phénoménologie: op. cit: P.31.

23) Sartre: L'être et le néant, Paris . Gaillimard P. 29-28.

24) Sartre: L'égo transcendantal-esquisse d'une description phénomenologique, Vrin 1978 Paris. P:32.

25) Sartre: Une idée fondamentale de la phénoménelogie de Husserl: l'intentionnalité in situation I, Gaillimard, 1947 Paris. P. 32

26) Sartre: Ego... Op. cit P 46

27) Sartre: Situations I. op cit P. 33

28) Ibidem.

29) E. Levinas: en découvrant l'éxistance chez Husserl et Heidegger, Vrin, 1972, P 112

30) Hiedegger et l'éxperience de la pensée, Gaillimard. 1989, P 182.

31) P. Ricoeur: "La question du sujet et le defit de la semiologie" in Conflit des interpretations. Seuil 1969. P.231.

32) Ibidem.

33) F. Alquié: Découverte métaphysique de l'homme chez Descartes. Paris. Puf. PP. 111 - 242.

المنشورات الجامعية- الطبعة السادسة.

36) L.Labarthes et J.L.Nancy: l' absolu litteraire. seuil 1978 P.44.

37) لم تكن الفينومينولوجيا تقتصر على هوسرل وحده: فهي كما عبر مرلوبونتي في (فينومينولوجيا الادراك، غاليمار 1990، ص:8) "لاتكتشف إلا من داخل أصحابها"، أي عبر السياقات والتحولات التي أجريت عليها بدءا من سارتر مرورا بليفيناس... وصولا إلى مرلوبونتي نفسه. ولا أدل على ذلك من تلك المحاولات التي يقوم بها هذا الفينومينولوجي الفرنسي للدخول في حوار مع الماركسية والتحليل النفسي راميا إلى فصل فلسفة الوعي كما ظهرت في أعمال هوسرل الأولى وبرنامجه الذي كان يعد به والمتمثل في ألايبقى الوجود محصورا في إطار العلاقة التقليدية بين الوعي وموضوعاته. يقول في مقدمة لكتاب في علم النفس: "إن الوعي أصبح الآن هو اللاوعي، شبيه بالشعور الفرويدي، والوجود الذي يحيط بهذا الوعي وجود ذو علاقة بالحلم مختف بالتعريف، بل هو ماقبل - وجود بتعبير هوسرل".

Dr. Hesnerd: L' oeuvre de Freud et son importance pour le monde moderne-Payot 1960. p.8 Paris.

38) يقر هوسرل بهذه الحقيقة قائلا: "إن الفلسفة تتطلب توضيحا يقوم على الضروريات الجوهرية النهائية والأكثر غينية؛ إنها القوانين الأساسية التي تحدد الطريقة التي يعمق بها العالم الموضوع جذوره في الذاتية المتعالية، وبطريقة عينية ملموسة، ليجعل بذلك العالم مفهوما أو قابلا للفهم بصفته معنى مبنيا" Meditation cartesiennes Trad. Levinas, Vrin 1969- P 115- Paris.

وغير بعيد في نفس الفقرة يرد على هيدغر، لكن دون ذكر اسمه نافيا أن تكون مسألة الأنطولوجيا- "القبلية" عند هيدغر "مسألة فلسفة" انظر الفقرة 59 من نفس المرجع.

39) M. Heidegger: chemins qui ne menent nulle part. Gallimard 1989. p. 115- Paris.

40) J. Desanti: Introduction à la phénomènoloooogie. PUF 1975 p.103 paris.

41) بشأن غياب أو حضور سؤال الكينونة في فينومينولوجيا هوسرل يمكن الرجوع إلى بوفراي: حوار مع هيدغر. الجزء الثالث ص126 وما بعدها.

مطبوعات مينوي 1978.

42) Ibid, p 4.

43) Heidegger: Questions IV, op. cit p182.

44) Ibidem P 182.

45) A.D. Welhens: phénomènologie et vérite. essais sur L'évolution de L'idée de vérite chez Husserl et Heidegger, PUF, 1953, P 49-50

46) Heidegger: Questions IV. op. cit, p.338-9

47) Ibid P. 339.

48) Ibid P 340.

1975. P187 col: critique- paris.

51) Ibid p. 188.

52) Heidegger: L'être et le temps: op. cit p44.

53) Ibidem .

54) Ibid P47.

55) Ibid P 53.

56) Ibid pp47-49.

57) Heidegger: questions IV op. cit, p 18.

58) الفارق بين الكينوني (ontique) والانطولوجي (Ontologie) هو أن الكلمة الأولى تحدد ما ينتمي إلى نظام الواقعة والثانية ما يسمح بألقا، نظرة على نظام هذه الواقعة في نسق إدراكي لظواهر الكينونة. وقس على ذلك الفارق بين الوجودي existentiel والوجودوي existential

59) Heidegger: l'Etre et le temps. op.cit P.56

60) Ibid PP. 38 39 40

61) Heidegger: Nietzsche II, trad. P.klossowski Gaillimard 1989, P 394

62) Ibid. P.396

63) P. Ricoeur: Temps et reicit, seuil 1985, P. 9

64) Marion "phénoménologique", Op cit. P 56

65) يتناول هيدغر بنية السؤال في الفقرة 20 من كتابه الكينونة والزمن. نفس المعطيات السابقة.

وهذا الكتاب في الأصل محاضرة ألقاها هيدغر سنة 1935 في جامعة فرايبورج. وذلك بعد ست سنوات من صدور كتابه الرئيسي الكينونة والزمن. ونلاحظ أن ذلك الكتاب لم يأت على ذكر الفينومينولوجيا. وقد اعتبر بأنه أول خطوة في اتجاه "المنعطف" في فكر هيدغر، ولا نستغرب أن يعطي هيدغر في كتبه اللاحقة بعدا للسؤال، بل إن عناوين كتب هيدغر تحولت فما بعد إلي أسئلة (ماهو الفكر؟ ماهي الميتافيزيقا؟ ماهي الفلسفة ؟)

67) لاحظ هوسرل الكهل أن الانطولوجيا الهيدغرية خلقت "ثورة" في الفينومينولوجيا، إلا أنه، وفي الفترة التي تواجد فيها مع هيدغر في جامعة واحدة، لم يكن يفهم التوجه الهيدغري، وقد حصل شيء قليل من سوء التفاهم، فسره البعض خطأ بالظروف السياسية أنذاك أيام صعود النازية إلى الحكم في عهد هتلير: نقرأ رسالة من هوسرل إلى أحد أصدقائه: «لقد وصلت إلى هذه النتيجة أني لا أفهم "العمق الهيدغري"، ولست مهتما بعبقرية المنافية للعلم، وقد حدث ذلك منذ أمد بعيد إلا أنا وحدي لم أستوعبه» أنظر: J. courtine: phénomèlogie et sciences de l'être, cahier de l'Herne, n°45, 1983, P. 112.

68) L'Etre et le temps P. 12, op. cit

Chase, C.I. (1972). Review of TOEFL. In Buros, O.K. (Ed.), *Mental Measurement Yearbook,7*, 550-552.Highland Park,N.J: The Gryphon Press.

Domino, G. (1972). Review of TOEFL. In Buros, O.K. (Ed.), *Mental Measurement Yearbook,7*, p.552. Highland Park, N.J: The Gryphon Press.

Loyd, B.H. (1985). Review of TOEFL. In Mitchell, J. V. (Ed.), *Mental Measurement Yearbook,9*, 1568-1569. Lincoln, Nebraska: The University of Nebraska Press.

Philips, S.E. (1985). Test of English As a Foreign Language language. In Keyser, D.J. and Sweetland, R.C. (Eds.), *Test Critiques 3*, 655-668. Kansas City, MO: Testing Corporation of America.

Tatsuoka, K.K. (1985). Review of TOEFL. In Mitchell, J. V. (Ed.), *Mental Measurement Yearbook, 9*, 1569-1570.Lincoln: The University of Nebraska Press.

1995-1996 Bulletin of Information for TOEFL and TSE. Educational Testing Services